لن ينتهي البؤس..

رواية

محمد طارق

رقم الإيداع:
الطبعة الأولى:
تصميم الغلاف:
التدقيق اللغوي: نورهان سعيد.
الإخراج الداخلي:
المدير العام: سيد شعبان.

المقدمة

أنت لا تقرأ رواية بالمعنى الحرفي للكلمة، كل ما ستجده هنا من كلمات ومواقف وإسقاطات ما هي إلا تجمُّع لعبارات كُتبتْ في أماكن مُتعددة؛ فإن كنت تتعبَّد فستجد بعض العبارات في صومعتك، فإن كنتَ مُسلمًا فـ «بِسْمِ اللهِ الْوَاحِدِ الَّذِي لَا شَرِيكَ لَهُ»، وإن كنتَ مَسيحيًا فستُصلِّي بـ «بسْمِ الأَبِ والابْنِ ورُوحِ القُدُس»، وإن كنتَ يهوديًّا فتذكَّر الوصايا العَشر التي أنزلها الرَّب إلى بَني إسرائيل، أهمها «لَا تَنطِق بِاسْمِ الرَّبِّ إِلهَكَ باطِلًا، لأنَّ الرَّبَّ بريءٌ مِمَّن نطَقَ بِاسْمِهِ باطلًا».

وإن كنتَ تمردتَ على فكرة الأديان، فَقد كُتبتْ هذه الرواية داخل حفلات البلاك ميتال، وحفلات عبدة الشيطان، وزواج الدم، ومزج كلمات من الكُتب السماوية بكلماتٍ عادية، أو حتى تلحين هذه الكلمات بصورةٍ قد تثير مشاعرك.

ولا تهتم كثيرًا، فالذي كتب في المسجد والدير وحفلات التمرد والتنمر لم يصعب عليه اقتحام مجالس السياسيين وأصحاب السُلطة، ولم يغِب لحظة عن تجمعات الميدان، وكان هناك مع الجماهير في مدرجات مذبحة بور سعيد، وهو أيضًا مَن وقف مع عساكر الأمن المركزي في تلك الواقعة الأليمة.

الرمادي سيد الألوان، لكن الأخضر دائمًا يسود في الحُسين والسيدة زينب وغيرها من المقامات والتجمعات الصوفية، كما أنك هُنا في اجتماع مع أشهر الأطباء النفسيين، ولك عنبر أيضًا وسط المرضى التُعساء. وهنا أنت بطل رواية عاطفية من الدرجة الأولى، وإن كنت لا تشعر بالحب فأهلًا بك بين أصدقائك أصحاب النهايات المأساوية، هنا ستجد نظرة أغلب فلاسفة الكون برفقة العشوائيين والذين لا يقدرون على كتابة اسمهم بشكلٍ صحيح.

ستجد الذين انتحروا، والذين رفضوا تلك الفكرة رفضًا تامًّا، وستجد الوسواس القهري يتحدث معك في صورة شخصٍ ما، والاكتئاب، والوحدة، واضطراب ثنائي القطب، والانفصام كذلك، جميعهم ضيوف برفقتك دائمًا.

هذه الرواية شارك بكتابتها كل حيّ يُرزق على الأرض، فتأكَّد أن كاتب الرواية مثلك تمامًا لا يعجبه الواقع، ولا يشعر برضاءٍ تام عن ما يحدث حوله، لذلك أنا لستُ مُجبرًا على كتابة شيء يُعجبك، وأنت لستَ مُجبرًا على المدح أو النقد؛ فنحن هنا نعرض الواقع بصورة رواية حسب وجهة نظر كل الأحياء.

أنا مُجرَّد كاتب نقل الصورة عن كثَب على هيئة كلمات لا أُكثر، وأنت مُجرَّد قارئ تقرأ الحياة بنفس الصورة، ولنا حرية الاختيار.

فأهلًا بك في الواقع السَّرمَديّ..

الفصل الأول

«هذا الحُزن سَيَدُوم لِلأَبَد»

فينسيت فان جوخ
رسالة انتحاره.

«سيداتي، آنساتي، سادَتي..

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته،

نحييكم من مسرح حديقة الأزبكية حيث تعوَدنا أن نلتقي بكم في يوم الخميس الأول من كل شهر، ننقل لكم هذا الحفل الذي تقيمه إذاعة الجمهورية العربية المتحدة من القاهرة وتُحييه كوكب الشرق السيدة/ أُم كُلثوم..

لقد سبق أن التقينا في هذا المكان مَرَّاتٍ ومَرَّات، ولكن لعلَّ لقاءنا هذه المرة يختلف كثيرًا عن المرَّات السابقة، فما أحلى السهر في ليلة من ليالي شهر ديسمبر، وما أجمل أن يكون السهر مع «أُم كُلثوم»!

ما أجمل أن يكون اللقاء الليلة مع صوتٍ حبيبٍ إلى نفوسنا، نرقُبُه جميعًا في مطلع كل شهر، إنه الفن الصادق والأداء المُعبِّر والنَّغم الحُلو تسكبه «أم كلثوم» في قلوبنا وتهمس به في آذاننا.

أيّها السادة، علَّكم تتساءلون ويتساءل معكم الحاضرون هنا عن الأغنية التي ستستهل بها «أم كلثوم» سهرة الليلة؛ إنها أغنية «الأطلال» من نظم «إبراهيم ناجي» –رحمه الله- وألحان «رياض السنباطي».

حقيقةً أننا سبق واستمعنا إلى هذه الأغنية كثيرًا من قبل، ولكن الجميل حقًّا أننا دائمًا ننتظر جديدًا من «أم كلثوم»، ففي كل مرة يخيَّل إلينا أنها بلغت الذروة في غنائها، ولكننا نعود فنكرر هذا الكلام في كل مرة نستمع إليها، إنها كلما غنَّت جددتْ، وكلما شَدَتْ كان تجديدها فنًّا وسحرًا وإبداعًا.

أيُّها السادة، الحاضرون ما زالوا يتساءلون عن الأغنية، كلٌّ منهم يُمنِّي النفس أن تبدأ «أم كلثوم» بأغنيةٍ معينة لها في نفسه ذكريات، ويحمل لها في قلبه شوقًا وحبًّا وحنينًا.

لعلكم تسمعون الآن هذه الدقّات التي تعلن عن انفراج الستار عن «أم كلثوم» في أغنيتها الأولى، أغنية «الأطلال» من كلمات «إبراهيم ناجي» – رحمه الله- وألحان «رياض السنباطي».

سهرة ممتعة..»

في ليلة هادئة هنا في قلب القاهرة، كانت «أم كلثوم» تسود بعظمتها وصوتها أجواء غرفتي، تلك الغرفة التي انعزلتُ فيها قبل ثلاثة أعوام بعد أن قررتُ الابتعاد عن أهلي والحياة وحدي لأُكَرِّس حياتي لدراسة الفلسفة.

على غير العادة، هذه الليلة أقضيها وحدي دون الرفاق، لكن يبقى أثرهم على وضعه؛ المخدرات، الكحوليات، ملابس نسائية، ومراجع أبحاث، حتى أوراق القمار لم تتحرك، ساكنة في مكانها، الغرفة مفعمة بمزيج من الروائح المختلفة من دخان الحشيش مرورًا بالعطور مثيرة الشهوة حتى الأبخرة المغربية.

يأتي إلى هنا الباحثون عن الهدوء، زملائي في الجامعة، ويأتي الباحثون عن التأمل ومُراقبة السماء خاصةً أن الغرفة في الطابق الأخير من العقار، ودائمًا يتواجد الباحثون عن الهروب والمتعة من أصدقائي في وسط البلد.

الأمر عجيب قليلًا لكن لديَّ أصدقاء من مختلف الاهتمامات والأفكار، بدايةً من هذا الذي يأتي ليتأمل في ملكوت الله لذاك الذي يأتي للحديث عن خرافة الأديان، حتى أولئك الذين يجلسون على سور الشرفة لتداعبهم فكرة الانتحار، إلى هؤلاء الذين لا يحملون همًّا إلا إنجاز سنواتهم الدراسية القاسية في كلية الطب، وأولئك الذين لا يفكرون إلا في قضاء وقتًا ممتعًا بِرفقة المخدرات والكحوليات، ولا مانع من ممارسة الحب ما دمتُ أعطي لهم حرية التصرف، الجميع يأتي إلى هنا وأنا لا أتحرك من هنا، وما بين رحيلهم وبقائهم أنا ثابت في مكاني، فمنزلي - وكما وصفَتْه إحدى صديقاتي- عبارة عن مدينة حيوية تستقبل كل آتٍ إليها، تشبه كثيرًا القاهرة، لذلك وضعتُ على باب المنزل لوحة "أهلًا بكَ في القاهرة".

الحياة وحدي علمتني كيف أتأقلم عليها، بمعنى أوضح علمتني كيف أبتلعها، لم يكن قرار الاستقلال هيّنًا، ولم يحدث بسبب خلاف حاد مع أمي أو شجار معتاد مع أبي، لكن وفي كثيرٍ من الوقت نحتاج لشيءٍ جديد، لموقف مختلف، أو حياة مليئة بالأحداث السريعة، كنت في حاجة للبحث عن نفسي، وها قد حدث وواصلت البحث عني بين مختلف أصدقائي، الضال منهم والسَوِيّ، الذي يؤمن والذي لا يؤمن، التي تبحث عن الحب والتي تبحث عن المتعة والمال؛ لم أجدني وما أقسى أن تبحث عن نفسك بعيدًا عنها وكأنها طفلة ضائعة!

هذه الليلة مشؤومة للغاية، لم تكن فقط بالذكريات التي داعبتني أو بالأسئلة التي لم تهدأ في رأسي، بل كانت فيما هو أصعب؛ كانت «أم كلثوم» تستعد لإنهاء الحفل حتى رَنَّ الهاتِف، وكان المتصل هو صديقي «عمّار صبيح» الذي جاء من أقصى جنوب مصر ليدرس في جامعة الأزهر بالعاصمة، لَطالَما كان يأتي إليَّ هاربًا من مطاردات الأمن له، خصوصًا بعد مقالاته الأخيرة ضد النظام الحالي.

طلب من جديد أن يبيتَ عندي تلك الليلة، فلَم أُمانع وأغلقتُ الهاتف، وبدأتُ أستعد لمجيئِه، فنظفتُ الغُرفة من آثار ليلة أمس، السرير والطاولة، وخَبَّئتُ زُجاجات النبيذ احترامًا لمعتقداته الدينية.

وأثناء جولة النظافة السريعة، وأسفل الطاولة التي يجلس عليها أصدقائي وهم مخمورون بين زجاجات النبيذ وتحديات القمار، وجدت ورقة صغيرة، فجمعتُ بقايا التسالي ثم أخذتُ الورقة التي كانت تبدو مدهوسةً بأقدام أحدهم ووضعتها على الطاولة، وواصلت جولة النظافة؛ بالمناسبة الحياة دون لمسة امرأة حياة فوضوية مثيرة للاشمئزاز، أَشبَه بحياة الحيوانات.

بعد أن انتهيتُ من تنظيف المنزل جلستُ على الكرسيّ لأرى محتوى الورقة، والتي ظننتُ أنها لن تكون أكثر من حسابات بنكية أو خطة ما بين طرفين يخدعون باقي زملائهم في اللعبة، لستُ فضوليًّا، لكن لربما أيضًا تكون ورقة هامة سقطت من أحدهم..

«هذه ليست أفضل أيامي، لستُ على ما يرام، ولا يزال قلبي في خصومة مع الحياة، أتظاهر بالقوة، أتظاهر بالثبات، كما لو أنني لا أتألم، ولا أعاني، ولم أنكسر، وأقسم أن بداخلي حطامًا عظيمًا لا يعلم عن أمره أحد، أقسم أنّ داخلي هَشٌّ، ولو رأى البعض الهشاشة التي أعاني منها لأشفقوا كل الشفقة على قلبي.

مأساتي أنني أفكر والتفكير لعنة لو تعلمون يا أعزاء، أفكر بلا هدنة، وآهٍ لو تعلمون مرارة ما أشعر به؛ العالم يَضيق، البشر مزعجون، والكون لا يتسع لقدمي، لن ينتهي البؤس يا أصدقائي، فأرجوكم لا تبكوا ولا تصدقوا أنني يَئِستُ من الحياة، أنتم تعرفون أنني كنت دائمًا أُكافح من أجل العيش بسلام.

يا أصدقائي لا تتركوني عبرةً، دافعوا عنّي، لا تسمحوا للعامة أن يصفوني بالكُفر، لا تسمحوا للشعراء أن يتغنَّوا باسمي في قصائدهم التعيسة، دافعوا عنِّي، فَلَطالَمَا دافعتُ عنكم في حياتي، وإياكم أن تجعلوا أمي تبكي، لا تخبروها بحقيقة ما سأفعله، أخبروها أن وفاتي كانت في حادثِ سَيرٍ عابِر، أو أن البحر داعبني فوقعتُ في حرمته، لا تخبروها أنني اخترت الموت عن الحياة، إياكم وبكاء أمي.

وللذين رحلوا عن عمدٍ أو رغمًا عنهم، لن أسامحهم، فلقد كسرتم قلبي، وما كسر قلبي بهيّنٍ، لن أسامحكم لأنني أعطيت لكم كل شيء، ولم أجنِ إلا الخذلان، لن أسامحكم لأنكم جعلتم مني مريض وحزين، فلو أنكم هنا لما حدث كل هذا، لن أسامحكم أبدًا.

وأنتم في الطريق للمقابر صَلّوا لأجلي، صلّوا لأجل أن يُغفَرَ لي، من أجل أن يتقبلني الله، لا يهم إن كنتم ستذهبون إلى الكنيسة أو المسجد، الأهم أن تذكروني عند إلهكم، واعلموا جيدًا أنني حاولت تقبل الحياة، لكن الحياة لا تتقبلني ولا تحبني.

وزعوا ملابسي على المشرَّدين، وأخبروهم أن هناك مَن كان يتمنى أن لا يجد مشردًا واحدًا يعطي له ملابسه، أرسلوا مكتبتي لدور العبادة، أخبروهم أن الفلسفة ليست كُفرًا، أخبروهم أن الله لا يكمن في البندقيات والذخائر، وأن الله أنقى من الدفاع عنه بالقتل.

وأُكرر أن تعلموا أنني حاولتُ أن أكون شخصًا جيدًا، على الأقل أن لا أكون سيئًا، حاولت التأقلم والانخراط بينكم، لكن كانت الغُربة تجتاحني أينما ذهبت، لا أفهم سر هذه الغُربة حتى مع أقرب المقربون لي، لم أجد شيئًا يشبهني، أُصِبتُ بالوحدة والوسواس، كنت دائمًا أشعر بالخوف من الناس، بلا سبب كنتُ أرتجف وأبتعد وأبحث عن مهرب ومنفذ من العالم، لكن بلا جدوى، أفكاري ظلّت تطاردني كالشبح في كل مكان دون أن يشعر بي أحد.

إياكم والإفراط بالوعي، فالوعي كارثة، حاولوا أن تتمتعوا بالكثير من الجهل والبلاهة، لا تفكروا إلا في الزواج، وانضموا للروتين السخيف الذي اعتاد عليه الناس، أُقسم لكم لو عاد الزمن لما قرأتُ كتابًا واحدًا، لما تعمقتُ في نفسي، أُقسم لكم بأن الوعي يدفعنا نحو الجنون رغمًا عنا..

أعزائي وأصدقائي والناس، لم يكن القرار قراري لكني أُجبرتُ عليه، أقسم بأني حاولتُ أنّ أحيا معكم، لكن الأسئلة في رأسي لا تنتهي، وكُرهي لنفسي لا يتوقف، ورغبتي في الموت لا تتركني.

المشهد بديعٌ مِن هنا، العالَم كبير وحتمًا سيضم جسدي النحيل، أتشوّق لما سيحدث، هل ستجدون حفرة صغيرة تحتوي رأسي المحطمة وجسدي الغارق في الدماء؟

لو وجدتم فابتسموا، فقد تحققت أمنيتي، واعلموا أنني عشتُ حياةً طويلة من أجل أن أجد حيزًا صغيرًا يحتويني، لا تحملوا هم ما سيحدث في السماء، سأخبر الله بكل شيء وأثق في رحمته؛ إلى اللقاء في مكانٍ أكثر مَودة عن الأرض.»

وقفتُ من مكاني، وأعدتُ قراءة الرسالة عدة مرَّات، لا تفجعني رسائل الانتحار، فلقد اعتدتُ على قراءتها في الروايات الفلسفية بالقسم الذي أدرُس، لكن هذه الرسالة تختلف، تثير تساؤلاتي لأن كل أصدقائي يعانون، لكن لم يتحدث أحد عن الأمر ولو على سبيل السخرية.

هذه الرسالة غامضة، والأمر يزداد تعقيدًا لأن الرسالة كُتبتْ على الحاسوب، مما يعني استحالة معرفة خط صاحبها، أو الاستدلال على هويته من سياق السرد، فقد كُتبت بحيث لا يمكنني معرفة هل صاحبها رجل أم امرأة!

رأسي يؤلمني والأفكار مُزدحمة، ففي ليلة أمس كان الجميع سكارى احتفالًا بيوم ميلاد «هاجر» صديقتنا الإسكندرانية التي تدرس الفنون الجميلة هنا في القاهرة.

رنّ الهاتف..

ـ أنا في الطريق.

ـ عمّار! أنا آسف، فلقد زارتني أمي فجأة ولن أستطيع توفير غرفة لك، وبالتأكيد تعرف أمي يزعجها وجود الأغراب في منزلي، أكرر اعتذاري لك، إلى اللقاء.

استيقظت في العاشرة من صباح اليوم التالي، كنت منهكًا وكأنني كنت أطارد غزالة في منامي، اكتشفتُ أنني ومن فرط التعب كنت قد غدوت في النوم بجوار الطاولة، حاولت استعادة وعيي وجسدي، فلم تكن لديّ الطاقة الكافية حتى لفعل ذلك، أعرف معنى أن تكون منهكًا حتى أن التقاط أنفاسك يشعرك بالتعب.

مَرّ الوقت حتى فتح أحدهم الباب، لا أحد يملك نسخة مفاتيح المنزل سوى «سامية نجيب»، صديقتي التي التقيتُ بها صدفة في إحدى مسابقات حفلات وسط البلد للفِرَق المَغمورة، كانت أحد أعضاء الفريق الفائز، وأكبرهم عمرًا وأكثرهم إجادة ومهارة رغم صعوبة آلة القانون التي لم تعاندها أبدًا، بل كانت تستسلم لها بخفة وكأنها تُغرَى بجسدها المُنسَّق، كنت وقتها في السنة الأولى من كلية الآداب قسم الفلسفة، وكنت أقوم بعمل بحث عن الموسيقى وتأثيرها على النفس البشرية، وعندما شاهدتُ «سامية» استوقفني ظهور "آلة القانون"[١] مع الفرقة، فالمدرسة الفنية التي تنتمي لها المجموعة بعيدة كل البعد عن هدوء واتزان القانون؛ لكن أعجبتني طريقتها، أنوثتها والوشم المُميّز على ذراعها، وطريقتها الهادئة رغم ضجيج الأغاني التي كانوا يقدمونها، رغم يدها التي كانت تلعب ثم تهدأ لتصاحب الكحول ثم تعود من جديد لإبداعها، امرأة في الأربعين من العمر، مجنونة، تلعب بهدوء رغم جسدها الذي كان يرقص مع الإيقاع وكأنها كانت تعزف على الجيتار.

[١] القانون: آلة موسيقية وترية، من الآلات البارزة في التخت الشرقي والعزف المُنفرد.

يومها وبعد أن أعلنت اللجنة عن فوز فريقها انتظرتُ حتى هدأت الأجواء وانصرف المشاهدون، ثم تبعتها وهي ترحل بهدوء وحدها دون أن تشارك رفقائها مراسم الاحتفال والتتويج، استقبلتني كمعجبٍ بأدائها، وذهبتُ لها كباحث وطالب في مجال الفلسفة وعلم النفس، ومن هنا بدأ كل شيء وبدأت صداقتنا رغم فرق العُمر الواضح بيننا، لكن أصبح من المعتاد أن نجتمع معًا، «سامية نجيب» عازفة القانون المجنونة الجميلة، وأنا «سراج الدين»، أو كما يطلقون عليَّ دائمًا، «سراج سقراط».

أعادتني «سامية» إلى السرير، ثم ذهبت لتُعِد لنا القهوة بعد أن لاحظتْ أنني في حالة تعب شديدة -بالمناسبة، وحدهن النساء اللاتي تجاوزن العقد الثالث من العمر يستطعن فهم الرجل بسهولة- فبدأت باستجوابي:

ـ ماذا حدث؟

ـ لا شيء، أنا مُتعب فقط.

فكرتْ لثوانٍ ثم قالت:

ـ بالمناسبة، رأيتُ صديقتك القديمة، كانت برفقة أحد الرجال المهذبين.

تعرف أنني لا أحب مثل ذاك النوع من الرجال المهذبين، أولئك أصحاب الابتسامات العادية، لم يلفت انتباهي أبدًا أصحاب الزي الرسمي والشعر المُصفَّف، الذين يتحدثون عن الحياة كأنهم يقرأون كتابًا، وأبتعد عن مدعي المثالية أو حتي الذين يحاولون السير على خط مستقيم طوال الطريق.

تعرف يا سراج! مشكلتي دائمًا مع أشباه الرجال، لا أستطيع تقبل فكرة أن يعجز رجل عن اتخاذ قرارٍ مَصيريّ في حياته دون أن أشاركه، لا أستطيع فِهم عقلية رجل يخطو كل خطوة حسب رؤية أخواته وأمه، ذلك النوع مثير للغثيان؛ أظن أنهم هؤلاء الذين كانوا يستيقظون مبكرًا في السادسة صباحًا، يشربون كوب اللبن مع الإفطار، ثم يذهبون لمدرستهم، يحضرون الطابور الصباحيّ، ثم يصعدون إلى الفصل ويجلسون في الصفوف الأماميَّة، هم أولئك الذين لا يعرفون معنى الفشل، معنى السقوط، لا أحد منهم جرَّب الهروب من المدرسة، عاشوا حياة منظمة بطريقة مملة، لا أحد منهم قرر أن يتعلق بسيارة نقل وهي تركض بسرعة جنونية، ملابسهم نظيفة، طريقتهم مهذبة، لا يعترضون ولا يملكون آراءً واضحة، لم يعرفوا شيئًا عن الفلسفة ولا يملكون أماكن مفضلة يذهبون إليها، لا يرتجفون لموسيقى نادرة، ولا تهزهم رواية، حتى أجمل اللوحات لا تعني لهم شيئًا؛ هم التقليديِّون جدًّا يا سراج، حتى أحلامهم لا تتجاوز الزواج والحياة في سلامٍ بعيدًا عن روح المغامرة.

ضحكتُ من كلمات سوما، ثم قلتُ:

ـ ومَن قال أن التي رأيتها هي صديقتي القديمة؟

ابتسمتْ بمكرٍ وهي تضع يدها على فمها، ثم قالت:

ـ نسيتُ إخبارك، لقد فتحتُ دولابك منذ مدةٍ طويلة ورأيتُ صورة لها، تلك الملامح البريئة لا تُنسى.

قاطعتها على الفور:

ـ سوما، من فضلكِ، دعكِ مِن هذا الحديث!

لم تشعر سوما بالحرج، هي تُقدر تمامًا رغبتي في عدم الحديث عن الأشياء التي تعيدني لعالم الذكريات؛ فتنهدتْ، ثم نفخت في وجهي بدلالٍ، وقالت:

ـ ما الذي يشغل بال صديقي المُفكِّر؟

سألتها:

ـ ما الذي يدفع شخصًا ما للانتحار؟

ضحكتْ بصوتٍ مرتفع، ثم قالت:

ـ أن تكون بين يدية امرأة مثلي ولا يُدللها.

ـ وامرأة مثلكِ، ما الذي يدفعها للانتحار؟

همست في أذني:

ـ أن أشعر أنك لست مكتفيًا بي، بوجودي.

مالت برأسها على قدمي، ثم قالت:

ـ والآن ستسألني لماذا لم أنتحر حتى الآن؟

«سوما»

هنا تسللتُ بأناملي بين خصلات شعرها، وبدأتْ هي في الحديث:

ـ لأنني أحب الحياة يا سراج، أحبها بهذه البساطة..

ولدتُ في منزلٍ يخشى ـ الحرية، يخاف من الغناء، وترعبه أصوات الجماهير، كل مَن فيه يعرفون الله بمفهومهم فقط، فشلتْ محاولاتهم في إقناعي بأنَّ المجتمع يرفض أفعالي وحريتي.

معهد الموسيقى كان كارثة بالنسبة لهم، ولكن رغمًا عنهم أكملتُ طريقي، وأصبحت الفتاة المكروهة المُنحَلَّة، ولم أهتم لذلك، انقطعت علاقتي بصديقاتي وأقاربي، وأصبحت علاقتي بأفراد المنزل لا تتعدى علاقة شخص بأفراد فندقٍ ينام ويأكل فيه، الفرق الوحيد أنني كنت أدفع انهيار أعصابي ضريبةً لبقائي معهم، لكن لا يهم، حزنت لبعض الوقت ثم اعتدتُ الرحيل، حتى رحلت أنا من "المنصورة"، وقررتُ رغمًا عني الهروب إلى القاهرة وحدي لدراسة ما أحب.

تخلَّى عني الجميع، الجميع بلا استثناء، لم يسأل عني أحد، لم يبحث عني أحد، بل وسمعتُ أن أهلي كذَّبوا خبر اختفائي وقالوا أنني مِتُّ في "السعودية" ودُفنتُ هناك وأنا أؤدي فريضة الحج، كان الأمر في غاية السخرية، أنا التي لم أكن أُصلِّي يومًا ذهبتُ لأداء فريضة الحج ثم مِتُّ هناك!

بهذه البساطة ابتكروا الكذبة وصدقوها، وقبلوا عزائي وأنا على قيد الحياة.

في طريقك للحلم ستجد ألف شخصٍ يتخلَّى عنك، لا تهتم فالأشخاص راحلون والحلم باقٍ، بهذا آمنت، وهكذا أكملت طريقي، رغم قسوة أن يدفنك أهلك وأنت على قيد الحياة، وأن يُشيعوا جنازتك وأنت حَيٌّ تُرزق.

في بداية دراستي كنت فتاة انطوائية في مجتمع غريبٍ وقاسٍ، كنت صيدًا سهلًا لكل راغبي المتعة، هذا كان دافعًا قويًّا لأتأقلم سريعًا على المدينة، لم يقترب مني أحد، كانوا يخافون من ردود أفعالي التي لا تقبل المفاوضات.

مَرَّ عامان حتى ظهر في حياتي رجل يدعى «يوسف المهندس»، كان حقًّا مهندسًا منظمًا جدًّا في مظهره، رجل أعمال مشهور في أواخر الثلاثينات من العُمر، شغفه الوحيد للموسيقى، ظهر أمامي أكثر من مرة أثناء تدريبات المعهد، لم أتحدث معه رغم لَوَع كل فتيات الدفعة به، كنت معجبة به، لكن دون أن يعرف أحد، أفكر به حتى يظهر أمامي فأتظاهر أنا باللامبالاة.

حتى يوم طلب من إدارة المعهد الاستعانة ببعض الطلاب لإحياء حفلٍ خاص في فيلته بـ "الساحل الشمالي"، كان هذا مرفوض تمامًا بالنسبة لإدارة المعهد، لكن المال والسلطة فوق كل القوانين، وكان هو يملك الاثنين بسخاء، فوافقت الإدارة بكل ترحيب.

وأثناء التدريبات جاء برفقة مدير المعهد على غير العادة، ثم أخبرنا بالأمر، كنا متشوّقون لمعرفة المحظوظين الذين سيقع عليهم الاختيار، فواصلنا التدريبات بحماسٍ بعدما أكَّد لنا المدير أن هذه التدريبات ستحدد المُختارين، وكنتُ متحمسة للأمر رغم توتري، وكان يوسف يتابع المجموعة

بتمَعُّن؛ لكن وكلما اتجهت نظراته إليَّ كان ينظر بعدم اهتمامٍ واضح، رغم أن القاعة خالية من المشاهدين إلا هو والمدير، ومع ذلك كنت في غاية التوتر وكأنني أعزف وسط ملايين الناس.

ساعتين حتى خرج من القاعة، فشعرتُ بالهزيمة لأنه ابتسم للجميع ولم يبتسم لي، أمرنا المدير بتغيير ملابسنا ثم العودة إلى القاعة بعد نصف ساعة، فذهبتُ للغرفة وأنا في حالة حزن، قُلتُ بالتأكيد لن يختارني.

عدنا إلى القاعة ولم يكن بها سوى المدير، الذي أمسك الورقة وقبل أن يقرأ علينا النبأ قال:

- **«هذه الحفلة هي بداية نجاحٍ للمجموعة بشكلٍ عام، ولمن وقع عليهم الاختيار بشكلٍ خاص، نحن نرفض الحفلات الخاصة، لكن من الجنون أن نرفض فرصة لنجاحكم. مَن لم يقع عليه الاختيار يجب أن يعلم أنها حفلة ذات طابع مختلف، فهذا لا يعني فشله، لكن الموسيقى المطلوبة قد لا تكون مناسبة لإمكانياته، أمَّا الذين وقع عليهم الاختيار فعليهم أن يكونوا على علم بأن هذه الحفلة هي حديث الصحافة لفترة طويلة، فعليكم أن تُثبتوا أنفسكم..»**

والكثير من الكلمات السخيفة التي لا أحبها، ثم ارتدى المدير نظارته وبدأ بالاختيار:

- **«هذا صاحب الجيتار.. هذه صاحبة الساكسفون.. هذا سيلعب على الدرامز.. وهذا المسؤول عن الناي العربي.. وهذا صاحب الكمان..»**

هنا تأكدتْ هزيمتي، اختار صديقي الذي يلعب معي على نفس الآلة ولم يختارني، لكنه لم يغلق الورقة وصمت لثوانٍ ثم قال:

- **«وسامية نجيب ستدير الإيقاع.»**

صمتتُ قليلًا، وبدأ اعتراض البعض غير المباشر على الاختيارات، لكن كان اختياري لإدارة الفرقة اعتراض واضح من الجميع حتى مني.

قرأ المدير الاسم من جديد بتلعثم، ثم قال:

- **«لم يحدث خطأ، هو أراد ذلك وأنا لم أمانعه، على أيّ حال أنا أثق في قدرات سامية على إدارة زمام الأمور.»**

ثم بجزم أنهى المدير البلبلة وهو يقول:

- **«غدًا في التاسعة صباحًا ستنقلكم سيارة خاصة من أمام مبنى ماسبيرو[٢] إلى قرية المهندسين بالساحل الشمالي، لا تتأخروا.»**

ثم رحل الجميع، وما بين مؤيدٍ ومعارض كنت أنا في المنتصف بينهم، لا أنا في حالة فرح لاختياري ضمن أعضاء الفرقة، ولا أنا في حالة حزن مثل الذين رحلوا بانكسار لأنهم لن يشاركوا في الحفل، إنه المنتصف، الحالة التي تجتاحك في لحظات مجدك، لا أنت تشعر بالمجد ولا أنت تشعر بالهزيمة، شعورك الوحيد باهت، رمادي اللون ومُشَوَّش، مُعَلَّق بين السماء والأرض.

مرت ليلة كاملة وأنا أفكر فيما حدث وسيحدث بالغد..

[٢] ماسبيرو: هو مقر الإذاعة والتليفزيون المصري الذي يقع على ضفة نيل القاهرة، وقد أُنشئ في ٢١ يوليو ١٩٦٠ وأُطلق عليه هذا الاسم نسبةً إلى عالم الآثار الفرنسي "جاستون ماسبيرو" الذي كان رئيس هيئة الآثار المصرية.

عادت سوما من ذكرياتها، نظرت إليَّ سريعًا، فتظاهرتُ وكأن النوم قد تملَّك مني، فثَمَّة نساء يحببن التحدث والتعرِّي دون أن يشعرنَ بالخجل، وسوما كانت من هؤلاء، فواصلتْ:

ـ في تلك الليلة لم أَنَم حتى التاسعة صباحًا، كنت متوترة جدًّا، وعند الموعد وصلت إلى مبنى ماسبيرو، ثم ركبت السيارة مع زملائي، لم يكن يوسف في استقبالنا، كانوا مساعديه فقط مع مدير أعماله، وتحركنا والصمت التام هو المُهيمن على الموقف في السيارة، كُلٌّ مشغول بعالمه الخاص..

ساعة.. ساعتين.. ثم بوابة الإسكندرية!

وآهٍ يا سراج لو تعرف لوعَتي بالإسكندرية، يرعبني السفر، يرتجف قلبي وأنا في الطريق، ويطمئن فقط عندما أَشُم رائحة الإسكندرية، لطالما تمنيت الحياة في هذه المدينة، رغم أنني لم أكُن زرتها ولو لمرة واحدة!

وصلنا إلى قرية المهندسين؛ الأجواء هناك مختلفة، المباني، الطرق، حتى الناس يبتسمون دائمًا، ما إن تدخل حتى تشعر وكأنك في وطنٍ آخر بعيدًا عن بلدتنا المزدحمة الكئيبة، وفي الطريق للفيلَّا كنا نسير في حديقة واسعة، أشجار المانجو والجوافة على يمين ويسار المَمَر، هناك بستان ضخم من الأزهار النادرة، في المنتصف مسبح مائي كبير، وعلى بُعد أمتار من باب الفيلَّا مسرح كامل جاهز لاستقبالنا، وهنا عرفنا أن الحفل سيقام خارج المبنى، وبعض العمال ينظمون الكراسي والطاولات.

وما إن دخلنا المبنى حتى استقبلتنا سيدة في الثلاثينات من العمر، كانت جميلة، أثارتْ إعجابي بأناقتها وطريقتها الهادئة في الحديث، رحبَّتْ بنا ثم أمرت الخدم بتوزيع الغرف، كان الحفل في الثانية عشر منتصف الليلة، فدخلت الغرفة ولم أستطع حتى خلع ملابسي، رميت بجسدي على السرير ورحت في نوم عميق.

في العاشرة أيقظنا المدير عبر الهواتف الخاصة بالغرف، واجتمعنا عند الحادية عشر، ألقى علينا بعض كلمات التحفيز، ثم قال سنرحل جميعًا في العاشرة صباحًا، ثم عدنا إلى الغرف لنرتدي ملابس الحفل، وارتديتُ الفستان الرسميّ الذي أعطته لي السيدة التي استقبلتنا في الصباح، لم تعجبني قصته، كان عاري الظهر وقصير جدًّا، فطلبتُ المدير على الهاتف وأخبرته بالأمر لكنه لم يبالِ.

خرجتُ للحفل، وبدأنا العزف، استطعنا بالفعل لفت انتباه الجميع، لكن ومع ذلك لم يلتفت إليَّ يوسف، كان مشغولًا بالحضور، هكذا كانت نظرتي عنه في اللحظات المعدودة التي استطعتُ مراقبته فيها.

انتهى عزفنا وعدنا لننعم بغنيمة الحفل كالضيوف، المكان ساحر في المساء، هدوء تام حولنا وبالخارج، عدا الحديقة، وكأننا كنا في عالمٍ آخر؛ فجلستُ مع رفقائي على الطاولة المخصصة لنا، كان الجميع يشيد بقدرتي على إدارة الفرقة، البعض منهم أشاد بالفستان، حتى سمعت أحدهم يقول:

«هذه الريفية كيف لم نلاحظ أنوثتها من قبل!»

شعرت بالملل، فذهبتُ لأستكشف روعة المكان، وكلصٍ يراقب الجميع قبل أن ينقضَّ على سرقته استطعتُ أن أسرق نفسي من وسط الزحام لأبتعد،

خرجت من البوابة ثم اتجهت إلى البحر، كان على بعد أمتارٍ قليلة من الفيلَّا.

هواء الربيع المُنعِش، مزيج بين لسعة الشتاء ونسيم الربيع، القمر في أشد توهجه، والبحر في حالة نَشوة يضرب الصخور بقوة ليفرض سيطرته عليها..

غرز كعب الحذاء في الرمل؛ ولما لا أكون أنا في هذه الساعة سندريلا العصر!

خلعت الحذاء، لكن شعرت أن الهواء لا يتملَّك من صدري، وما المانع إذن! خلعت حمالة الصدر، ولم أكتفِ، فتركتُ الحرية لشعري، وها أنا حرة الآن، ها أنا على أتمّ الاستعداد لتضاجعني الطبيعة، هنا لا أحد يتلصص على جسدي كما كان يفعل أخي، هنا لن يمنعني أحد من الرقص كما كان يفعل أبي، وهنا اختفت عيون الناس تلك التي تخشاها أمي..

الحرية! أنا أتنفس حرية..

صمتتْ سوما، ثم نظرتْ إليّ من جديد وضربتني على كتفي:

ـ يا لك مِن وغدٍ، تستدرجني دائمًا للحديث، ثم تغدو في نومٍ عميق؛ لكنني الآن اشتقتُ إلى الإسكندرية، هيَّا لنذهب!

أجبتُها:

ـ كفّي عن هذا الجنون، فليس معي إلا خمس جنيهات!

قالت وهي تنهض:

ـ لا يهم، سأعتبرك لاجئًا وأتكفَّل أنا بالأمر.

ضحكتُ:

ـ اجلسي، لن أذهب من هنا.

سألت بخبثٍ:

ـ متأكد؟

أومأتُ برأسي أي نعم؛ فصرخت وهي تتجه إلى باب المنزل:

ـ النجدة! النجدة! سراج يحاول اغتصابي، ارحمني يا وغد! اتركني وشأني!

لاحقتها:

ـ اهدأي يا مجنونة! موافق.. موافق..

ضحكتْ:

ـ سأنتظرك بالأسفل، لا تتأخر.

قَبّلتْ أنفي قبلة ما بعد انتصار حيلتها ثم خرجت.

أحب دلالها وطريقتها، حتى لو كانت تزعجني أحيانًا، تأسرني هذه الأربعينية وتأسرني قوتها رغم هشاشة قلبها ووحدتها، كل من يعرفنا يظن أننا في علاقة غرامية، الأمر لا يزعجني فَثَمَّة أشخاص يمرون عليك تتمنى حقًّا لو أن ما يجمعك بهم هو الحب لا الصداقة، لكنها الحياة، أحيانًا يَمُن علينا القدر بشخصياتٍ تصلح للحب بعدما أصاب قلوبنا العَفَن، فأصبحنا لا نصلح نحن للحب، الذنب كل الذنب على الذين تسببوا لنا في تلك الآلام، الذين اقتحموا حياتنا بعد محاولات عديدة ثم استوطنوا قلوبنا وحياتنا، جعلونا نؤمن بالحب، بالحياة وبالأمل، وبعدما تملَّكوا من قلوبنا وتأكدوا أننا

أصبحنا لا نطيق الحياة إلا في وجودهم، رحلوا عنا بكل الأنانية التي يمكن وصفها، رحلوا عنا ليتركونا في ظلام وبؤس أشد مما سبق، ليتركونا من جديد في ظلامنا، وبعدما تذوقنا لذة الأمل نعود لنتذوق مرارة الآلام مرتين، الأولى لأننا وحدنا، والثانية لشعور الندم الذي صاحبنا، لأننا كنا نعرف أننا لا نصلح للحب ومع ذلك جازفنا وحاولنا ولم نستمع لعقولنا وواقعنا، لم نتعلم من تجاربنا السابقة؛ اللعنة على الاحتياج، الحزن والوحدة والكآبة، اللعنة على قلبي وعلى قلبك يا مريم، انتهينا قبل أن نبدأ.

أنقذتني سوما بمكالمتها الهاتفية من غرقي التام في الذكريات، بصوتها المزعج:

ـ هيا يا فيلسوف، لن تراها صدفة في الإسكندرية.

أغلقتُ الهاتف في وجهها، ثم تجهَّزتُ للنزول.

في الطريق كانت وكعادتها تسير بسرعة جنونية، لم أنطق بكلمة واحدة فقد كانت سوما متأثرة بكلمات أغنية لفرقة من الفرق الحرة، تنفعل مع كلمات الأغنية **«تتذكري لما قلتي لي إنك رح تتزوجيني بلا فلوس وبلا بيت!»**

انتبهتُ للكلمات، فسألتها عن الفرقة واهتماماتها، كان يشغل بالي في هذه اللحظة عِدة أسئلة، أهمها مصير المسكين صاحب رسالة الانتحار، والثاني ماذا كانت تقصد سوما بـ **«لن تراها صدفة في الإسكندرية»**؟

لم أتحمل ضجيج الأسئلة فسألتها:

ـ ماذا تقصدين يا سوما؟

تظاهرتْ بعدم سماعي وبالاندماج التام مع الموسيقى والقيادة؛ أعرف معنى أن يتجاهل أحدهم سؤالك خوفًا من أن تؤلمك إجابته.

واصل المغني ذو الصوت القوي كلماته **«تتذكري كيف كنا هِيك؟»**
لم أتحمل فأغلقتُ الموسيقى وسألتها من جديد عن ما تقصده.

بسخرية وهي تترك الهواء المتدافع يتوغَّل بين شعرها الأشقر:
ـ تجاوزنا للتو ١٧٠ كيلو مترًا في الساعة، أنا امرأة بارعة في القيادة، أعرف هذا جيدًا، أنت أيضًا تعرف لكنك لا تعرف أنك لا تجيد التمثيل؛ أنت ممثل سخيف يا صديقي، بطل مهزوم قبل بداية المعركة، تظن أن بإمكانك اقناعنا جميعًا أنك تجاوزت أمر مريم، وأنك تعافيت من غيابها، أحمق كعادتك لا تستطيع مواصلة الكذب، طريقتك في الكذب سخيفة ومبتذلة.

لم تنسها يا سراج، ما زلت تتزين كلما ذهبت للإسكندرية، لا تصدق أننا نصدق حِيَلَك، اهتمامك بنشر أجمل الصور لك على مواقع التواصل الاجتماعي مع الحسناوات، تريد اخبارها أنك الآن محاط بالجميلات، أنك لست وحدك، أنك مزدحم، الإفراط في المخدرات والعلاقات الجنسية والإنهاك حد التعب في الدراسة والعمل، ماذا تريد بالضبط؟ تريد أن تقول لها أن غيابها لا يؤثر في قلبك! أن قلبك لم يَمُت بعد فراقها! تريد الظهور دائمًا بأنك على ما يرام فقط كي لا تظن أنك تعاني! إن شيئًا ما بداخلك تحطَّم تمامًا، أحمق يا صديقي، وحيلك حمقاء، صدقني أنا أعرف خدعك، حتى هي تعرف قسوة الغياب على قلبك، تعرف قسوة الحزن والآلام.

مشكلتك يا سراج أنك ما زلت تنتظر، هي رحلت وبدأت حياة جديدة بمواقف وأحداث مختلفة، وأنت! أنت ما زلت واقفًا تنتظرها في

المكان الذي اتفقتم على أن تتلقوا فيه دائمًا لكنها لم تأتي، ما زلت تنتظرها، ما زلت تخلق الوهم من أجل عودتكما، لن تأتي حتى لو أضاءتْ الشمس بنجاحك، لن تأتي حتى لو امتلكتَ الشمس والقمر وأصبحت مغوارًا يملك الأرض وكنوزها، لن تأتي حتى لو أصبحتَ أفضل مَن في الأرض، لن تأتي مهما جددتَّ حياتك ومهما تغيرتْ، مهما بدلتَّ صفاتك السيئة بصفاتٍ حسنة، ولو انعزلتَ في صومعة لتُكَفِّر عن ذنوبك، سيتقبَّل الله توبك ويستقبلك لكنها لن تتقبلها ولن تستقبلك، امش في الأرض وابحث عنها في كل مكان، لكن تأكَّد أنك لن تجدها، لن تعود مهما فعلت، لن تأتي أبدًا، هي لا تنتظرك يا صديقي، لا تنتظرك، لا يعنيها من الأساس ما تَمُر به، طردتك من جنتها كما طُرِدَ إبليس من الجنة، طردتك بلا أمل في عودتك أبدًا، أنت المغضوب عليه وللأبد، أقسم لك أنها لن تأتي.

أشعلتُ سيجارتي، ثم رفعت صوت الموسيقى، كان المغنِّي يقول:

«عبده يا اللي كان مَغروم قرر عن الحب يصوم»

وصلنا لمدينة الثغر؛ الإسكندرية مدينة الحب وليست باريس أبدًا، فباريس مدينة الأثرياء، وأنا لا أؤمن أن الأثرياء يقدِّرون الحب، لكن ثَمَّة فقراء في الإسكندرية يعيشون على الحب، على ساحل المدينة ولدتْ وانتهت ملايين قصص الحب، ثَمَّة أشخاص ظنوا أنهم لن يفترقوا وافترقوا، ثَمَّة أشخاص ظنُّوا أنهم أقوى من الظروف وانهزموا، أحلام هنا تحطمت وأمنيات هناك لم تتحقق، جدران هذه المدينة لم تنسَ ضحكات العشاق، لم تمحِ أساميهم المكتوبة عليها، لا تتبدل بالوجوه الجديدة، هنا وعود وهنا

خذلان، هناك كان اللقاء الأول وفي الطريق المقابل كان اللقاء الأخير، الإسكندرية مدينة لا تعترف إلَّا بالحب والذكريات، تأبى الاعتراف بالنسيان، فالموج الذي شهد على عناقٍ حارٍ سرقة يشهد أيضًا على دموع حارقة سرًّا، الشاطئ الذي يعرف خطوات العشاق يعرف أيضًا خطوات الراحلين ودندنة أغانيهم الحزينة، كم عذبتنا الأماكن التي لا تنسَ أبدًا قصص الحب، المساجد والكنائس والسماء، كل الأماكن التي سمعت دعائنا لا تنسَ أبدًا.

من حبل أفكاري قطعتني سوما:

- أظنُّ لو أنَّ أحدهم يعيش بالإسكندرية فلن يفكر أبدًا في الانتحار، كيف ينتحر أي شخص يعيش في هذه المدينة الساحرة؟!

اعترضتُ على المبدأ فقاطعتها:

- ربما لا تفهمين أن الانتحار قرار لا يتعلق بالأماكن، ما فائدة أن تسكن الجنة وفي قلبك قطعة من الجحيم! لا أظن أن المنتحر يعاني من ضيق السكن، لكن وبالتأكيد يعاني من ضيقٍ في صدره؛ يا صديقتي المنتحر لا ينظر للأشياء كما ننظر لها نحن، بل ينظر لها بنظرة باهتة سخيفة، فقد قرأتُ ذات مرة إحدى رسائل الانتحار يقول صاحبها:

«لو قال أحد أنه يحبني لن أنتحر.»

وفي رسالة أخرى إحداهن تقول:

«لو ابتسم أحد لي في هذا الجسر، لن أرمي نفسي.»

وأحدهم قال:

«لو اتصل بي أحد ودعاني للعشاء، لن أقتل نفسي.»

وفي رسالة أخرى أحدهم قال:

«يا لله هل تسمعني؟ إن أمطرت السماء هذا المساء لن أنتحر، سأعتبرها رسالة أنك تسمعني.»

وأحدهم كتب:

«وقفت حدادًا على روحي منذ زمنٍ طويل، لا داعي لجنازة أخرى.»

ثم أشهرهم رسالة فنسنت فان جوخ[٣]:

«لن ينتهي البؤس.»

ألا يُعتبر الأمر غريبًا يا سوما؟ لا أحد يفكر فيما يفكر به المنتحر، لا أحد ينظر للأشياء كما ينظر لها، نحن مجرد ناظرين، نحكم على الأشياء بمنظورها الخارجي، لكن لا أحد مِنَّا يشعر بالمعاناة الحقيقية، أنتِ في وادٍ، وأنا في وادٍ، والعالم في وادٍ آخر، نحن لا نمثل شيئًا للعالم، لو مِتنا في الصباح لن يعرف بموتنا أحد، نحن لا نمثل أي شيءٍ للعالم يا سوما.

ضحكت سوما.

[٣] فنسنت وليم فان غوخ: رسام هولندي، وُلد في ٣٠ مارس ١٨٥٣ وصُنِّف كأحد فناني الانطباعية وكان أشهر فناني التصوير التشكيلي، عانى من نوبات مُتكررة من المرض العقلي – توجد حولها العديد من النظريات المختلفة – وتُوفِّي في فرنسا ٢٩ يوليو ١٨٩٠.

وصلنا للتو إلى غرفتها الدائمة في "الفور سيزونز"[٤]، كانت الشمس تخترق نصف الغرفة تقريبًا، ولم تكن لديَّ أي رغبة في التمتع بمشهد البحر الرائع أمامنا، فخلعت ملابسي واتجهت إلى السرير.

غرفة منظمة ومتناسقة جدًا، على عكس شخصيتها الفوضوية، صورة واحدة فقط بها لطفلة ملامحها مألوفة، كنت أتأملها حتى نادتني سوما لأشاهد معها روعة البحر، لكنني اعتذرت منها، لكن وكعادتها تُصرُّ على الطلب حتى يتحول لأمرٍ عن غير قصد.

جلستْ على الأرجوحة في الشرفة ودعتني للجلوس بجوارها، ثم اختلستْ سيجارة من علبتي، وبَدَتْ وكأنها تتحدث مع نفسها:

ـ شعرتُ أن الوقت تأخر، فعندما تكون حُرًّا يمر الوقت أسرع من نسمات الهواء.

ومن خلال الظلام وأنا أركض على شاطئ القرية لمحتُ أحدهم يقف بعيدًا، لم أستطع سوى تمييز الضوء الناتج عن لفافة التبغ التي كان يُدخنها، فبدأتُ أستعد لمواجهة تحرش أو مضايقات واردة جدًا، حتى اقترب مني!

بقيتُ في مكاني!

لكنه اقترب أكثر بخطى ثابتة حتى وضحت ملامحه!

---

[٤] الفور سيزونز: سلسلة فنادق عالمية كندية المنشأ، تأسست عام ١٩٦٠ وتوجد أفرعها في ٣٢ دولة حول العالم، ويوجد فرعها بالإسكندرية فندق فور سيزونس سان ستيفانو والذي يُطل على شاطئ البحر المتوسط مباشرةً، وهو من الفنادق الفخمة ذات الخمس نجوم.

- **«أستاذ يوسف! أنا آسفة، أردتُ فقط أن أهرب من الزحام!»**

دون أن يبتسم قال:

- **«لا يهم، الحرية تستحق المجازفة، رأيتُكِ تهربين من الحفل، كنت أعرف أنكِ ستذهبين إلى الشاطئ، مع الأسف ممنوع الخروج إلى الشاطئ بعد الثانية عشر منتصف الليل في الشتاء، أخبرني أحد رجال الأمن بوجودكِ هنا لذلك أتيتُ إليكِ بنفسي لأخبركِ بالأمر. بالمناسبة أنتِ فاتنة، تجيدين العزف والرَّقص.»**

احمرَّ وجهي خجلًا:

- **«أيّ رقصٍ تقصد؟!»**

رد:

- **«أنا أتابعكِ منذ ساعة على الأقل، المهم هَيَّا لنعود إلى الحفل.»**

اصطحبني بالسيارة حتى عدنا إلى الحفل، لم أدخل معه ودخلتُ من البوابة الخلفية، تفهَّمتُ الأمر جيدًا.

انتهى الحفل، فعدتُ إلى الغرفة وجمعتُ الحقيبة استعدادًا للعودة من جديد إلى القاهرة، غدوتُ في نومٍ عميقٍ، كنتُ في حالة خَيبة لانتهاء يوم لربما كان الوحيد الذي استطعمتُ فيه مذاق الحرية.

استيقظتُ باكرًا ثم تجهزّنا وعدتُ إلى منزلي، لا شيء يُذكر أكْثر من أنّ يوسف لم يودعنا، وكانت السيدة الشقراء فقط هي من ودعتنا بلُطف.

في الطريق، أشاد المدير بأدائنا، ثم وَزَّعَ علينا أظرُف مغلقة وهو يقول:

- **«هذه الهدايا مُقدمة من السيد يوسف المهندس.»**

فتح الجميع الأظرف المغلقة، وحاولت فتح الظرف، لكن شيء ما منعني من اكتشافه أمامهم، راودتني أفكار عِدة؛ فماذا لو قضيتُ حياتي في تلك القرية؟ أن أعتنق دين الحرية!

امرأة ملعونة مثلي لا أهل لها ولا وطن ولا حبيب، ولا أحد مسؤول عن تصرفاتها، كيف تعيش في هذه التعاسة؟ في هذا السجن؟ بالطبع لو يعرفُ أهلي أنني ما زلت أحتفظ بمبادئي وبكوني امرأة مستقيمة، على الأقل لم يمسّ رجل جسدي لن يصدقوا ذلك أبدًا، بالطبع لن يصدقوا أن حياتي عبارة عن الدراسة، عن الموسيقى فقط، لربما يظنون الآن أنني أشهر المشاهير في شارع جامعة الدول العربية، لربما يظنون أنني أحد أهم زوار البارات والحانات!

الأهل لا يفهمون أن طلب الحرية لا يعني طلب الانحلال، لا يفهمون أن الحرية لا تقود أحدًا للانحلال، لكن الشخص نفسه هو مَن يلهثُ خلف الانحلال أيًا كان وضع حياته الاجتماعي، ثمَّة نساء ملتزمات بأزيائهن الدينية ومع ذلك وفي الخفاء يحثون ويتشبثون بأي فرصة لإظهار الجانب المُظلم منهن، ذاك الذي لا يرغب إلا في المتعة والجنس، وثمَّة نساء يَظهرن وكأنهنَّ من فتيات الليل، ومع ذلك لا يستطيع أحد التلاعب أو محاولة الاقتراب منهن، نحن نَظلم الحرية بأفعالنا يا سراج.

عدتُ إلى القاهرة، ودعتُ زملائي ثم ذهبت لشقتي، كانت الشمس تودع الأرض، ولأن اليوم تعيس فاكتملتْ تعاسته عندما اكتشفتُ أنني نسيتُ المفاتيح في القرية، وبعد دقيقة من البحث في حقيبتي ومن شدة غضبي ضربتُ الباب بقدمي، والغريب أنه لم يكن موصدًا من الأساس!

دخلت الشقة..

أفزعني وجود يوسف بالداخل!

كان يجلس على الكرسيّ، وبجواره حقيبة كبيرة..

- **«ماذا تفعل هنا؟ كيف أتيت؟ المعذرة أهلًا بكَ!»**

ضحك يوسف:

- **«اهدائي لقد سقطتْ منكِ المفاتيح في سيارتي بالأمس، للأسف اضطررتُ للسفر قبل الجميع ولم أستطع أن أعطيكِ إياها، فسألت المدير على عنوانكِ؛ بالمناسبة هذا الرجل دنيء، بإمكانه بيع أي شيء في سبيل المال، ولم يتردد في الجواب عندما وعدته بمبلغٍ من المال، أنهيتُ ارتباطاتي الخاصة، ثم جئت إلى هنا، هذا كل شيء.»**

دون أن أنطق بكلمة واحدة، أغلقت الباب في صمت، لم أكن أعرف ماذا أفعل، شعرتُ بشللٍ تام في التفكير، الأفكار تهرب من رأسي بطريقة مزعجة، حتى لاحظ هو تشتتي فقال:

- **«يمكنكِ تحضير الشاي لنا!»**

يومها قضينا وقتًا رائعًا، كنت متوترة، وسرعان ما تفهَّم ذلك وتعامل معي بتلقائية -أو هكذا ظننت- تحدثنا عن الرياضة، السياسة، الفن، وأعجبتني آرائه وفلسفته؛ يجذبني هذا النوع من الرجال، الذي لديه أكثر من رأي ونقد في مختلف المجالات، تحدثنا كثيرًا لمدة ساعتين بالتمام والكمال، ثم ساد صمت طويل حتى قال:

- **«زيارتي مفاجئة، فأنا هنا ببساطة شديدة لأقول لك أنني أريد صداقتك.»**

لم أفهم قصده، تصنعت الغباء أو كنتُ أشعر بالغباء حقًّا، فواصل:

- **«دون مقدمات، أنتِ مثيرة للاقتراب، أريد التقرب منكِ لنكن أصدقاء مثلًا..»**

- **«تقصد..؟!»**

أشعل سيجارته:

- **«حسبما علمتُ، أنتِ وحيدة هنا، لا أهل، لا أصدقاء، لا شيء سوى وحدتك، أعني أنني بطريقة أو بأخرى أريد أن أصبح جزءًا من هذه الوحدة.»**

بتعجبٍ قلت:

- **«جزء من الوحدة!»**

هَزَّ رأسه ثم قال:

- **«أريد أن تبقى علاقتنا سرًّا، أنا رجل لديّ وضعي الاجتماعي، لا يمكنني شرح الوضع الحالي، لكن على الأقل تفهمين قصدي، أريد أن تبقى علاقتنا سرًّا، لا أحد يعرف عنها شيئًا.»**

دون أن ينتظر ردًّا مني قَبَّلَني على جبيني وهو يقول:

- **«على الطاولة رقم هاتفي، سأنتظر مكالمتك.»**

ثم خرج.

كنت في حالة هدوءٍ واسترخاء برائحته الممزوجة بالنيكوتين والعطور الأصيلة.

علاقة صداقة سرية! نعم أنا وحدي، لكن هل تنتهي ليالي الوحدة بعلاقة سرية؟!

أراد أن أكون صديقته السرية، هو لا يعرفني وأنا لا أعرفه؛ لكن كما يقول البعض: **«ظل رجل أفضل من ظل حائط»**

مَرَّت الليلة الأولى وأنا منهكة من التفكير، حتى بدأت أتحدث مع نفسي..

ما الضرر من تلك العلاقة؟

ما الضرر من خوض تجربة مجهولة؟

لا أملك شيئًا لخسارته، فقدتُ كل شيء قبل أن أمتلكه، كل حربٍ شاركت بها، هُزمتُ قبل أن أبدأ، أنا امرأة بلا مَرسَى، وحيدة، وحيدة جدًا، لكنني جميلة، فما المانع لو تشبثتُ بقشةٍ تنقذني من وحدتي؟

ماذا سأخسر أكثر مما خسرت؟!

أنا هنا بلا أهل، بلا أصدقاء، بلا حياة!

ضحكتْ سوما، ثم نظرت إليّ مجددًا:

ــ تتوقع امرأة مثلي خسرت كل شيء، هل كان لديها شيء آخر لتخسره؟!

كنت أعرف أن هذا السؤال سيدفعها لتكمل القصة، لم أكن متشوقًا بالضبط للقصة، لكن تشوقي كان لمعرفة هل حقًّا سوما هي التي كتبت الرسالة التي تبدو أنها ستدفعني لخوض مغامرات والتغلغل في تفاصيل قد لا تعنيني؟

اللعنة! دائمًا تقع أمامي المصائب من تلقاء نفسها، كنت في حاجة لمزيد من التفاصيل، فإنكارها لرغبة الانتحار لا يعني صدقها، سخريتها لا تعني قوتها؛ ثَمَّة نساء يتظاهرن كما لو أنهن يعِشن أفضل أيامهن، حتى لحظة تكتشف أنهن حقًّا كانوا يعانين، ثَمَّة نساء يقدرن على إعطائك انطباعًا أنهن أقوى من أن يكسرهن موقف، حتى تكتشف أن قوتهن مجرَّد تجمُّع لرماد عظيم في قلوبهن.

أؤمن أن المخادعات هُنَّ الأضعف، الفتيات التي من النادر أن تجدها تبكي تعاني أكثر من تلك التي تبكي في كل وقت، اللاتي يظهرن في المواقف القاسية بثبات كما لو أنّ قلوبهن لم تتحطم، اللاتي لا يتشبثن برحيل أحد عنهن أكثرهن كرهًا للفراق، أن تبكي امرأة فهذا أمر طبيعيّ، فما أكثر النساء اللاتي يبكين، لكن أن تصمت وتبتسم أمام مواقف تستدرجها للبكاء تلك حقًّا تخبئ بداخلها حطامًا عظيمًا لن يدركه أحد إلا بعد انهيارها، انهيارها تمامًا.

تذكرتُ مارلين مونرو[٥]، تذكرت فيرجينيا وولف[٦]، داليدا[٧]، وحتى زينب المهدي[٨] الفتاة المصرية التي انتحرت في وقتٍ كان يظن الجميع أنها أصبحت بخير.

واصلت سوما:

ـ مَرَّ الوقت في علاقتنا أسرع مما كنت أتخيل، بدأنا كأصدقاء حقًّا، كان صديقًا رائعًا، أعجبتني شخصيته، قوته، ودفئه، كان يزورني كل خميس من كل أسبوع، يحدثني عن الأشياء التي حدثتْ معه ويجدني دائمًا في انتظاره،

---

[٥] مارلين مونرو: مُمثلة ومغنية أمريكية، ولدتْ في لوس أنجلوس ١٩٢٦، حصلت على العديد من الجوائز في مسيرتها الفنية، واستطاعت في بداية الخمسينات أن تصبح نجمة هوليوود ورمزًا جنسيًا، ورغم تلك النجاحات كانت تعاني من المشاكل في حياتها الشخصية، توفيت في ٥ أغسطس ١٩٦٢ بعد تناولها جرعة زائدة من الباربيتورات.

[٦] أدالاين فيرجينيا وولف: كاتبة إنجليزية، ولدت في لندن ٢٥ يناير ١٨٨٢، تعرضت طوال حياتها للكثير من نوبات الانهيار العصبي مما أدى لإدخالها مصحًا عقليًا وتم تشخيص إصابتها بـ"الاضطراب الوجداني ثنائي القطب" والذي لم يكن له أي علاج في تلك الفترة، وانهى بها الحال أن قامت بإغراق نفسها في نهر ouse عام ١٩٤١ عن عمر ٥٩ عامًا.

[٧] داليدا: "يولاندا كريستينا جيجلوتي" فنانة ومغنية إيطالية مصرية، ولدتْ بمصر في ١٧ يناير ١٩٣٣،حصلتْ على لقب ملكة جمال مصر عام ١٩٥٤، وحصلت على جوائز عديدة منها "وسام الفنون والآداب الفرنسي"، توفيت سنة ١٩٨٧ منتحرة بجرعة أقراص مُهدئة بعد أن تركت رسالة تحمل "سامحوني الحياة لم تعد تُحتمل."

[٨] زينب المهدي: ناشطة سياسية مصرية، تخرجت من كلية اللغة العربية بجامعة الأزهر، انتقلت إلى العمل الحقوقي كملجأ لها لتكون صاحبة رسالة في الحياة، وبدأت بتدريب الشباب على التوثيق، وشكلت فرقًا لرصد الانتهاكات، حاولت نشر ما تتصوره عن المجتمع من حرية وكرامة إنسانية لكنها أُصيبتْ بالاكتئاب الناتج عن اليأس والإحباط في آخر أيامها وانعزلتْ تمامًا لمدةٍ طويلة ليتفاجأ الجميع بانتحارها شنقًا في فبراير ٢٠١٤ عن عمر ٢٢ عامًا، وكان آخر ما قالته قبل ذلك "تعبتُ واستُهلِكتُ ولا فائدة..".

كنت الركن الهادئ في حياته، دائمًا أنا الركن الهادئ البعيد كل البعد عن ضجيج عالمه.

في عامه الأول معي لم يكن إلا صديق، لطالما لجأتُ إليه، ولطالما وجدته معي، صحيح أنه يكبرني بأكثر من عشرين عامًا لكنه كان سندًا عظيمًا، عام ونصف بالتمام والكمال، عام ونصف شعرت بأهميتي في الحياة مع شخص رغم كل مشاغله يسرق وقتًا خاصًّا لي وحدي، عام ونصف وأنا لستُ وحدي؛ الخميس من كل أسبوع كان عيدي الأسبوعي، كان يقضي ليلة الخميس معي في منزلي، لم أخرج معه في حياتي، كنت السِرَّ الأعظم في حياته، يأتي ليجد المنزل نظيفًا والأجواء رائعة لاستقباله.

لم أشتهِ يوسف، لم يحاول هو أيضًا الاقتراب مني، كنت أشعر معه بالأمان، لستُ وحيدة، لست تلك الفتاة التي لا قيمة لها في الحياة، لست وحيدة، وهذا كان سببًا كافيًا جدًا للوقوع في غرامه؛ لكن كيف أقع في غرام رجل يكبرني بأكثر من عشرين عامًا؟! رجل لا أعرف عنه إلا أنه مستثمر كبير وله أملاك لا تُعد لا تُحصى، رجل صامت بطريقة مزعجة، يأتي فقط ليتحدث معي عن بعض الأشياء التي تزعجه، عن المواقف التي لا يعرفها أغلب المقربون منه، كان يشعر أن هذا قد يزعجني؛ كان يعتذر دائمًا عن عدم اهتمامه بتفاصيل حياتي، لكنه لم يفهم أنني فتاة بلا تفاصيل، بلا أحداث مشوّقة، لم يفهم أن أجمل ما تشعر به المرأة أن تجعلها مميزة وفريدة، أن تحكي لها سرًّا لا يعرفه أحد، أن تُحدثها عن أشياء تخجل من الجهر بها في العلن، أن تخلع قناع الهيبة والقوة لتعود طفلًا معها، هذا أسمى ما قد تشعر به الفتاة، أو على الأقل فتاة مثلي وحيدة جدًا.

بعد عام ونصف من علاقتنا وفي الليلة الأخيرة من ديسمبر، كانت ليلة باردة، وكنت مشغولة بالتمرن على امتحان اليوم التالي في الوقت الذي كانت فيه المدينة تستعد لاستقبال عام جديد، رن الهاتف..

- **«كل عام وأنتِ معي.»**

بتلقائية ضحكت:

- **«أهلًا يوسف، أفتقدك.»**
- **«حسنًا، أنتِ في المنزل، أليس كذلك؟»**
- **«نعم، غدًا ينتظرني اختبار صعب، لستُ مستعدة له لكنني أحاول..»**

بعد صمت دام ثوانٍ قال:

- **«حسنًا، أنا في انتظاركِ بالأسفل، هَيَّا!»**

ثم أغلق الهاتف.

من سعادتي خرجتُ من الباب بملابسي المنزلية، وجدته ينتظرني بسيارته..

- **«يوسف! ليس من عادتكَ أن تأتي ليلة السبت!»**

ضحك ثم أنطلق بسيارته..

- **«إلى أين؟ أنا بملابسي المنزلية!»**

قال:

- **«لا يهم، الأمر لا يحتمل التأخير.»**

وكالعادة، فالقاهرة مزدحمة، وكعادة يوسف صامت، وكعادتي أترك نفسي معه يفعل بها ما يشاء، لكنني اكتشفت أنه قد سلك طريق "مصر-إسكندرية"

كررت سؤالي:

- **«إلى أين..؟!»**

قال:

- **«لن تهمكِ وجهتنا، انتظري وستعرفين كل شيء.»**

باعتراض قلت:

- **«في العاشرة صباحًا ينتظرني اختبار هام!»**

بعد دقيقة أمسك هاتفه ثم اتصل بمدير الفرقة:

- **«أهلًا، أعرف أن الوقت متأخر لهذ المكالمة، أردتُ أن أخبركَ أنه في صباح الغد سيأتي أحد العاملين عندي ليقدم لك هدية بمناسبة العام الجديد؛ بالمناسبة سوما في حفلٍ خاص معي هذا المساء، إنها فنانة مذهلة، بالتأكيد أنت تعرف هذا، وتعرف أنها لا تحتاج لاختبارٍ لإثبات كفاءتها، لا مانع لو أعطيت الرجل الذي سيأتي لك في الصباح تهنئة خاصة لـ سوما بتجاوزها اختبار الغد، شكرًا لك، أنت تستحق، إلى اللقاء.»**

لم ينظر إليَّ، فقط قال بهدوء:

- **«الحياة أبسط مما تتخيلين.»**

لم أرد، ابتسمت فقط.

التفاصيل يا سراج، أنا مُلهَمَة بالتفاصيل، الحياة حقًّا مع هذا الرجل كانت أبسط مما أتخيل؛ إنها "البساطة"، تلك الكلمة والمعنى الذي بحثتُ عنه ولم أجده في حياتي، كنت في حالة دهشة حقيقية؛ عبرنا بوابات القاهرة الرئيسية دون أن أنطق بكلمة واحدة، كان يدندن بعض الأغاني الفرنسية، يقود بسرعة جنونية، هذا الذي تجاوز الثلاثينات تشعر فجأة وكأنه

فتى مراهق مجنون، لا يضع حسابات للظروف، رجل الأعمال المعروف الحكيم تشعر فجأة وكأنه شاب لا يتحمل ولا يبالي ولا يكترث للحياة بشكلٍ عام.

وفي غضون ساعة ونصف وصلنا إلى الإسكندرية، على الكورنيش كانت الاحتفالات تنتظر الثانية عشر حتى يشتد توهجها..

- **«يوسف، لن نخرج من السيارة، أنا بملابسي المنزلية!»**

ضحك يوسف ولم يرد..

استفزتني ضحكته، فكررت بغضبٍ:

- **«لن أخرج من السيارة!»**

وصلنا أمام مبنى ضخم مواجه للبحر مباشرة، هذا فندق "فور سيزون سان ستيفانو"، من المدخل الخارجي دخلنا حتى المصعد، صعدنا الطابق الخامس عشر، نظرات البعض كانت تغضبني، لاحظ يوسف هذا فأمسك بيدي ثم قبلها:

- **«جميلة أنتِ بكل ما فيكِ من فوضوية وعشوائية.»**

التفاصيل يا سراج، كان يتفنن في خلق تفاصيل تجعلني أشعر بالسعادة حتى في أشد لحظات حزني وغضبي؛ وصلنا إلى الغرفة، نعم هذه الغرفة، للشرفة مباشرة، كان البحر مهيب، الاحتفالات، الشباب والبنات، والسيارات بضوضائها، الكل سعيد، ليلة عيد لم أرَها في المنصورة، لم أرَها قط!

وضع يديه على كتفي:

- **«الحمَّام ينتظركِ آنستي!»**

قبلتُ يديه:

- **«حسنًا.»**

دخلت إلى الحمام، ضحكتُ، كان أكبر من منزلنا في القرية؛ تذكرت تلك الليالي التي كنت أنتظر فيها بالساعات حتى يأتي دوري في الحمام، ليالي الفقر والضجر، حتى بعدما سافرت إلى القاهرة كنت أعيش على إعانات المعهد، ضحكتُ على عمرٍ ضاع هناك والجوع يقتلنا.

فقراء نحن يا صديقي، حتى في سعادتنا نخشى أن تصبح حلمًا، نخشى أن نعتاد على السعادة فنتذكر ليالي الأسى والحزن، فقراء للحد الذي يجعلنا نخاف السعادة، لربما تكون لحظة لن تدوم، لحظة عابرة تخدعنا حتى نتشبثُ بها فتخذلنا وترحل لنعود من جديد في مأساتنا؛ الفقر يخلق الخوف، يخلق القلق، يخلق التوتر، ويقودنا نحو الجنون.

في الحمام كان هناك دولاب صغير، بشغف وفضول فتحته لأجد به ملابس داخلية، قمصان نوم، عطور، مرطبات جسد، وأشياء أخرى تخص النساء، فبدأ القلق يعتريني، كل شيء يحدث مع هذا الرجل مثير للجنون، مثير للفضول.

أنهيتُ حمامي سريعًا ثم ترددتُ قليلًا في اختيار القميص المناسب، وبالأخير اخترتُ أكثرهم تغطية للجسد ثم خرجت، لأتفاجأ بأجواءٍ مختلفة؛ الأضواء شبه مطفأة، لكن الشموع تحل محلها، موسيقى فرنسية، طاولة

عشاء فخم، وزجاجات نبيذ عرفتها من فنطاس الثلج المصاحب لها، وكان يوسف يقف خلف زجاج الشرفة، يتابع الأجواء الاحتفالية..

- **«نحن هنا يا باش مهندس!»**

التفتَ يوسف، رمقني بنظرة طويلة:

- **«توقعت اختياركِ لهذا القميص.»**

ضحكتُ:

- **«لماذا؟»**

- **«الجميلات لا يحتجن للتعرّي من أجل إظهار أنوثتهن.»**

ذهب للطاولة وتبعته، نظرتُ للطعام ثم ضحكت:

- **«هل ستدعو الناس بالأسفل لهذا العشاء؟»**

بادلني الضحكة:

- **«لا، هذا ملك لنا.»**

قلت:

- **«هذا الطعام يكفي لعشرة أفراد على الأقل!»**

قال:

- **«هذه نظرتكِ أنتِ، لكن في الحقيقة هذا الطعام يكفي لنا فقط!»**

وأنا أفترس الجمبري:

- **«لا أريد إفساد اللحظة، لكن ألا ترى أنكَ تصرف ببزخ! ربما سيعاقبك الله على هذه الأموال التي تصرفها!»**

قال:

- **«لا أقصد الإهانة، لكن تلك قناعات الفقراء؛ خُلقنا لنتمتع بالحياة، أنا قد يقتلني انتظار مؤشر أسهم في البورصة بملايين الدولارات، الآخر قد يقتله انتظار مرتب لا يتجاوز الألف جنيه، والآخر قد يقتله انتظار يومية لا تتجاوز العشرين جنيهًا، حتى قسوة الانتظار تختلف حسب مواردنا يا صديقتي، نحن نخلق القناعات التي تجعلنا نتحمل زيف الحياة؛ خَلَقنا الصَّبر لنتحمل الفقر، خلقنا الأمل لنتحمل اليأس، خلقنا القناعة لنتحمل الوضع القائم، وصدَّقنا بعض الخرافات من أجل العشم في حياة أخرى أقل قسوة من حياتنا، المال وحده هو ما يجعلك تغيِّر قناعاتك، مبادئك، أفكارك، وحياتك.»**

- **«فيلسوف أنت يا يوسف!»**

رد:

- **«لم أكن كذلك، لكن الحياة تخلق منا فلاسفة أيضًا.»**

أنهينا العشاء، وجلسنا في الشرفة، صب كأسًا من النبيذ لنفسه، ثم أشعل سيجارة كانت رائحتها غريبة!

- **«منذ متى وأنت تُدخن الحشيش؟»**

أجاب:

- **«ليس حشيش بالضبط، إنه مزيج ما بين حشيش والمارجوانا والأفيون، أطلق عليها (تي كانجو)، بالمناسبة هذا الخليط أصنعه بنفسي.»**

بدأتُ أتأثر بدخان الحشيش، أو كما أَطلَق عليه (تي كانجو)، وبعد دقائق، وقف يوسف ثم أمسك يديّ بعدما ارتفع صوت الموسيقى وبدأت الاحتفالات بالعام الجديد، والرقص! الرقص حتى الجنون؛ فخلع قميصه وواصل الرقص على موسيقى التانجو الأرجنتينية، كنت في حالة من الجنون، كدتُ أن ألمِسَ السماء من سعادتي، ساعة كاملة من الرقص..

- **«متعِبة أنتِ يا سوما!»**
- **«رقصكَ رائع يا يوسف!»**

سحبني من يدي إلى السرير..

ضحكتْ سوما:

- والآن يا سراج، تريد أن تعرف ما حدث! يا لك من مراهق فضولي، لكن إياك أن تنكر أن طريقتي في السرد جذبت فضولك! بالطبع تتوقع قضاء ليلة ساخنة، هذا جزء فقط لكن الجنس ليس كل شيء.

بسخرية رددتُ:

- سوما، من فضلك، لستِ بحاجة لإثبات براعتك، ماذا حدث بعد ذلك؟

واصلتْ:

- اقترب يوسف مني، كانت المرة الأولى التي أشعر فيها بأنفاسه لهذا الحد، الكثير من التفاصيل التي تعرفها، قبلات هائلة وأنا في حالة استسلام تام، بل رغبتي كانت أقوى حتى من استسلامي فبادلته الفعل، يديه تتحرك على جسدي بطريقة مذهلة، النشوة كانت تغمرني، في لحظة وجدتني

عارية، وجدتني هزيلة القوى، وأنا بين عَرينِ رجلٍ ناضج بما يكفي ليقتلني بلمساته، الكثير من التفاصيل.

لا أتذكر بالضبط ما حدث، لكن ما أتذكره جيدًا أنني استيقظت في الصباح فلم أجده، كل ما وجدته قطرات دمٍ على السرير، نعم فقدتُ عذريتي، الهلع! الخوف! المجهول! الصدمة! جسدي ينتفض من مكانه، قلبي وكأنه يضرب صدري، وكأنه يريد الخروج من مكانه، فقدتُ السيطرة على أطرافي، لا شيء أكثر من الخوف يا سراج، لا شيء أكثر من أنه بعد هذه اللحظة لن تعد حياتي كما كانت!

بحثتُ عن يوسف فلم أجده، اتصلتُ به أكثر من مرة لكنه لم يرد..

مرت ساعة! ساعتان! الهلع! الانتظار، لطالما حافظتُ على نفسي-، لم أكن جميلة للحد الذي يتهافت عليه الرجال، لكن على الأقل لم أسمح لأحدٍ بالاقتراب مني، امرأة مثلي قد ينقصها بعض المشاعر، شعور أنها مؤثرة في حياة أحد، شعور أنها مهمة في حياة أحد، في مجتمع قاسٍ لا يتعامل مع المرأة إلا على أنها مجرد أداةٍ مساعدة أردتُ أن أكون أنا البطلة، بطلة القصة الوحيدة في حياة أحد، هكذا كنت أريد من علاقتي بـ يوسف..

المجهول كان ينتظرني، ماذا لو عاد الود بيني وبين أقاربي؟!

لقد تحققت توقعاتهم وصدقت تنبؤاتهم، أصبحتُ حقًّا فتاة بلا شرف، فتاة العار!

كنت خائفة، خائفة كما لو أنني طفلة تختبئ من الأشباح وسط المقابر، وللمرة الأولى اختلست سيجارة من علبة يوسف التي كان قد نسيها على

السرير بعدما لمت شعري الممزوج برائحته، الخوف والوسواس يتحدان في رأسي..

سيرحل عنكِ، أنتِ مجرد فتاة عاهرة..

لن يرحل عنكِ، سيفهم أنَّ ما حدث كان خارجًا عن سيطرتكِ..

سيرحل، كيف يثق في فتاة سلمَّتْ أمرها له..

لن يرحل، سيقدِّر تمامًا أن ما حدث لم يكن يحدث لولا حبكِ له..

الرجل الشرقي إن امتلك ابتعد..

الرجل الشرقي إن عَشِقَ تُيِّم بحبيبته..

هو لم يعدكِ بشيءٍ ليبقَ معكِ..

وعدكِ أن تعيشي حياةً سعيدة معه..

يا مسكينة، حياة سعيدة لأنكِ بعيدة..

يا جميلة، حياة سعيدة لأنكِ قريبة..

هو يملك كل شيء، أكثر ما دفعه للاقتراب منكِ هو عدم امتلاكه لك..

هو يملك كل شيء، لكنه لا يملك قلبًا يحبه بصدق مثلكِ..

صداع! الصداع والتساؤلات والأفكار، كنت خائفة، أتنفس بصعوبة بالغة.

عندما تخاف تحتاج لمن يطمئنك، تحتاج لمن يُربتُ على كتفك ليخبرك أن كل شيءٍ سيكون على ما يرام حتى لو بالكذب، تبحث عن أأمَنِ مكانٍ يتسع لخوفك، تحتاج فقط لمن يخبرك أنك لستَ وحدك، لست وحدك حقًّا..

الصداع! اللعنة! السيجارة الثانية.. الثالثة.. الدم على السرير يثير غضبي..

إنها النهاية! أصبحتُ فتاةً بلا شرف، أسمع ضحكاتٍ حولي، لكن لا أحد هنا غيري!

هذا أبي، ذاك الملعون الذي كان يتهمني بالعار، لم يكن عارًا عندما حاول التحرش بي!

هذا أبي ذاك الملعون الذي كان يتهمني بالعار! لم يكن عارًا عندما كان يراقبني وانا أغير ملابسي!

أسمع ضحكاتٍ حولي، لكن لا أحد هنا غيري!

هذه أمي، تلك الصابرة التي تحملت الفقر، لم تكن صابرة عندما اتهمتني بالكذب!

هذه أمي، تلك الصابرة التي تحملت قسوة أبي، لم تكن صابرة عندما اتهمتني بالجنون!

أسمع ضحكاتٍ حولي، لكن لا أحد هنا غيري!

هذا الرجل الذي حاول التحرش بي في قريتنا، ثم اتهمني بالفجور عندما صفعته!

هذا أخي، ذاك الذي انهال عليَّ بالضرب واتهمني بالعار عندما دافعتُ عن نفسي!

مَن أتى بأهل القرية إلى الغرفة؟ من وشى بي؟ من أخبرهم أنني في هذا الفندق؟!

دوار يضرب رأسي، الأرض لا تتسع لقدمي..

اختناق! أتقيَّأ! أرتجف!

سكين! الدم مثير!

فلينتهي كل شيء!

أشعر بالسكين على معصمي! أشعر بانتهاكه لجلدي! الدم يثور!

أنا أضحك! انا أضحك وأصرخ وأواصل قطع شريان!

أصرخ ولا أحد يرد سوى صدى صوتي!

أواصل القطع! أهلًا عزيزي الموت، لستُ مستعدة للقائك، لكنني انتظرتك طويلًا، هيَّا لا تخف، لا تخف من الدماء، أنا فتاة رائعة، لا تقلق، هيَّا عانقني، تعال.. تعال..

كنتُ أواصل القطع وأشعر أن قلبي ينخلع من مكانه.. عشر ضربات.. سبع ضربات.. أربع.. ثلاثة.. اثنان.. النهاية!

صمتتْ "سوما" صمتًا طويلًا ثم أشعلت سيجارتها، وبدأت تتابع سرب الدخان كما لو أنها تُنشِّطُ ذاكرتها أكثر، ثم سألتني:

ـ أيهما أقسى يا سراج، أن ترحل عن شخصٍ يحبك وتحبه، أم تبقى معه وتعامله بقسوة؟!

ـ أظن أن ترحل عنه أفضل من تحمل قسوته!

ضحكتْ:

ـ تقول هذا لأنك لست وحدك.

باستغراب سألتُ:

ـ ماذا تقصدين؟!

من جديد وبنَفَسٍ عميقٍ قالت:

ـ استيقظت في أحد الغرف البيضاء، نعم كانت غرفة في المستشفى، وكنت منهكة جدًا، لم أشعر بأطرافي، الأجهزة تحاصرني ورأسي يؤلمني، ماذا حدث؟ لا أستطيع النهوض من السرير، بجواري كان جهاز أحمر صغير، ظننت أنه جرس لمناداة إحدى الممرضات، تأكدتُ من ظنوني بعدما ضغطت مرتين حتى جاءت إحداهن، كانت فتاة في العشرينات من العُمر، جميلة ومنهدمة تدل على فخامة المستشفى.

- **«حمدًا لله على سلامتك، أنا نيفين ممرضتك الخاصة.»**

لم أكن في حالةٍ تسمح لتبادل التحية فقد كنتُ تحت تأثير المُخدِّر، فسألتها:

- **«أين يوسف؟»**

بابتسامةٍ هادئة ردتْ:

- **«هذا المشفى من ضمن أملاك السيد يوسف المهندس، لا تقلقي كل شيء على ما يرام، هو بنفسه قد أوصى بخدمة خاصة جدًا لك، كل ما عليك الآن أن تسمحي لنا ببعض الإجراءات من أجل الاطمئنان على ضربات القلب والأعصاب.»**

في المساء جاءت نيفين مرةً أخرى، كنت في حال أفضل؛ أحد الأشياء المميزة أن تكون الممرضة ذات وجهٍ بشوش..

- **«كيف حالكِ سيدتي؟»**
- **«من فضلكِ، اسمي "سوما"، دعكِ من الألقاب!»**

ضحكتْ برقة:

- **«كيف حالكِ الآن يا سوما؟»**
- **«كم يومًا قضيتُهُ هنا؟!»**
- **«أسبوع واحد، الأمر بسيط، لقد أنقذناكِ من موتٍ حقيقي.»**
- **«موت حقيقي! أنتِ مُحقِّة، هذا أمر بسيط.»**

ابتسمت نيفين:

- **«أقصد أنكِ الآن على ما يرام.»**

كررتُ:

- **«أين يوسف؟»**

ردتْ:

- **«السيد يوسف لم يأتِ خلال هذا الأسبوع نظرًا لارتباطاته الخارجية، لكن هو من اتصل بنا وأعطانا تفاصيل إقامتك، ومن ثمة اتجهت سيارة الإسعاف إلى الفندق حتى هنا.»**

باستغراب:

- **«تقصدين أنه لم يأتِ ذاك اليوم؟!»**

ردتْ وكأنها مستعدة لهذا السؤال:

- **«لقد اتصل بنا من المغرب، هذا كل شيء.»**

شعرتْ بغرابة شديدة:

- **«في أيّ يومٍ أتيتُ إلى هنا؟»**

بثقة قالت:

- **«الأول من يناير!»**

بعصبية:

- **«كيف تقولين أنه اتصل بكم من المغرب؟ لقد كان معي ليلتها! كيف سافر بتلك السرعة؟! من أخبره بالأساس عن الحادث!»**

بهدوءٍ تام:

- **«صدقيني يا سوما لا أملك تفاصيل أكثر عمَّا حدث، والآن حان وقت جرعة المنوّم»**

- **«لا أحتاج لها، لديَّ الكثير من الأسئلة، من فضلك أريد الاتصال بـ يوسف!»**

- **«مستحيل، نحن لا نملك أيّ رقمٍ خاصٍ به، هو فقط مَن يتصل بنا.»**

باستسلام:

- **«حسنًا، فلننتظر حتى الصباح.»**

أعطتني المنوم، كنت في حاجة للمزيد من السكينة حتى يأتي يوسف.

وفي صباح اليوم التالي، شعرتُ ببعض الآلام في الجزء الأسفل من بطني، فضربتُ الجرس..

- **«الدورة الشهرية!»**

قالت:

- **«لا أعتقد، لكن لحظة!»**

ورفعت الغطاء ثم قامت ببعض الفحوصات..

- **«لا لا، الآلام عرضية، ربما ناتجة عن القلق لا أكثر»**

سألتها إن كان يوسف قد عاد، فقالت أنه لم يأتِ ولم يتصل.

كان يومًا مملًّا، قرأت بعض المجلات، شاهدتُ التلفاز، حاولت بشتَّى الطرق إضاعة الوقت، حتى عادت نيفين مرة أخرى..

- **«أريد الخروج؟»**

قالت:

«مع الأسف لا يمكنكِ الخروج إلا بأمرٍ من السيد يوسف.»

في غضبٍ قلتُ:

- **«إذن أنا هنا حبيسة المجهول!»**

قالت بابتسامة:

- **«لا يا سيدتي، كل ما في الأمر أنها أوامر، ونحن ننفذ الأوامر.»**
- **«أريد القانون، أنا أحتاج العزف على القانون!»**
- **«نعرف هذا، نعرف أنكِ موهوبة جدًّا، حسنًا لا مانع.»**

تثير غضبي الطلبات المجابة التي يسبقها "لا مانع.. لا مشكلة"، أشعر وكأنها حق ليس من حقي!

أعطتني القانون، وجلست لتسمعني؛ كانت فتاة مزاجية جدًا، تشعر أحيانًا أنها لطيفة للحد الذي يجعلك تتمنى أن تبني علاقة صداقة معها، وفجأة تخاف منها ومن ردود أفعالها، في الكثير من الوقت كنت أتمنى لو أنني أستطيع مصادقتها، لكن هذا ليس هدفي، أنا هنا فقط لانتظار يوسف..

مر الوقت وانتهى يوم آخر، تبعه أسبوع كامل والخيبة تزداد، لم يسأل يوسف ولم يتصل، ولم أخرج من الغرفة.

وقبل نهاية الأسبوع الثاني ازددتُ غضبًا، لم أعد أتحمل تلك المعاملة التي تبدو وكأنها لطيفة، لكنني تأكدت أنني تحت الإقامة الجبرية في تلك الغرفة، شعرت بشيء غريب يحدث، لم ألتقِ بأحدٍ سوى نيفين، كانت تتعامل مع جروحي بحذر مبالغ فيه، هي مجرد جروح، حتى لو كان جرح معصمي عميق لكن لا يستحق كل هذا الحذر!

- **«نيفين من فضلك، أنا لا أفهم سر عدم خروجي من هذه الغرفة، لم ألتقِ بأي شخص سواكِ، أريد الخروج بأي طريقة ممكنة، تحسنتْ حالتي وأستطيع فعل هذا، لا يهم إن اتصل يوسف أم لم يتصل، لديَّ اختبارات في المعهد، لديَّ حياة كاملة تنتظرني!»**

لم ترد نيفين، كانت تسمع أكثر مما ترد على أسئلتي، كدتُ أنفجر من تلك المعاملة، حاولتُ فتح باب الغرفة بأيّ طريقة، لم تتحرك هي من مكانها، كانت تجلس على الكرسي في حالة هدوء، حاولت فتح النافذة دون جدوى..

تنهدتُ باستسلام:

- **«أريد الخروج يا نيفين، لقد مللت من البقاء هنا.»**

ردتْ بهدوء:

- **«سأحاول فعل كل الممكن من أجلكِ يا سوما، سأحاول.»**

انتهى اليوم، وفي الصباح استيقظت في غرفة تختلف تمامًا عن غرفة المستشفى، استجمعت قوتي ثم بدأت في اكتشاف ما يحدث..

أين أنا؟ رغم عتمة الأضواء، كان أحدهم يجلس على كرسيّ أمام السرير، قلتُ بغضبٍ وصوتٍ عالٍ:

- **«أين أنا؟»**

فُتِحَتْ النافذة، فتسلل شعاع شمس بسيط داخل الغرفة..

- **«يوسف!»**

حاولتُ التحرك من مكاني، لكن لم يساعدني جسدي على هذا؛ ببرود أعصابٍ تام رد:

- **«كيف حالكِ يا سوما؟»**
- **«لستُ بخير، لا أفهم ماذا حدث وماذا يحدث، كيف سافرتَ إلى المغرب بهذه السرعة؟ لماذا لم تتصل بي كل تلك المدة؟!»**

قاطعني يوسف:

- **«سأجيب على كل شيء، اهدأي الآن من فضلك.»**
- **«لن أهدأ يا يوسف، لن أهدأ حتى أفهم كل شيء»**

تحرك يوسف ناحية المكتب، وتبعته بصعوبة، أمسك ببعض الأوراق والإشاعات، تفحصهم بتمعنٍ شديد..

- **«يوسف، يزعجني هذا الهدوء، من فضلك أجب عن أسئلتي!»**

لم يُحرك ساكنًا، وظل يتفحص الأوراق حتى صرختُ:

- **«يوسف، لا تتركني هكذا، أنت متسببٌ في أذى عميق بداخلي!»**

نظر إليَّ يوسف بعد أن أشعل سيجارته:

- **«مَن كان معكِ في الليلة الأخيرة من ديسمبر؟»**

ضحكتُ:

- **«بالتأكيد لم يكن أحد سواك!»**

واصل هدوئه:

- **«تعرفين أنني خارج البلاد منذ شهر تقريبًا!»**

اختلست سيجارة من علبة سجائره:

- **«ماذا تقصد؟»**
- **«أقصد أنني أريد معرفة ما حدث بأدق التفاصيل خلال ليلة الواحد والثلاثين من ديسمبر!»**
- **«أنت تمزح يا يوسف! بالتأكيد تمزح!»**

انفعل يوسف:

- **«لا وقت للمزاح، أنتِ في كارثة حقيقية!»**
- **«نحن يا يوسف، نحن وليس أنا!»**
- **«لا، أنتِ وحدكِ المسؤولة عما حدث.»**

اقترب يوسف مني ثم أمسك شعري بقوة:

- **«الآن أجيبيني، من كان معكِ في تلك الليلة؟ أجيبيني وإلا دفنتكِ بالحياة وأنتِ في مكانك»**

حاولت مقاومته لكنني فشلت:

- **«كيف تسأل؟! أنتَ مَن كنت معي، لقد أتيتَ إليَّ ليلتها وسافرنا معًا إلى هنا، المدير يعرف هذا، لقد اتصلتَ به وأخبرته أنني معك وطلبتَ منه أن يُجهز شهادة تجاوزي للاختبار، ألا تتذكر كل هذا؟ أأنتَ مُختلّ؟!»**

صفعني يوسف بقوة، كانت تلك المرة الأولى التي يصفعني فيها:

- **«أنا بالمغرب منذ شهر يا عاهرة! الإشاعات تقول أنكِ مصابة بالإيدز، هل تفهمين؟ تم نقل الإيدز لك عن طريق هذا الذي كان معكِ»**

ركلني يوسف:

- **«أنتِ في ورطة حقيقية، أنتِ ومَن كان معكِ سيكون مصيركما السجن، على الأقل لن يتقبل المجتمع وجودكما بداخله، هناك احتمال لإنجاب طفل، وهذا لن يرحمكِ، لن تنالي إلا أشد وأقسى أنواع العقاب. أجيبيني مَن كان معكِ، أجيبيني يا عاهرة!»**

لم أرد، كنت في حالة صدمة وذهول، فجعة وخوف؛ هذا الرجل محتال، يحاول اقناعي بما هو مستحيل، يحاول اقناعي بأن كل ما حدث كان من صنع خيالي!

لم أتحمل، كالأطفال ظللتُ أبكي، بكيت كما لم أبكي طوال حياتي.

اقترب يوسف مني، وضع رأسي بين صدره وحاول تهدئتي:

- **«سوما لا تقلقي! أنا معكِ، لن أتركَكِ وحدكِ في مأساتكِ، لن أتركَكِ، ساعديني من أجل تجاوز الأمر!»**

دفعته بعيدًا عني:

- **«كيف تحاول اقناعي أنك لم تكن معي، تتهمني بالعار ومعاشرة رجل مصاب بالإيدز وكأنك لست أنت هذا الرجل! بهذه البساطة! أقسم لن أرحمك يا يوسف، أقسم لن يُشفى غليلي إلا بعد أن أضعك خلف جدران السجن..»**

ضحك يوسف:

- **«حسنًا، تقولين أنني كنت معكِ، لكن مَن غيرنا يعرف بهذا؟ لديَّ كل الإثباتات التي تؤكد على وجودي في المغرب خلال تلك الفترة.»**

قلت وأنا أبكي:

- **«لماذا لم تخبرني يا يوسف؟ كيف سمحت لنفسك أن تعاشرني وأنتَ مصابٌ بالإيدز؟»**

قال:

- **«ما حدث قد حدث يا سامية، الآن علينا أن نفكر بعقلانية أكثر، فلنتفاوض من أجل الخروج من هذا المأزق!»**

دفعته بكبرياء امرأة تتفاوض على حريتها:

- **«لن أوافق، لن أوافق على قضاء عمري تحت سجن الصمت والهزيمة.»**

قال بانفعال:

- **«لن تستطيعي إثبات أي شيء يا سامية، لن يصدقكِ أحد، هذه دولتي وهذه قوانيني.»**

كنت أعرف أن يوسف ليس رجلًا عاديًّا، ليس مجرد شخص ذو نفوذ، الأمر كان أبعد وأكبر، لم أكن أعرف ماذا أفعل، لم أكن أعرف المصير المجهول الذي ينتظرني؛ إن أصعب ما يصيب المرء أن يكتشف فجأة مدى هشاشته ووحدته، ذاك الذي كان يبتسم وكان يختبئ خلف الوَنَس، يكتشف فجأة أنه كالدخان لا أثر له.

في صباح اليوم التالي وبعدما وجدت ملابس جديدة تناسب الخروج عدت إلى القاهرة، لم يوقفني أحد من العاملين بالفندق وكأنهم كانوا يعلمون بموعد مغادرتي، عدتُ وأنا مُصِرَّةٌ على الانتقام من يوسف، وما إن وصلت حتى تفاجأتُ بمظروفٍ كبير على الطاولة، اللعنة مصيبة جديدة قد تنتظرني!

من شدة الوجع ارتميتُ على السرير، أخذت المظروف لأكتشفه، كان بداخله مبلغ مالي كبير وبخط صغير مكتوب:

«سيساعدك هذا على مصاريف الانتقام.. بالتوفيق.»

لم أدرِ بنفسي- إلا في صباح اليوم التالي، مدير المعهد هو الشاهد الوحيد على ما حدث بيني وبين يوسف، صحيح أنه رجل دنيء، لكن ربما يستيقظ ضميره ولو لمرة واحدة!

اتجهت إلى المعهد ولم أجد أحدًا من زملائي، فاتجهت لمكتب المدير..

ببرود تام قال:

- **«ما الأمر؟»**

رددتُ:

- **«أعتذر عن غيابي تلك الفترة، لقد كنت في كارثة حقيقية، الأمر يصعب شرحه لك، لكن أريد مساعدتك»**

قال:

- **«ماذا حدث؟»**

ترددتُ ثواني قبل أن أقول:

- **«يوسف المهندس!»**

باستغرابٍ قال:

- **«من هذا؟»**

تنهدت:

- **«يوسف المهندس، رجل الأعمال، الذي دعانا من قبل لحفل خاص بقريته في الساحل الشمالي.»**

لم يلتفت إليَّ:

- **«نعم، نعم تذكرته.»**

قلت:

- **«لقد اتصل بك يوم ٣١ من ديسمبر، وطلب منك أن تكتب شهادة بتجاوزي اختبار منتصف العام، هل تتذكر تلك المكالمة؟»**

نهض فجأة:

- **«تتهمني بالرشوة!»**

بتوتر:

- **«لا أقصد، كل ما في الأمر أنك الشاهد الوحيد على أنني كنت معه في تلك الليلة، أقسم لو كان بإمكاني لشرحتُ لك كل شيء، لكن الأمر حقًّا يصعب شرحه، سيدي أرجوك أنت الأمل الوحيد لإنقاذي من كارثة حقيقية.»**

بحزم وهو يبحث بين الأوراق المتناثرة:

- **«من فضلكِ وقِّعي على هذا..»**

دون أن أقرأ وبسذاجة شديدة وقَّعت.

وضع بعض الأختام والتوقيعات، ثم أعطاني الورقة.

«نظرًا لتغيّب الطالبة "سامية نجيب التهامي" عن حضور المحاضرات العملية والنظرية من الفترة ٣٠ ديسمبر حتى ١٧ يناير ولتغيبها، عن امتحان منتصف العام، ونظرًا لتجاوز الطالبة عدد أيام الغياب المسموح بها، قررتْ إدارة المعهد بالإجماع على الآتي:

أولًا: فصل الطالبة المذكورة فصلًا نهائيًا.

ثانيًا: حرمان الطالبة من الالتحاق بأي معهد أو جامعة أو مؤسسة علمية مدى الحياة.

ثالثًا: تلتزم الطالبة بتسليم محل إقامتها ودفع مبلغ التأمين لصاحب العقار في مدة زمنية لا تتجاوز أسبوعين.»

صرخت وأنا أتهجم عليه:

- **«يا أولاد العاهرات! لن أرحمك يا دنيء»**

على الفور حضر الأمن، وحملوني حتى بطحوني أرضًا، وتجمهر البعض حولي؛ في تلك اللحظة تمنيتُ لو كان لديّ ولو صديق واحد ألجأ إليه، نعم اعتدت الحياة وحدي، لكن في بعض الأوقات نحتاج لِمَن يُربِّتُ علينا، لمن يشد بنا، وأنا كنت وحدي تمامًا.

عدتُ إلى المنزل بعدما قررتُ أن تكون وجهتي في صباح اليوم التالي هي لرفع قضية على «يوسف المهندس».

قرار صعب، ما بين الاستسلام للموت وما بين المقاومة حتى النفس الأخير؛ لقد عشت حياتي في سجنٍ، ويكفي الآن الاختباء.

أنا عاهرة الجسد حتى لو حدث هذا تحت طائلة الحب، فالقانون لا يعترف بالحب، لن أسمح لعقلي وحريتي أن تكون حبيسة المرض، لن أنتظر حتى يأتي الموعد المنتظر وأنا حبيسة تلك الجدران؛ لكن كيف أنتقم من يوسف؟ كيف؟

التساؤلات والتساؤلات، وأنا بينهم..

وفي العاشرة صباحًا اتجهت لقسم الشرطة، هذا المكان لا أحبه، رغم عدم ذهابي له كثيرًا، لكن هنا يتعاملون مع الجميع على أنهم حشرات يمكن دهسها في أيّ وقت، عليك التعامل بحذر شديد وإلا تم اتهامك بأيّ تهمة قد تؤدي بك إلى السجن مدى الحياة؛ كان يجلس على المكتب أحد رجال الأمن بوجهته وقامته المعروفة وملامحه التي تثير الرعب في نفوس الناس..

- **«من فضلك، أريد مقابلة مأمور القسم»**

دون أن ينظر إليَّ وبضحكة ساخرة:

- **«مأمور القسم! بتلك البساطة!»**

قلت بصوت حازم:

- **«نعم، الأمر طارئ وعاجل.»**

بسخرية وهو يتفحص كل منحنى في جسدي:

- **«من تحرش بكِ؟ هل فقدتِ محفظتك؟ في أيّ شارع سُرِقَ هاتفك؟ أين موقع أولئك الذين تظنين أنهم تابعين لخلايا إرهابية؟»**

بثباتٍ لم أتوقعه قلت:

- **«أريد مأمور القسم من فضلك، الأمر عاجل»**

لاحظ أحد أصدقاءه الجديَّة التي أتحدث بها، فقطع حديثنا ثم سألني بنبرة هادئة:

- **«ما الأمر سيدتي؟»**

فكرت لثوانٍ ثم قلت:

- **«أريد مقابلة مأمور القسم، الأمر يهدد الأمن القومي، ولو لم أقابله فأنتم المسؤولون عمّا سيحدث.»**

قال صديقه الهادئ:

- **«حسنًا تعالي معي.»**

جلست على كرسيّ بجوار مكتب المأمور، المكان هناك يثير الرعب في نفوس الجميع، الصراخ والبكاء والشتائم أحد أهم سمات هذا القسم، البعض أطلق على هذا المبنى "المشرحة" فالداخل هنا مفقود والخارج مولود، لكن

ورغم قسوة وبشاعة هذا القسم إلا أنه معروف بأن البلاغات التي يشرف عليها لا تغلق إلا بعد محاولات عديدة لمعرفة الحقيقة.

بعد ساعة من الانتظار دخلتُ للمأمور، كان شابًا في منتصف الثلاثينات، ملامحه هادئة وبشوش، على عكس أغلب الذين رأيتهم هناك، ابتسم في وجهي ثم أذن لي بالجلوس:

- **«أنا زايد منصور، مأمور القسم. سمعتُ أنكِ تريدين مقابلتي، ما الأمر؟»**

تنهدتُ، فمن قسوة التعب يا سراج قد تحتاج لمن يبتسم لك ولو ابتسامة كاذبة. لاحظتُ وجود عددًا من أفراد الأمن في المكتب، فقلتُ:

- **«الأمر يحتاج إلى سريَّة أكثر.»**

كان ذكيًا بما يكفي ليتفهَّم رغبتي في خروج أفراد الأمن، وبالفعل أمرهم بالخروج، لكنه لم يستطع منع نظراتهم التي لاحقتني حتى خرجوا من المكتب..

- **«في البداية أنا آسفة، الأمر لا يخص الأمن القومي كما ادعيت، لكن كانت هذه هي الطريقة الوحيدة لمقابلتك، الأمر مُحرج، لكن أرجو أن تتفهمه، لن أطيل عليك، ببساطة أريد تقديم بلاغ في شخص ما عاشرني جنسيًا وهو مصاب بالإيدز دون علمي.»**

توقعتُ أن ينفجر في وجهي، أو ربما ينادي رجال الأمن لإيداعي في السجن، لكن بهدوءٍ تامٍ قال:

- **«هو زوجكِ؟»**

قلت:

- **«لا.»**

سألني من جديد:

- **«صديقكِ؟»**

هززت رأسي أيّ نعم.

قال:

- **«هل بينكما أي عقد زواج عرفي؟»**

قلت:

- **«لا، لقد حدث الأمر رغمًا عني»**

قال:

- **«بالطبع لن أتحدث عن العلاقة التي تعرفين جيدًا أنها محرمة ومشبوهة، وقد يعاقبكِ القانون عليها، أما إصابتكِ بالإيدز يعني تورط الطرف الآخر في قضية نقل عدوى، إلا إذا كان معه إقرار منكِ بالموافقة على هذه العلاقة وأنتِ تعلمين بمرضه الخبيث!»**

قلت:

- **«نعم أعرف كل هذا.»**

سألني:

- **«ما اسمه؟»**

قلت:

- **«يوسف عدلي المهندس.»**

تلجلج المأمور ثوانٍ، ثم تساءل مجددًا عن الاسم:

- **«تشابه أسماء أليس كذلك؟»**

قلت بحزم:

- **«لا، ليس تشابه أسماء، هو رجل الأعمال المعروف يوسف عدلي المهندس.»**

قال:

- **«هذا اتهام يخص الرأي العام، المهندس ليس مجرد رجل أعمال عاديّ، ويعتبر عمودًا رئيسيًا من أعمدة الاقتصاد»**

قلت:

- **«صدقًا لا أتابع السياسة، ولا أعرف حتى ما أهميته بالنسبة للاقتصاد، لكنني أعرف أنه رجل ذو سلطة ونفوذ، ولهذا طلبتُ مقابلتك شخصيًا.»**

بدأت علامات التوتر على زايد، ثم رفع سماعة الهاتف:

- **«فنجان قهوتي وعصير برتقال، ولا أريد مقابلة أي شخص.»**

بعد عشر دقائق من الصمت التام استعاد زايد ذهنه من جديد:

- **«أريد معرفة كل شيء، أدق أدق التفاصيل، أنتِ تتهمين رجلًا مُهمًا، والأمر أكبر وأصعب مما تتخيلين»**

لم أكن أتوقع أن يوسف يملك سلطة ونفوذ للحد الذي يجعل مأمور القسم يتلجلج ما إن سمع اسمه.

مرت ساعتان، خلالهما أخبرتُ المأمور بكل شيء، حتى التفاصيل التي قد لا تفيد، وشعرت بتعاطفه الكبير معي، خصوصًا بعدما أخبرته أنني أحمل

طفلًا من يوسف؛ كنت أتوقع أن يشمئزَّ مني، لكن ثَمَّة أشخاص يرسلهم الله لنا ليهونوا علينا حتى بنظراتهم.

قال:

- **«حسنًا تحتاجين لمحامٍ من الدرجة الأولى لرفع القضية، لا أظن أن هناك من سيوافق على الدفاع عنكِ أمام يوسف المهندس، عمومًا سأقدم بلاغكِ، ولننتظر ما يخبئه لنا القدر، ما أرجوه فقط أن يكون كل شيء في سرية تامة»**

هززتُ رأسي:

- **«بالتأكيد.»**

انتهى يوم شاق.

بدأت تدريجيًّا بجمع أغراضي من أجل الرحيل، ولا أعرف بالضبط قيمة التأمين، لكن ما زال لديَّ أسبوعين لربما يحدث شيء جديد.

بعد خمسة أيام من ذهابي للقسم بدأت الآلام تتوحش في جسدي، إنها أعراض الحمل اللعينة، وكنتُ لا أملك ما يكفي من المال لشراء ثلاث وجبات، كنت أكتفي بالإفطار فقط.

بالصدفة وجدتُ الكارت الخاص بالمأمور، «زايد منصور التابعي»، رغمًا عني اتصلت به، أو بمعنى أوضح كنت أستنجد به؛ وفي التاسعة صباحًا طرق أحدهم الباب، كان الطارق زايد مأمور القسم، أخبرني أن النيابة تنتظرني غدًا في الثامنة صباحًا، لكنه لن يستطيع الدخول، وأعطاني رقم

محامٍ قد استطاع أن يقنعه بالدفاع عني، فاتصلت بالمحامي وطلب مني الحضور على الفور.

ارتديت ملابسي، ثم ذهبت إليه في مكتبه بشارع طلعت حرب، واستقبلني بمودة، ثم تحدث معي عن عدة أشياء تخص يوسف المهندس، وبعد ساعتين من الأسئلة قال:

- **«دعيني أخبركِ بالحقيقة كما هي، فالأمر معقد، يوسف المهندس أحد أخطر وأهم رجال مصر، بإمكانه شراء كل شيء حتى نفوس الناس، لا أظن أن نتائج القضية سترضيكِ، لكننا سنحاول.»**

قلت:

- **«وأنا أثق بك.»**

قال:

- **«غدًا ستطالبين بالكشف الطبي على يوسف المهندس، لا تتحدثي مع الإعلاميين، حياتكِ مهددة بالخطر؛ هذا مفتاح شقتي في المنيَل، سأعطيكِ العنوان بالضبط، ابقي هناك، وهذا هاتف به رقمي ورقم زايد، سأكون في انتظاركِ في السادسة صباحًا، هيا بنا!»**

وكما توقعنا جميعًا، خرجت النتيجة سلبية؛ لكن سرعان ما قدم المحامي طعن، وطالب بإعادة الكشف الطبي، وقُبِل الطعن وتمت إعادة الكشف.

في تلك الفترة كان صدى القضية مدويًّا بين وسائل الإعلام، حتى أمرت المحكمة بحظر النشر.

كان زايد يتابعني بشكلٍ يومي؛ أتذكر يوم تقديم الطعن كنا نجلس نحن الثلاثة في منزل المنيَّل، كان المحامي يفكر في الخطوة القادمة، فقد أصبحت قضية رأي عام، وأخطبوط يوسف المهندس قد ينهار منه في أي وقت، أما عن زايد فقد كان يقرأ الأخبار المتداولة على صفحات الإنترنت.

وبعد حالة صمت طويل قال المحامي:

- **«الأمر معقد، لقد اشترى يوسف رجال الطب الشرعي، ولا أستبعد شرائه للآخرين، الاستمرار في القضية يقابلها تعريض حياتنا للخطر، خصوصًا حياتك أنتِ يا سامية.**

إن ما أتمناه أن تمر هذه الفترة بسلام؛ بالمناسبة لقد أغلقت المكتب مؤقتًا، لا أخفي عليكم خبرًا جائتني الكثير من رسائل التهديد غير المباشرة، فعليك يا زايد من الآن أن لا تتواصل مع سامية، لا يجب عليك الظهور معها بأي حال.»

بصرامة شديدة رد زايد:

- **«يمكنك تقديم بلاغ عن التهديدات التي وصلت إليك!»**

قال المحامي:

- **«ربما أخطأنا في التضخيم الإعلامي، على أي حال لا داعي لحربٍ أخرى.»**

لم أكن أملك ردًّا أبلغ من أنني أخشى الاستسلام.

سادت حالة صمت طويلة حتى استأذن المحامي ورحل، وبقي زايد معي.

زايد كان بمثابة طوق النجاة بالنسبة لي؛ أحيانًا يهبك الله أحدهم فقط ليجعلك بخير، رغم علاقتي البسيطة به لكنني كنت أشعر بالكثير من الأمان في وجوده بجواري، كانت مشاعري متضاربة نحوه، امتنان يتبعه شيء من الحسرة، هو الوحيد الذي ساعدني في وقت لم أكن أملك أي شخص يهوّن ولو بكلمة بسيطة؛ صدقني وكأنه يعرفني منذ زمن، قدم كل الممكن من أجل أخذ حقي ولو من فم الأسد، وكان حقًا يوسف هو الأسد الذي بإمكانه صيد أي فريسة بسهولة.

الكثير من الأسئلة التي راودتني ولا أستطيع الإجابة عليها، لاحظ زايد توتري فقال:

- **«بالطبع ثمة أسئلة عالقة في ذهنك، لماذا أساعدك وأعرض حياتي وعملي للخطر!**

لست مغوارًا يا سامية، لكن عائلة المهندس كان سببًا في نقطة تحول عظيمة في حياتي، حدث هذا قبل عشرون عام؛ في إحدى القرى على أطراف القاهرة، كنا نعيش في قطعة أرض واسعة، وقتها عرض "عدلي المهندس" والد يوسف مبلغًا ضخمًا على أبي لشراء الأرض منه حتى يقيم مركزًا تجاريًا متكاملًا عليها، لكن رفض أبي، فقد كانت الأرض هي ملكنا الوحيد وورثه من أبيه، كرر المهندس عرض الشراء بمبلغ مضاعف، ورفض أبي مرة أخرى.

استمر المهندس في محاولاته، ومع كل محاولة كانت تزداد حدة المناقشات بينه وبين أبي، حتى وفي المرة الأخيرة توعَّد المهندس بأخذ الأرض دون أن يدفع جنيهًا واحدًا.

وبالفعل وبعد أسبوع جاء مُحضر يأمر أبي بالخروج من المنزل وتسليمه الأرض لأنها من ضمن "الكاردون الزراعي"، لكن رفض أبي وأصرَّ على البقاء في المنزل.

وذات يوم استيقظنا مفزوعين على أصوات آلات ثقيلة، وقوة من الأمن المركزي تأمرنا بإخلاء المنزل وإلا سيهدم علينا؛ حينها نهضت أمي مسرعة، أتذكر وقتها كانت أختي الصغيرة بملابس النوم وقد خرجت مفزوعة من غرفتها من قسوة أصوات آلات الهدم والقوة والتجمهر من جيراننا..

اقتحمت القوة المنزل، حملوا أبي وأختي وسحبوا أمي للخارج، وقتها لم تبكِ أمي ولم تقاوم الأمن، خرجت بهدوء تام، ابتعدنا مسافة كافية، ثم بدأ الهدَّام الحديدي بهدم المنزل وسط حراسة الأمن، وعدلي المهندس يقف بينهم يتابع عمليات الإزالة، وأبي كالنساء لا يختلف عن أمي كثيرًا يبكي بجوارها، فهُنا ولد أبي، وهنا عاش طفولته وحياته، وهنا واصلنا وورثنا الأرض.

كان يهدم الهدام المنزل وفي مخيلتي يهدم معه كل أركان قلوبنا، ذكرياتنا، طفولتنا، حياتنا، كل شيء يتم هدمه أمام أعيننا.

رغم الزحام، ورغم بكاء أبي، كنت أتابع عدلي المهندس، أراقب عينيه، نظراته وجبروته، يقف بين رجال الأمن شامخًا شامتًا وهو يهدمنا، ومن بعدها أعطتنا الحكومة منزلًا في إحدى القرى حديثة الإنشاء.

كانت صدمة أبي أقوى من أن يتحملها، فمات أبي بعد شهر واحد من تلك الوقعة المؤلمة، وبدأت حياتي تدريجيًا تتلخص في هدف واحد، وهو

الانتقام من عائلة المهندس، من عدلي وابنه الذي كان يراقب كل شيء ويبتسم.»

سألته:

- **«والتحقت بكلية الشرطة لهذا السبب؟!»**

قال زايد:

- **«قلت لكِ أنني لا أساعدك لأجلكِ فقط، بل لأنني أعرف تمامًا قذارة هذا الرجل التي ورثها عن والده وجدوده جميعًا، أعرف نفوذه وجبروته وسلطته التي لا حد لها.»**

استأذن زايد وتركني مجددًا في مخاوفي.

لا أخفي عنك سرًا وقتها اجتاحتني حالة خوف، هو أكبر من القانون، أكبر من النفوذ، هو وكما كان يطلق على نفسه «القدر» بنرجسية لا تنتمي لأي دين كان يحب اطلاق هذا الاسم على نفسه؛ هو الذي يقرر مَن يموت ومن يحيا، من يفوز ومن ينهزم، كان أقوى من أن نتصدى له.

كنت أقول لنفسي **«وهل بإمكاني أنا هزيمة رجل بهذا الجبروت؟! هل يمكنني الفوز على القدر؟!»**

وقبل يوم ذهابنا إلى المحكمة بيومٍ واحد، وفي السادسة صباحًا، اتصل بي زايد، كان صوته مكتومًا، يتحدث بصعوبة بالغة:

«عثرت الشرطة على جثة محامي معروف مشنوقًا في منزله»

ثم أغلق الهاتف.

اتصلت به مرة أخرى، رد وقال:

- **«إياك أن تستسلمي، لن نلتقِ مرة أخرى يا سامية، على الأقل في هذه الفترة، حاولي إيجاد مسكن آخر بأسرع طريقة ممكنة، اذهبي الآن لمبنى النيابة العامة، احتمِ بهم مؤقتًا.»**

ثم أغلق الهاتف.

وكالمجنونة جهزتُ حقيبتي، وفي أقل من عشر دقائق كنت مستعدة للهروب من المنزل، للهروب من الموت؛ لكن فجأة رن جرس الباب!

يوسف! حتمًا جاء ليقتلني! الآن سيُقال «فتاة في مقتبل العشرينات تهرب من التحرش والكبت والضغط ثم تلقى مصيرها في القاهرة فتبحث عن الهروب من القتل والعار»!

فتحتُ الباب؛ خابت توقعاتي، لم يكن يوسف هو القادم، بل هي السيدة التي استقبلتنا في فيلا الساحل..

- **«هل تسمحين لي بالدخول؟»**

لم أرد.

دخلت هي، ثم أغلقت الباب خلفها وجلست على الأريكة.

سألتها وأنا واقفة في مكاني:

- **«ماذا تريدين مني؟»**

بهدوء لا يختلف عن هدوء يوسف:

- **«لا تحسنين استقبال الضيوف يا سامية»**

قلت لها:

- **«وأنتم ماذا تحسنون! الهدم؟ القتل؟ الكذب؟ ألم تكتفوا بعد؟»**

تحركت السيدة في أنحاء المنزل ببرود تام، ثم قالت:

- «اسمعي يا سامية، إنني حقًّا أُقدر محاولاتك من أجل إثبات حقكِ، لكن كل محاولاتك ومهما استمرَّت لن تفي بالغرض؛ يوسف أقوى مما تتخيلين، بإمكانه شراء كل شيء وأي شيء، أنا أُصدقكِ وأعرف ما فعله، إنها ليست المرة الأولى على أي حال، إنه يكره النساء، ويكره كل ما يتعلق بهن.

الآن حماسكِ يقودكِ في مهمتك ضد المهندس، لكن اسمعي عقلك، دعكِ مِن القِيَم الإنسانية التي تؤمنين بها، نحن هنا في أكبر غابات الكوكب، لو كنتُ مكانكِ لفكرتُ جيدًا في الأمر، في الأساس أنتِ لا تملكين مَن يدافع عنكِ، لا أهل، لا أصدقاء، لا تملكين ثروة، حتى تعليمكِ انتهى بفصلكِ من المعهد، وفوق كل هذا مصابة بالإيدز، وحتمًا لا تملكين ثمن علاجكِ، والطفل مصيره الأكيد هو الموت!

تظنين أنه سيتزوجكِ؟ حاملة أنتِ، حتى لو حكمت المحكمة لصالحكِ - وهذا مستحيل- لن تحصدي إلا الإهانة والمزلَّة حتى الموت؛ من الذكاء تجنب المصير الذي لقيه المحامي، حتى زايد لن يستمر في عمله، نحن نعرف كل ما حدث، وقد جئتُ لكِ اليوم لأنصحكِ بتجنب كل هذا، وعيش حياة سالمة، حتى إن حكمت المحكمة ضد يوسف، لديه ثروة ضخمة ونفوذ قوية تجعله يواصل حياته في السجن حياة الملوك، فكري جيدًا يا سامية، فكري في حياتكِ ومستقبلكِ.»

جلستُ على الأرض من فرط التعب، اجتاحتني نوبة بكاء مع شعوري بالعجز، ذلك العجز الذي يجعلك تلجأ ليساعدكَ ألد أعدائك.

- **«ماذا أفعل؟ كيف أتصرف؟»**

اقتربت السيدة مني، وأشعلت سيجارتها، ثم قالت:

- **«لا تذهبي إلى المحكمة، انسي أمر القضية، انسي- كل ما يتعلق بتفاصيلها، ستختفين عن النظر لفترة طويلة، ثم تعودين للعالم بحياةٍ جديدة، ستعودين ونحن متكفّلين بكل احتياجاتكِ طوال حياتك، سنتكفل بمصاريف علاجكِ، ستعيشين في منزلٍ خاص؛ وعن الطفل، فإن كتب له الحياة فلن يعيش معكِ، بالطبع لن ترضي له بالحياة معكِ، أعرف قسوة هذا الطلب لكنه الواقع. فكري في العرض جيدًا، فكري في نفسكِ وحياة طفلكِ قليلًا، وسأتصل بكِ بعد ساعتين من الآن، لكِ حق الاختيار بين الأمان والحياة المؤمَّنة، وبين الحبس أو الذل، وربما الموت! اختاري ما يليق بكِ وأنا في انتظاركِ.»**

خرجت السيدة، خرجت بعدما هددتني بطريقة مباشرة.

الاختيار يا سراج، كيف تضعنا الحياة بين الموت والقهر ثم تطالبنا بالاختيار؟! كيف لم أفكر فيما قد يحدث إن أُثبتت قضيتي ونَسب طفلي أمام المهندس؟!

إنه أخطبوط له أذرع في كل مكان، من الغباء مواجهة الموت، والمهندس كان الموت الأعظم، الهزيمة الحقيقية التي واجهتُها هي ضعفي، هل كنت قوية حقًّا لخوض معركة ضد هذا الرجل؟! كيف وافقت من البداية؟ من أجل شرفي! لقد دُنِّسَ عندما اتهمني أقاربي بالعار، من أجل حريتي؟ وهل حقًّا كنتُ حُرَّة وأنا وحدي أواجه الحياة؟!

ليست الحرية في الأماكن أو في حرية التصرفات والقرارات، لكن الحرية الحقيقية تكمن بداخلك، إن لم تستطع تحطيم قيود اليأس والخوف والوحدة بداخلك، فأنت لست حرًّا، إن لم تتحرر بداخلك فأنت لست حرًّا.

في التاسعة اتصلت بي السيدة، ووافقتُ على التنازل بهذه البساطة.

لم أكن البطلة التي تستطيع الفوز على المهندس، أنا وحيدة، ووحدتي جعلتني أضعف مما أتخيل؛ الوحدة ضعفنا وحزننا ومأساتنا يا سراج، تجعلنا نتشبث بأي شخص حتى لو كان هو دائنا وعلَّتنا.

كم شخص مات بسبب جرعات زائدة من المخدرات فقط لكي لا يشعر بالوحدة؟ كم شخص انتحر لأنه يشعر بالوحدة؟ كم قلب تحطم بسبب تشبثه بأشخاص ظنًّا منه أنَّهم سيملؤون فراغات قلبه؟

ما جمعني بيوسف ليس أكثر من ضعف امرأة حطمت الوحدة قلبها فجعلتها تتشبث بالأفعى.

انتهت فترة الحمل، وخرجت من المستشفى برفقة إحدى الخادمات ليوسف المهندس، وفي الخارج كانت هناك سيارة تنتظرني، سألت الخادمة أين يوسف أو زوجته؟ فقالت أننا في الطريق لهما، ثم انطلقت السيارة وعدنا إلى القرية.

هناك كان المهندس وزوجته في استقبالي في حديقة الفيلا، واستقبلتني السيدة بلطفٍ شديد:

- **«حمدًا لله على سلامتك.»**

كانت نظرات يوسف تهجمية وكأنه يريد قتلي، حتى سألتهم:

- **«أين الطفل؟»**

قال يوسف:

- **«ليس لديكِ أطفال، لقد اتفقنا على كل شيء.»**

رددتُ بعنف:

- **«على الأقل أراه!»**

قالت السيدة:

- **«اهدأي من فضلكِ يا سامية، الطفل في أمان الآن.»**

كنتُ على وشك الانهيار:

- **«من حقي على الأقل أن أراه، هو طفلي، ولقد وافقتكم على طلباتكم، لكنني في النهاية أم، فلا تسلبوا حق رؤيتي فيه»**

بنبرة صوته العالية دائمًا قال:

- **«من الآن غرفة الفندق ملك لكِ كما وعدناكِ، وهذا عقد تمليك لشقة في المعادي، أظن أن أقصى أحلامكِ كانت غرفة حقيرة هناك، كذلك ومن الآن سنقدم لكِ كل العقاقير المطلوبة للتعافي من مرضكِ الأبدي، كذلك ومع نهاية كل شهر سيكون لكِ مرتب شهري تصرفين منه طوال حياتك، وستبقين هنا فترة، وستبقى بجواركِ "خديجة" التي ستساعدكِ في كل شيء، والآن لننهي هذا الاتفاق؛ لا تحاولي مزج اسمي في أي شيء، لا تحاولي الاتصال بي أو الوصول إليّ، لقد عقدنا اتفاقًا وها قد حققت اتفاقي؛ الطفل في أمان، وسيبقى دائمًا في أمان ما دام بعيدًا عن أمٍ مريضة عاهرة.»**

نهض يوسف من مكانه، ثم اتجه إلى البوابة.

تنهدتُ، ولم أستطع السيطرة، وانهرتُ باكية:

- **«لكنني أريد رؤيته يا سيدتي، إنه طفلي الأول والوحيد، أنتِ تفهمين وستشعرين بمعاناتي، لقد تنازلتُ عن كل شيء في سبيل حياة رائعة له، لكن ليس بتلك القسوة يا سيدتي»**

ردتْ:

- **«اسمعيني جيدًا يا سوما؛ لتحيي في هذه الدنيا لا بد أن تفقدي جزءًا كبيرًا منكِ، هذا القانون السائد هنا، صحيح أنّ ثمة أشياء نفتقدها ونحن نعلم كل العلم أننا لن نعوضها، لكن مجرد التفكير فيها يعطل ما تبقى لنا من الحياة، لذلك نحن مجبرون على تقبل الفقدان مهما كان قاسيًا؛ أنا لا ألومكِ ولا أمنعكِ من الحزن، لكنني أحاول أن أفهمكِ أن الحياة بهذه القسوة، وربما أصعب وأشد، لقد قررتْ الحياة إعطائكِ الحرية، أو جزءًا كبيرًا منها، لكنها قررت أن تسلب جزءًا منكِ، قررت أن تسلب حقكِ في الأمومة وحق رؤية طفلك، هذا قاسي ومُرّ، لكنه أصبح فرضًا يجب علينا الإيمان والرضا به، لأن التمرد ربما سيتسبب في أذى كبير للجزء البعيد عنكِ؛ تقبَّلي وارضخي للأمر يا سامية، فمهما كانت محاولاتكِ للخروج عن القانون لن تفي بالغرض، اقبلي بما قسمه الله لكِ، لربما لو كان شخص غير يوسف لما قدم لكِ كل هذه الامتيازات.»**

كدتُ أسقط من شدة السخرية؛ لقد طلبتْ مني أن أرضخ وأوافق وأرضى على كل تلك الامتيازات التي هي ومن الأساس أقل حتى من حقوقي الإنسانية!

هل تعرف يا سراج! لقد وافقتُ، نعم، وافقت وقتها لأنني كنت أخشى أن يصيب ابني أذى، لقد وافقتُ لأنني لم أُرِد السوء للجزء البعيد عني، وافقتُ لأنني المسؤولة عن كل ما حدث، وافقتُ لأنه لولا شعوري بالوحدة لما حدث كل هذا.

وهكذا استمرت الحياة، جزء بسيط مني فقط يحيا، والجزء الأكبر لا أعرف عنه شيئًا سوى أنه حيٌّ يُرزق.

واصلت سوما:

ـ وجدتني حبيسة الفيلّا ثلاثة أشهر، أتابع التلفزيون حتى عرفتُ أن زايد تم نقله للصعيد، كان هذا أخف عقاب له، بالتأكيد يظن هذا المسكين أنني تخليتُ عنه، بالتأكيد لا يعرف أنني أنقذتُ حياته، أنقذتُ عائلته.

صمت ساد الإعلام بعد عدم حضوري، إنّ آفة بلدتنا النسيان، فسرعان ما خرجتْ القضية من أذهان الناس، خرجت من الكواليس، من الباب الخلفي.

وبعد تلك الفترة بدأتُ الالتزام بالعقاقير اليومية حتى وقتنا هذا، والطفل لا أعرف مصيره منذ يوم ولادته، الوحدة واليأس حين يجتمعان بشخصٍ يجعلون منه شخصًا منطويًا حتى من ظله.

عشتُ حياتي في هدوءٍ تام، آكل وأشرب وأنام وألعب الموسيقى، حياة في الخفاء، لم أقابل يوسف بعد الحادث، حتى السيدة لم ألتقِ بها إلا مرة واحدة، وكانت برفقتها طفلة صغيرة تبدو في الخامسة من عمرها، بصراحة كانت هذه السيدة لطيفة معي، أتذكر يوم لقائي الأخير بها قالت:

- **«أنتِ خسرتِ حريتكِ وكيانكِ، أما عني فلقد خسرتُ شعور كوني امرأة.»**

كنتُ أشعر أن هذه السيدة مغلوبة على أمرها في كل شيء، تمنيتُ أن أقترب منها، لكنها كانت مجرد أمنية مثل كل الأمنيات التي انزلقت مني، ولم يحاول زايد التواصل معي، ولم أتواصل معه، كل شيء انتهى ببرودٍ واستسلام، لا دافع لبناء علاقات، ولا دافع لأيّ محاولة، حياة تعيسة، لا أكثر من الموسيقى والحفلات والسهر، حتى الجنس يبقى خارجي، أتوهم أسبابًا ما لأتجنب علاقة كاملة كي لا أؤذي أحدًا، حياة بلا معنى يا سراج.

انتهت سوما من سرد القصة، فلاحظتُ سقوط دمعةٍ دخيلة من عينيها، لكنها جففتْ مدامعها سريعًا ثم سألتني:

ـ والآن ماذا تريد أكثر من هذا يا سقراط ؟!

طلبتُ منها العودة إلى القاهرة، ولم تتردد، وافقتْ في حالة صمت غريب منها على غير عادتها.

في الطريق للقاهرة كانت صامتة، حتى واصلت وكأنها تتحدث إلى نفسها:

ـ يقولون أن النساء لا ينجحن إلا بعد انكسارٍ عظيم، أنا التعيسة الوحيدة التي تحطمت وتألمت ولم أنجح، أعني أنني لم أستطع النهوض، لم أتحطم بل تَهَشَّمَ قلبي، وهذا ما لم يدركه أحد؛ هزيمتي لم تكن في علاقات أو مواقف أليمة، بل كانت هزيمتي الحقيقية أنني راهنتُ على نفسي- وخسرت الرهان، أنا التي كنت أحب الحياة وأتشوق لها كيف أصبحت أراها بتلك السخافة والتعاسة؟! أنا التي لا تحب البكاء وتخاف الجلوس في الظلام، كيف أصبحت لا أهوى سوى الظلام والعزلة؟!

الوحدة مزعجة، ومشكلتي لم تكن في شعوري بالفراغ العاطفي، بل كانت في شعوري بالفراغ الداخلي، مجوفة أنا بالعدم، أخشى- أن أموت وحدي، أن يتعفن جسدي ويتحلل دون أن يعرف أحد.

هل تعرف يا سراج! أنا لا أحب الحشيش، لكنني أحب الشعور الذي يشعرني به، إنه يشعرني بالونس، بالحياة، يجعلني أصاحب نفسي- وأتحدث معها، أتوهم وجود أشخاص وأتحدث إليهم، أستقطب أهلي الذين تبرؤا مني، ابني الذي لا أعرف عنه شيئًا، وأعاتبهم ثم نتصافى فنعود من جديد للضحك واللعب والمودة، أحب شعور أنني لست وحدي، لأنني دائمًا وحدي يا سراج.

لا تستهين بالوحدة يا صديقي، ففي إحدى رسائل الانتحار كتبت سيدة عجوز «اليوم لم يأتِ أحد لزيارتي»، وأنا دائمًا مهجورة، وحدي أواجه الحياة، أحاول أن لا أشعر بالوحدة عن طريق الموسيقى، عن طريق السهر والمخدرات، أحاول تجنب شعور الوحدة والمرض طوال اليوم، لكن وما إن

أجلس مع نفسي دقيقة واحدة حتى تظهر أمامي مرارة وحدتي الداخلية وتعاستي.

لم أنتحر لأنني أأمل في لحظة صادقة ربما أكون لست وحدي فيها، أفكر مرارًا في الانتحار، لكنني لن أحب أن أكون وحدي في الجحيم أيضًا، بهذه الفلسفة السطحية أفكر، وبهذه الفلسفة السطحية أحيا، وما بين هذا وذاك أفكر في الانتحار ألف مرة كل يوم، ولأنني خسرت نفسي فلن تتعجب إن سمعت يومًا بأنني قد اتخذتُ هذه الخطوة، حتى في أشد اللحظات التي سيظن الجميع أنني لست وحدي، سأبقى دائمًا وحدي.

ابتسمت سوما ثم أكملتْ:

ـ أكرهك يا سراج، لأنك تجعلني دائمًا في مواجهة نفسي.

لم أرد عليها، فثَمّة كلمات حزينة ينبغي أن نداويها بالعناق، العناق فقط.

الوحدة مؤذية، شعور أنك وحدك تواجه متاعب الحياة أقسى من متاعب الحياة نفسها؛ نحن لا ترضينا الوحدة، لكننا نخاف أن تمتلئ قلوبنا بأشخاصٍ نعتاد وجودهم، ثم يرحلون عنا فنعيش في وحدة أشد قسوة مما سبق.

أن تكون وحدك يعني أنك ملك نفسك، يعني أنك الخاسر والفائز الوحيد، إن تعبت فأنت طبيب نفسك، وإن تألمت فأنت من تداوي آلامك مهما كانت عمقها، إن تعثرت فأنت اليد التي تنهض بك حتى إن كانت مبتورة، أنت مسؤول عن إسعاد نفسك، عن مداواتها وإرضائها، أنت يأسك وحزنك وانتصارك؛ أن تكون وحدك يعني أن تلاحظ بنفسك تغير

ملامحك وتحديد نبرة صوتك الحزينة ومعرفة أسباب ضيقك المفاجئ، والبحث عن كل الطرق للخروج من مأزقك وتعاستك؛ أن تكون وحدك يعني أنك الخصم والحليف لذاتك، أنت أقرب أصدقائك وألدّ أعدائك، أنت موسيقاكَ الجميلة وبطل روايتك الوحيد، أنت وحدك أمام العالم، لأن القدر قرر لك أن تكون وحدك.

وصلنا إلى القاهرة؛ وعدتُ خالي الوفاض، لم أستطع تحديد إن كانت هي صاحبة الرسالة أم لا، لكن الأكيد أن بإمكان سوما أن تتخلص من حياتها في أي وقت، لأنها تشعر بالوحدة، بالوحدة فقط.

الفصل الثاني

«لا يستطيع الرجل أن يفعل أي شيء بسهولة وهو يحتضر»

بنجامين فرانكلين

قبل رحيله.

عدنا إلى القاهرة..

كان صديقنا «دهب» هو أول من خطر على بالي؛ دهب اسمه الحقيقي غالبًا، أو بمعنى أصح لا أحد يهتم بذلك، ظهر فجأة في عالمنا، شاب في منتصف العشرينات، ذو بشرة سمراء وشعر مُهمَل، لكنه يعطي مظهرًا جذابًا، جسده نحيل جدًا، ودائمًا تجد على ملامحه علامات الغضب والحزن، هو ذاك الذي لا تعرف انتماءه السياسي أو الديني، لا تراه يتعصب لرأي أو قضية ما، بارع جدًا في صنع أشياء ناقصة، هو الرسام الذي يكره رائحة الألوان، الملحن الأصم، المصمم المصاب بعمى الألوان، والكاتب الذي لا يحب قُرَّائه.

جلستُ أفكر في حياة هذا الشاب، ربما هو الأجرأ ليعانق الموت، رغم أن في ليلة السهر الأخيرة كان عاديًّا جدًّا، كعادته يشرب ويلعب، حتى في سُكرِه لا يتحدث إلا بالقليل جدًا عن حياته.

كان السؤال الأهم في هذه اللحظة: كيف ألتقي به؟

لا رقم هاتف له، حتى حساباته الشخصية على مواقع التواصل الاجتماعي مغلقة، ليس لديه أصدقاء، فنحن حتى لا نلتقي به إلا صدفة!

اتصلتُ بـ "سوما" من جديد؛ فضحكتْ قائلة:

ـ قُل أنك تفتقدني!

قلت:

ـ لقد تركتكِ قبل ساعة! بالطبع لا؛ هل تعرفين أين أجد دهب؟

قالت:

ـ لا، لكن يقام مهرجان الطبول[9] الآن في شارع المُعِزّ[10]، ربما ستجده هناك، ولأنك لم تفتقدني سأغلق الهاتف في وجهك، إلى اللقاء.

مهرجان الطبول!

كانت الساعة تشير إلى الواحدة ظهرًا، نهضتُ من جديد ثم اتجهت إلى شارع "المعز لدين الله الفاطمي".

هنا مزج ما بين الحضارة والحداثة، الحاضر والماضي، لطالما انتابني شعور بالدفء والرهبة من هذه المباني، أتخيل ماذا كان يحدث هنا قبل مائتي عام على الأقل! في أيّ شيء كانوا يفكرون؟!

واصلتُ السير وسط الحشود محاولًا البحث عن دهب؛ فهو مميز للحد الذي يجعلك تستطيع معرفته وسط الحشود، هو ذاك الذي تجده في وسط الزحام يمشي وحده.

---

[9] مهرجان الطبول: مهرجان للفنون التراثية والطبول يقام بمصر في كل عام، ويشارك به العديد من الفرق الفنية التي تمثل ثقافات شعوب العالم، ويحتشد له الآلاف من محبي الفنون والموسيقى.

[10] شارع المُعِزّ: أو "الشارع الأعظم" أو "القصبة الكبرى"، هو شارع يمثل قلب القاهرة القديمة، والذي تم تطويره ليكون متحفًا مفتوحًا للعمارة والآثار الإسلامية، وتعود تسميته إلى الخليفة الفاطمي المُعز لدين الله وهو "أبو تميم معد بن المنصور إسماعيل بن القائم بأمر الله محمد بن المهدي عبد الله الفاطمي المغربي"، الذي ولد سنة ٣١٩هـ، وتنسب إليه القاهرة المُعزّية، وكان أول خليفة يدخل مصر بعد فتحها سنة ٣٥٨هـ.

واصلتُ البحث عنه حتى وجدته يراقب المهرجان من بعيد، فاقتربت منه، ووقفت بجواره لمدة طويلة، ولم يلاحظ وجودي إلا بعد أن رَبَّتُّ على كتفه:

ـ هل يعجبك؟

نظر إليَّ، ثم واصل متابعة المهرجان وكأنه لم يتفاجأ بوجودي:

ـ ليس سيِّئًا.

واصلنا المشي خلف الاحتفال، أشعل سيجارته:

ـ لم أكن أعرف أنك مهتم بمثل هذه المهرجانات.

قلت:

ـ لا، لستُ مهتمًّا.

دهب من أولئك الذين لا يحبون الإجابات الطويلة، لهذا تعمدتُ الإجابات المختصرة.

ساد صمت طويل، لا يكسره إلا أصوات الطبول والباعة الجائلين في الشارع، وضحكات السائحات مع أصوات أمناء الشرطة المتفرقة للسيطرة على الوضع، ساعتين دون أن ننطق كلمة واحدة، حتى سألته:

ـ دهب، هل لديك أيّ ارتباطات اليوم؟

كنا قد ابتعدنا قليلًا عن المهرجان، قال:

ـ لا، لكن لن آتي هذه الليلة.

سألته:

ـ لماذا؟

قال:

ـ سأكون على ما يرام وحدي.

مثل تلك الإجابات تزعجني، لكن الأمر كان يستحق تحمل بعض الأشياء المزعجة.

اتجهنا لأحد مقاهي شارع الحُسين[11]، قهوة دهب منزوعة السكر، ويديه لا تخلُ من السجائر، كنت أفكر في طريقة تجذبه للذهاب معي، فمن جديد بدأت:

ـ لو طلبت مساعدة منك هل ستبخل عليَّ؟

دون اهتمام قال:

ـ لو باستطاعتي لن أتأخر عنك.

قلت:

ـ الأمر بسيط، لديَّ مشروع تخرّج، وأحتاج لحالة ما أقيم عليها المشروع، أيًّا كان المرض النفسي الذي تعاني منه الحالة، هل تعرف شخصًا ما مستعد للقيام بتلك المهمة؟!

صمته الطويل أشعرني بأنني أخطأتُ اختيار الكذبة المناسبة، واكتمل شعوري عندما قال:

ـ لا، لا أعرف، آسف لن أستطيع مساعدتك.

[11] حي الحُسين: أحد أحياء القاهرة القديمة، ويوجد به العديد من المعالم الأثرية الإسلامية القديمة والفاطمية بصورة كبيرة، ومنها "مسجد الحُسين"؛ تم إنشاء هذا الحي مع بناء مسجد الحُسين في عهد الفاطميين سمة ١١٥٤م، وسمي المسجد بهذه الاسم نظرًا لاعتقاد البعض بوجود رأس الإمام "الحُسين بن عليّ" مدفونًا به؛ ومن أشهر معالم هذا الحي "مقهى الفيشاوي".

ثم استأذنَ ورحل.

بخيبة أملٍ كبيرة عدت إلى المنزل، كان الوقت يمر وأشعر أنني بطريقة أو بأخرى إن حدث الحادث المذكور في الرسالة سأكون شريكًا فيه، يكفي أنني كنت أعرف أن هناك حادث ما ولم أتحرك.

سوما ورغم كل ما قالته لم تبعد الشكوك حولها، فعلى طاولة القمار كانت تجلس سوما ودهب، وفريدة، وهاجر فقط!

مر الوقت وأنا أفكر في مصير صاحب تلك الرسالة، الوضع أشبه بأن تكون وجدت دليل براءة شخص لا تعرف عنه أكثر من أنه سيعدم قريبًا..

ما إن غفوت حتى طُرِقَ الباب، كانت «يوستانيا» صاحبة العقار، عجوز في السبعين من العمر، ذات أصول إيطالية، قضت حياتها في مصر- مع زوجها "خالد الأرندلي" حتى تُوفِّيَ قبل عشرة أعوام، امرأة أقل ما يقال عنها أنها جميلة، الشعر الرمادي القصير والعيون الزرقاء مع ندرة الملامح التي تدفعك للتأمل بوجهها بلا سبب، كانت أشبه بلوحة عتيقة محتفظة بأدق أدق تفاصيل جمالها، كلوحات "بيكاسو"[١٢] مثلًا.

ـ أهلًا سيدتي!

ـ أردتُ الاطمئنان عليك يا صغيري.

سمحت لها بالدخول:

ـ أنا بخير، كيف حالك أنتِ؟

[١٢] بيكاسو: "بابلو بيكاسو"، رسام ونحات وفنان تشكيلي إسباني، واحد من أشهر الفنانين في القرن العشرين، وينسب إليه الفضل في تأسيس الحركة التكعيبية في الفن، وُلد في ٢٥ أكتوبر ١٨٨١ بمالقة- إسبانيا، وتوفي في ٨ أبريل ١٩٧٣ بموجان- فرنسا إثر نوبة قلبية.

جلست على الطاولة:

ـ لا أظن ذلك، كيف حال مريم؟

ضحكت:

ـ ذاكرتكِ ضعيفة يا جميلتي، لقد أخبرتكِ أن علاقتنا قد انتهت قبل أن تبدأ.

بسخرية قالت:

ـ لا تقلق، أتذكر جيدًا ما قلته، لكن كيف حالها في قلبك؟

ـ لم أعد أطمئن عليها فيه، وهذا متعب لو تعرفين.

قالت:

ـ نعم، الأمر مُتعب جدًا، لكن ما من حل، هذا الواقع، ويجب علينا ابتلاعه حتى لو لم يكن يعجبنا. على أي حال أشعر أن شحوب ملامحك هذه الأيام ليس بسبب ذلك، أريد الاطمئنان عليك!

أحب التحدث مع يوستانيا، أشعر وكأنها أمي رغم أن علاقتي بها لم تتجاوز عامًا واحدًا؛ كنت في حيرة، هل أخبرها بما حدث وأشاركها المأزق والحيرة، أم ألتزم الصمت وحدي في هذه الدوامة؟!

شعرت هي بالحيرة التي أعاني منها، فأمسكت يدي ثم قالت:

ـ أنا معك، لا تقلق، ماذا حدث؟

أخبرتها بما حدث، بظنوني وشكوكي تجاه البعض، وكانت هادئة جدًا تنصت بتركيز تام، لم تعطِ أي انطباعات، سألتني عن حياة الذين أشك في قدرتهم على اتخاذ هذه الخطوة، ولم أخبرها إلا عن حياة سوما، وهي لم

تستبعد سوما من الدائرة، لكنها اتفقت معي على أن أخبرها بكل ما أعرفه عن حياة الجميع، وطمأنتْ قلبي بكلماتها، وقبل أن تستأذن قالت:

ـ المهم أن لا تشعر بالذنب إن لم تستطع إنقاذ صاحب الرسالة.

وخرجت بعدما نجحت في إبرام اتفاق يخفف عني ولو القليل جدًا من التفكير.

بعد خروجها بساعة طُرِقَ الباب مرة أخرى..

ـ دهب! كنت متأكد أنك لن تبخل بمساعدتي.

دخل دهب الغرفة وهو يحمل بعض الكتب وزجاجات النبيذ.

ـ لديَّ بعض الشروط لمساعدتك!

دون تردد قلت:

ـ موافق.

قال وهو يداعب بأنامله قطعة كبيرة من الحشيش:

ـ لا تذكر اسمي في بحثك، ابتكر اسمًا مزيفًا.

قلت:

ـ موافق.

قال:

ـ لا تتسرع، هذا الشرط الأول فقط، الشرط الثاني أن أعيش معك حتى نهاية البحث، والشرط الثالث ليس لدي ما يكفي من المال، لذلك أنت متكفل باحتياجاتي طوال فترة إقامتي معك، والشرط الأخير لا تخبر أحدًا بوجودي هنا.

هززت رأسي بالموافقة.

«الشيخ دهب»

كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة مساءً، ظل دهب يلف الحشيش وهو يتابع فيلمًا أجنبيًّا على التلفاز، كان الوقت يمر ببطء وأنا في حيرة، كيف أبدأ مع شخص لا أستطيع السيطرة عليه؟!

كان دهب يتابع الفيلم بشغف، حتى لحظةٍ وضع قطعة ثلج مع مشروب الفودكا وأشعل لفافة الحشيش، وقال وهو مندمج في مشاهدة الفيلم:

ـ ليت حياتنا مثل هذه الأفلام، نعرف موعد بدايتها، ونعيش لحظاتها ونحن نعرف أن النهاية ستكون رائعة، هكذا كنت أظن، أن الحياة ومهما طالت ستسير على هذا النهج يا سراج.

ولدتُ في منزل لا يعرف إلا الروتين، أب يعمل طوال الوقت من أجل كسب المال وتوفير أبسط احتياجات الحياة اليومية، وأم لا تتناقش إلا عن المسلسلات ومصروف المنزل، وأنا وحدي؛ ولدتُ وحيدًا بلا أخ أو أخت، كان شعور الغربة يلازمني منذ الطفولة، أصدقائي ما هم إلا شخصيات خيالية، ما هم إلا أبطال الأفلام الكرتونية «كونان، بطوط، سابق ولاحق، سلام دانك، وكابتن ماجد»، أذهب إلى المدرسة وحدي، فأصنع صديقًا خياليًّا يؤانس وحدتي، أجلس في الفصل وحدي فأرسم وأكتب عبارات وكأنني لست وحدي، وبلا سبب كنت منبوذًا من الجميع لأنني لا أملك أصدقاء، ولم تكن أمي اجتماعية، فلم تكن لديها صديقات أستطيع التعرف على أولادهن، ولم يرشدني أحد إلى الطريق الصحيح.

أردتُ أن لا أكون وحدي مهما حدث؛ في الثانية عشر من عمري وذات يوم، التقيت بصديقٍ يدعى «أمجد»، كان طفلًا هادئًا، يشبهني كثيرًا، دعاني ليومٍ ترفيهي، لم أفهم بالضبط تفاصيل اليوم، لكني كنت في أمَسِّ الحاجة لخلق أسرة جديدة تشعرني بالدفء والمودة، احتجتُ فقط أن لا أكون وحدي، فقضيت معه يومًا رائعًا؛ لكنني لم أفهم سر هؤلاء الأشخاص الذين كنا معهم، كانوا شبابًا ورجالًا يكبرونني في العمر، بزيهم الإسلامي وطريقتهم السلسلة في الحديث عن الله، قالوا أنهم مجموعة من رجال الدعوة تدعى «أشبال الإسلام»، فذهبت إلى أمي وأخبرتها عن أصدقائي الجُدد ولم تهتم كثيرًا.

بعد ذلك تفاجأتُ بتغيّر يحدث تدريجيًا في حياتي، لم أعد وحدي، كنت أُنهي اليوم الدراسي ثم أذهب معهم إلى المسجد، نتحدث عن الدعوة إلى الله، ثم نلتقي في نهاية الأسبوع لقضاء اليوم الترفيهي.

وذات يوم كنا في اليوم الترفيهي، وبعيدًا عن عيون القادة جلست مع الأشبال، ثم بدأت بتمثيل لهم مشهدًا من أحد الأفلام التي أتابعها، كنت أحب الغناء، وأحب مزج الأغاني بطريقة رائعة، والتمثيل مع تقليد الأشخاص، فجأة سمع صوتي أحد القادة، فهلع إليَّ في غضب:

- **«ماذا تفعلون؟»**

لم يجب أحد، فقررت أنا مناقشته:

- **«أغني، إنها مقطوعة رائعة لـ رشا رزق[١٣].»**

[١٣] رشا رزق: مُغنيَّة سورية، وعملت بالتأليف والدبلجة، ولدت بدمشق في ٥ مارس ١٩٧٦، وهي أستاذة غناء أوبرالي في المعهد العالي للموسيقى بدمشق، بدأت بدراسة

باستهجان أمر رفقائي بالانصراف، ثم سألني عما يدور في منزلنا، وأشاد بروعة صوتي وسلاسة أدائي، وكانت تلك المرة الأولى التي يشيد فيها أحد بما أستطيع فعله، ثم رَبَّتَ القائد على كتفي وهو يقول:

- **«أنت مكسب رائع لنا.»**

لم أفهم ماذا يقصد، لكنني ضحكتُ بسذاجة، بل كدت أطير من السعادة.

وبعد هذا اللقاء اقترب الجميع مني، كانوا يحاولون الاقتراب أكثر بعدما أصبحت قائدًا للأشبال في وقت قصير جدًا، أصبح لديَّ عالم جديد.

لم تسألني أمي يومًا عن أسباب تأخري في العودة إلى المنزل، كانت لا تهتم كثيرًا لأمري، وعن أبي فذاك كان أشبه بالغريب، الغريب جدًا عني.

مر عام وأكثر حتى شعرت بتغيير يحدث في عقلي، أصبحتْ مشاهدة التلفاز أمر لا يصح، متابعة الأفلام أمر لا يصح، رمضان لا يعني إلا العبادة، أصبحت أفكر بعقلياتهم، أسخر مما أدرسه في المدرسة، ملابس أمي لا تناسب الزي الإسلامي، أبي لا يطلق لحيته وهذا يعتبر كُفر وانحلال.

وذات يوم جلست مع القادة، لم أفهم سر دعوتي لهذا الاجتماع، لكن اتضح أنهم يحاولون تجهيز مجموعة جديدة من الأشبال من أجل نشر الدعوة، بات الأمر غريبًا جدًا، كان القادة يشيدون بقدرتي على الإقناع والقيادة.

حتى سألني أحدهم:

- **«هل تحب الله؟»**

الموسيقى العربية في عمر التاسعة، وشاركت بالعديد من الفرق الموسيقية حتى شكلت فرقتها الحالية "إطار شمع".

- **«نعم أحب الله كثيرًا.»**

بدأ يشرح أنه يحتاج مني نشر الدعوة، الحديث الدائم عن الله وعن الجهاد، ولم أفهم أكثر من أنني سأذهب معه في رحلة خلال شهر رمضان الكريم، سأعرف أسباب هذه الرحلة فيما بعد، بشرط ألَّا أُخبر أحدًا.

ترددتُ ثم قلت:

- **«ماذا سأقول لأبي؟»**

قال:

- **«أخبره أنك قررتَ الاعتكاف في المسجد طوال شهر رمضان.»**

سألته:

- **«ألا يعتبر هذا كذب يا شيخ؟»**

ضحك أحدهم بعد أن أعطاني تمرة:

- **«كذب من أجل الله.»**

خرجنا من المسجد وأنا متحمس جدًا للفكرة.

وفي الطريق التقيتُ بأبي، ما إن رأوه من بعيد يناديني حتى توتر بعضهم، لم أفهم سر هذا التوتر، لكنهم ودعوني على عجل، وقبل أن يرحلوا همس القائد في أذني:

- **«لم تخبرني أن والدك ضابط بأمن الدولة، انسى اتفاقنا، وداعًا.»**

وفجأة وجدتني وحدي، نظرات أبي فقط هي من تقترب، أما عنهم فقد هربوا كالفئران.

ركبت السيارة مع أبي واتجهنا إلى المنزل، وفي الطريق لم نتحدث، كنت مشغولًا بما حدث، ففي لحظة اختفوا من أمامي وأُلغي اتفاقنا.

كان أبي يدندن مع الأغنية في الراديو، ودون أن أعتذر أغلقت الراديو، شعرت وقتها بلذة الانتصار، ولم يرد أبي، بل كان هادئًا جدًا.

ما إن دخلنا المنزل حتى طلب من أمي فنجان قهوة في مكتبه، ولاحظتْ أمي أن ملامح أبي غريبة، فسألتني عما حدث، فأخبرتها أنني التقيتُ به صدفة وأنا مع أصدقائي وهذا كل شيء.

بعد ساعة طلبني أبي:

- **«دهب، لماذا ترتدي تلك الملابس الغريبة؟»**

- **«كنت قد حفظت للتو حديثًا (يَأْتِي عَلَى النَّاسِ زَمَانٌ الْقَابِضُ عَلَى دِينِهِ كَالْقَابِض عَلَى الْجَمْرِ)[١٤].»**

قال:

- **«أفهم ما تقصد، لكن ألا ترى أن عمرك أصغر من ارتداء تلك الملابس؟!»**

قلت بثقة:

- **«ومنذ متى وأنت تهتم يا أبي؟!»**

تنهد أبي:

- **«يا بني أنا أعمل جاهدًا من أجل توفير احتياجاتكم، لا أقول أن هذا هو الطريق الصحيح، لكن الحياة أصعب مما تتخيل، أنت لا تفهم طبيعة عملي.»**

---

[١٤] حديث نبوي.

قلت له:

- **«ضابط بأمن الدولة، أليس كذلك؟»**

بدَتْ علامات الغضب تسكن ملامح أبي:

- **«أظن أنك لا تعرف أكثر من أنني ضابط فقط، مَن أخبركَ بعملي في أمن الدولة؟!»**

عندما يغضب أبي تتحول الحياة إلى جحيم، فلم أستطع الكذب عليه، كانت نظراته وحدها ترعبني:

- **«القائد أخبرني عندما رآك.»**
- **«القائد! أي قائد؟!»**
- **«أبي، أنا في مجموعة "أشبال الدعوة" منذ قرابة عامين»**

كان أبي على وشك الانفجار:

- **«عامين! وما الذي تفعله تلك المجموعة؟»**

بتوتر شديد وأنا لا أفهم سر غضبه:

- **«نشاطات رياضية، ثقافية، والدعوة لدين الله، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»**
- **«منكر! كم عمرك أنت لتتحدث عن المعروف والمنكر؟!»**

لطالما كان أبي يستخف دائمًا بعقليتي، يحاول دائمًا محو شخصيتي وأفكاري، لكن الوضع وقتها كان يختلف، فخلال العامين شعرتُ بما لم أشعر به في منزلنا، أصبحت قائدًا لأشبال المجموعة، أنا مَن يُقرر ويُعطي الأوامر، صحيح أنني كنت أُوَجِّه مَن هُم أصغر مني في العمر، لكنني كنت قائدًا؛ فاعتبرتُ كلمات أبي إهانة قاسية، ورددتُ:

- **«وأنت ماذا تعرف عن دينك؟»**

وقف أبي، واقترب مني قائلًا:

- **«تأدَّب يا ولد!»**

صرختُ:

- **«لا يا أبي، أنت لا تعرف شيئًا عن دينك، لا تعرف شيئًا، طبيعة عملك! التعذيب! القتل! الظلم! ملابسك! طريقتك! السجائر التي تدخنها! التلفاز! الأغاني! حتى أمي متبرجة! منزلنا ما هو إلا وَكر للإثم والفجور بقيادتك.»**

فجأة انهال عليَّ أبي بالضرب المُبرح، لم أكُن أسمع إلا صرخات أمي، كان أبي يضربني بلا رحمة، حتى ظننتُ وقتها أنها لحظاتي الأخيرة في الحياة.

استيقظتُ بعد يومين، كان جسدي أشبَه بقطعة لهب متوهجة، وما إن ناديت أمي حتى دخل أبي، كان في يدية الكثير من الصور، فقلتُ في خوف:

- **«أين أمي؟»**

- **«أمك المتبرجة! دعك منها، سأعطيك بعض الصور لتتعرف على أصحابها، وإن كذبتَ أُقسم أنك لن تخرج من هذه الغرفة طوال حياتك؛ هل تعرف هذا الرجل؟»**

بدأ بعرض بعض الصور؛ كنت أعرفهم جميعًا، كانوا أصدقاء القائد، لطالما رأيتهم معه، وهذا الرجل الذي قال أنها «كذبة من أجل الله»!

تبددتْ ملامحي وحاولتُ الإنكار، لكن هددني أبي من جديد بقطع كل ما له علاقة بالعالم الخارجي عني، لم أتحمل الضغط فقلت أنني أعرفهم جميعًا، فأمسك أبي وجهي بعنف قائلًا:

- **«هؤلاء الذين يعرفون الدين الذي تحدثني عنه؟! هؤلاء هم المسؤولون عن الحوادث الإرهابية الأخيرة، طبعًا لا تعرف معنى الإرهاب، طبعًا لا تعرف معنى أن يقتحموا نقطة تفتيش على الطريق وينهالوا عليها بالرصاص أمام عساكر مسلحون بأسلحة بدائية، لا تعرف معنى أن يضعوا قنابل في سيارات مواطنين عُزَّل، أولئك لم يتحدثوا معك إلا عن قتل وتعذيب وتصفية الأبرياء حسب معتقداتهم.»**

ضربني أبي من جديد، لكن تلك المرة كان يضربني وهو يبكي:

- **«لم يخبروك بأنهم قتلوا عمك قبل سِتة أعوام! لم يخبروك بجرائمهم الشنيعة! تفجير القطارات! الكمائن! قتل المواطنين في أشغالهم!»**

خرج أبي بعد ما أمر أمي بعدم خروجي من الغرفة لعدة أيام، كدتُ أُجَن من الحبس الملعون، لا أحد منهم يتحدث معي، أسمعهم يتشاجران ويلقيان العتاب على بعضهما بعضًا، ثم ينتهي الشجار، وهكذا..

وذات يوم دخلت أمي الغرفة، للمرة الأولى، كنت أراها في غاية الحزن..

- **«أريد الخروج يا أمي، أتوسَّل إليكِ لقد تعبت، أُقسم لكِ لن أتحدث معهم مرة أخرى.»**

كانت أمي ثابتة جدًا، فدفعتني بعيدًا عنها وقالت:

- «لنتحدث أولًا يا دهب! اسمع يا بني، نحن لسنا ملتزمين بشكل كافٍ، ملابسنا لا علاقة لها بالزي الإسلامي، نسمع الأغاني ونشاهد التلفاز، تلهينا الأمور الدنيوية أحيانًا عن أمورنا الدينية، لا نقضي وقتًا طويلًا في المساجد، وقد نغفل أحيانًا عن أداء الصلاة على أوقاتها، وأحيانًا لا نتحمل معاناة الصيام؛ لكننا لم نؤذِ أحدًا، نحن لا نؤذِ إلا أنفسنا، قد يتغاضى الله ويغفر لنا خطايانا برحمته، لكن لن يغفر لنا الأذى إن كنا تسببنا في قتلٍ أو تعذيبٍ أو حزنٍ لإنسانٍ آخر، ونحن يا بني لم نؤذِ أي شخص، كما أننا لسنا موكلين للدفاع عن الله، الله أسمى وأصدق من أن نقتل شخصًا لأجله، الله لا يكمن في شعائر الجهاد التي تتمثل في التفجيرات، وفي قتل العُزَّل والأبرياء، الله يدعوننا للبِرِّ وللسلام والمودة، حتى النصيحة يا ولدي لا تُقَدَّم بالقسوة، ولا تُقَدَّم في العَلَن.

أَلَدُّ أعداء الأنبياء لم يأمر الله بقتلهم، بل أمر أنبياءه بالنصيحة والنصيحة والنصيحة، كان بإمكان الله أن يجعل من أنبيائه شخصيات خارقة تفرض كلمته بالقوة والحرب، لكنه أمرهم بالود والمعاملة الليِّنَة.

نحن لسنا ملتزمون، لكننا نحب الله، نحب السلام والمودة والرحمة.»

قلت:

- «يا أمي نحن بعاد كل البعد عن الدين!»

ربتتْ على كتفي:

- «**يا حبيبي حتى وإن كنا كذلك، هل يجب علينا الذهاب لمن يحللون دماء غيرهم؟ لمن أباحوا القتل تحت حجة الجهاد والقصاص؟ لمن انقضُّوا على الأبرياء بحجة الانتقام؟ هل خالق هذا الكون ينتظر من يدمر كنيسة أو معبد من أجل أن يحتشدوا في المساجد ويعلنوا إسلامهم؟**

كن مسلمًا، لكن لا تكن متشددًا، تحدث عن الله باللين والرحمة، لا بالبندقية واللعنات، اعرف الله بقلبك قبل عقلك، اعرف رَبِّ السلام والرحمة والمغفرة والدعوة الطيبة، صدقني الله لا يحب المتطرفين، الله لا يحب المتشددين، الأديان بريئة من القتل والدم.»

على جبيني قبلتني أمي وخرجت، ولم تفهم أمي سر انضمامي لهذه المجموعة، وأنا لم أكن مستعدًا لشرح الأسباب.

مَرَّت هذه الفترة قاسية جدًا، انقطع الوصل بيني وبين هؤلاء المجموعة، حتى مع أبي لم نتحدث مطلقًا، لم أتحدث إلا مع أمجد الذي أخبرني بالقبض على جميع أفراد المجموعة.

كان أمجد قد شعر بشيءٍ غريب يحدث منذ فترة فابتعد عنهم، لطالما نصحني بالابتعاد أنا أيضًا، لكنني لم أفهم أو بمعنى أوضح لم أقبل فكرة أن أعود طفلًا بلا هدف، بلا رأي، ضعيف الشخصية.

وبعد عدة أشهر من تلك الواقعة قرر أبي الانتقال لمسكنٍ آخر، لم تكن الفكرة تعجبني، لكن حتى الاعتراض على هذا الأمر كان بمثابة حرب أخرى بيني وبين أبي، فالتزمتُ الصمت.

«سورة أم كُلثوم»

ـ مرَّ عامان على انتقالنا لمنزلنا الجديد، تجاوزتُ فيهما المرحلة الإعدادية، وأولى مراحل الثانوية العامة.

تغير كل شيء حولي، أصبحت علاقتي بأمي وطيدة، ترقى أبي في منصبه، أصبحت اهتماماتي أكثر، الموسيقى، الروايات، مواقع التواصل الاجتماعي، مرحلة المراهقة القاسية، أصبح لديَّ أصدقاء من الشبكة العنكبوتية، لكن ولسببٍ لا أعرفه كنت أدخل تلك المواقع باسمٍ مستعار، أهو ضعف شخصية أم خوف من أن يصبحوا أشخاصًا حقيقيين؟! لا أعرف، المهم أن كل شيء تغيَّر، عدا افتقادي لـ أمجد، لم أفتقده لشخصه، بالأساس لم أفتقد أي شخص لشخصه، كما لم أنضم لتلك الجماعة لولائي لهم، بل لأنني كنت أبحث عن دفء أصدق، عن ونس يا سراج.

ولدتُ وحيدًا في منزلٍ لا يبالي، كنت طفلًا منبوذًا لا أصدقاء له، ذاك الذي يأتي مبكرًا يجلس في منتصف الفصل، لا هو من المشاغبين في الصفوف الأخيرة، ولا هو في الصفوف الأولى مع المتفوقين، كنت أجلس وحدي، حتى عندما كنت أغيب لم يكن يسألني أحد عن أسباب غيابي، أردتُ التحدث مع أحد، كنت أملك نكاتًا رائعة وأكثر فكاهة من الذين يطلقونها أمامي، ومع ذلك أخجل من الجهر بها، وكنت أعرف مغامرات أكثر تشويقًا مما يقولونها، ومع ذلك لا أجد من يستمع لي، كنت وحدي تمامًا؛ أمجد وحده من كان يؤانسني تلك الوحدة.

لدي الكثير من المال والكثير من مظاهر الترفيه، ومع ذلك لم أجد من يشاركني إياها، ما قيمة أن تملك قمر وسمائك خالية من النجوم؟ ما قيمة أن تملك حيلًا سحرية ولا تجد من ينبهر بها؟ أن تعزف لمجموعة من الصُم أو ترسم لمجموعة من المكفوفين؟ أن تصرخ فلا تجد حولك إلا مجموعة من البُكم؟ كنت أعزف وحدي، وأغني وحدي، وأفوز وحدي، كنت وحدي تمامًا يا سراج..

وعندما حاولتُ مقابلة "أمجد" علمت بانتقاله هو الآخر من منزله، وانقطع الوصل ولم ينقطع الود، ولأن الوحدة قاسية والغربة ملعونة خلقتُ "أمجد" في خيالي، كان دائمًا معي، بدأ الأمر كمزحة حتى آمنت به، وتخيلتُ وجوده حقًّا، كنت أنا مَن يتجه إلى المرض النفسي- إلى أقصى- مراحل الانفصام.

أنا أعي ما أقوله جيدًا، لقد خلقتُ أمجد من الخيال كي لا أشعر بالوحدة، فتحول الأمر إلى واقع، كنت أتحدث معه عن تفاصيل يومي، أخرج معه في خيالي، كلما احتجتُ إليه وجدته بجواري، كنت أعرف أنه الوهم ومع ذلك كنت مستمتعًا به، على الأقل كان وهمًا لا يؤذي ولا يجعلني أشعر بالوحدة، لا يجعلني أحتفظ بكلماتٍ في صدري، ولا يسخر مني؛ لقد كان الوهم الأعظم في حياتي.

وقبل بدء العام الدراسي، دعاني أحد أصدقائي على مواقع التواصل لحفلٍ غنائي بقصر البارون[١٥]، اعتذرتُ منه، لكنه أَصَرَّ وطمئنني، فشرحت له أنني أخاف التجمعات، فتَفَهَّمَ ذلك وأَصَرَّ أيضًا على مصاحبتي.

يومها كانت ليلة رائعة، الجميع في الحفل يرتدون الأسود، موسيقى غريبة ومزعجة لكنها متناسقة، البنات والشباب يتراقصون بطريقةٍ مخيفة، زجاجات النبيذ هنا، وقبلات حارة هناك، لم يكن من السهل أبدًا تمييز الرجال من النساء.

الشيء الوحيد الرائع هنا أنَّ الجميع في أُلفَة غريبة، يضحكون بلا سبب، ويتحدثون معك بلا مناسبة، ليلة طويلة لم أفهم منها إلا أنني كنت في حفل لـ عبدة الشيطان.

بطريقةٍ أو بأخرى لم أنزعج، بطريقة أو بأخرى شعرتُ براحةٍ غريبة في هذا العالم، فانضممتُ إليهم وأصبحت جزءًا منهم، كنا نجتمع أكثر في مجموعات خاصة على الإنترنت، نتفق على مكان إقامة الحفلات، ولم تكن الرقابة الأمنية تطاردنا وقتها، لكن الناس أشد رقابة من الأمن.

[١٥] قصر البارون: قصر تاريخي مستوحى من العمارة الهندية، يقع في قلب منطقة "مصر الجديدة" بالقاهرة، شيَّده المليونير البلجيكي "البارون إدوارد إمبان" والذي جاء إلى مصر من الهند في نهاية القرن التاسع عشر؛ وفي عام ١٩٩٧ نسج الناس حوله بع القصص الخيالية بسبب إغلاقه المستمر من أنه صار مأوى للشياطين، حيث استهدفه بعض الشباب –بطريقة غير شرعية- لإقامة حفلات صاخبة انتهت بقضية جنائية شغلت الرأي العام المصري، وعُرفت بـ "قضية عبدة الشيطان".

وذات يوم اتفقتُ مع صديقي مايكل - هذا الذي صاحبني في المرة الأولى- وذهبنا إلى حفلة صغيرة في فيلا إحدى أعضاء الفريق، كانت تدعى «ديرا»، وكانت تلك هي المرة الأولى التي ألتقي بها.

كانت فتاة مختلفة، شعرها أسود طويل، وعيناها خضراء بملامح داكنة، مزيج ما بين الجمال الشرقي والغربي، تربط على معصمها وشاحًا وقلادة لصورتها وهي في مرحلة الطفولة، أو هكذا ظننتُ.

كنا خمسة أفراد بالتمام والكمال، تعرَّف بعضنا على بعض، وبدأت مناقشات عن عدة أمور مختلفة؛ لاحظتْ ديرا صمتي طوال الوقت، حتى أخبرها مايكل أنني أكتب الأغاني، فطلبت الاستماع لبعض كلماتي، وقتها كنتُ في حالة تردد فاعتذرتُ منها، ضحكتْ هي وسألتني:

- **«هل تحب أم كلثوم[١٦]؟»**

قلت:

- **«نعم.»**

[١٦] أم كُلثوم: "فاطمة بنت الشيخ إبراهيم السيد البلتاجي" مُطربة وممثلة مصرية، وتُعرف بـ"أم كلثوم" و"كوكب الشرق" و"سيدة الغناء العربي"، ولدت بمحافظة الدقهلية في ٣٠ ديسمبر ١٨٩٨، وتُعد من أبرز مغني القرن العشرين الميلادي، وبدأت مشوارها الفني في سن الطفولة، واشتهرت في مصر وفي عموم الوطن العربي، توفيَّت بالقاهرة في ٣ فبراير ١٩٧٥ بعد معاناة مع المرض.

أمسكتْ بهاتفها، ثم بدأنا بالاستماع إلى مقطعٍ غنائيّ، لم يكن مقطعًا غنائيًا عاديًّا، بل كانت آيات من القرآن مع لحنٍ لـ بليغ حمدي[17]، كان رائعًا، أجمل من كل أصوات المشايخ، لكن رغم هذا شعرت بشيءٍ من الرفض لذاك المقطع!

لاحظوا هم ذلك، حتى قال أحدهم:

- **«لماذا اقتربتَ منا؟»**

قلت:

- **«لا أحب الله»**

ضحكوا جميعًا عدا ديرا التي كانت تتابع نظراتي بتمعن، حتى سألني أحدهم:

- **«ما الذي يزعجك منه؟»**

بترددٍ شديد قلت:

- **«الصمت.»**

التفَّت نظراتهم حولي:

- **«لطالما احتجته بجواري ولم أجده، لو أنه لا يحب القتل فلماذا ترك القتلى أحياء؟ لو أنه لا يحب الظلم لماذا خلقه؟ هو شاهد على المجاعات والمذابح، فلماذا لم يحرك ساكنًا تجاه ما يحدث؟ ألم يتأثر ببكاء الأطفال؟ ألم يتأثر بدعاء الأمهات؟ بصرخات الموجوعين؟ بدعوات المقهورين؟ لماذا حكم**

[17] بليغ حمدي: "بليغ بن عبد الحميد حمدي مرسي" مُلحِّن ومُغني مصري، ولُقِّبَ بـ"ابن النيل" و"بلبل"، ولد بحي شبرا بالقاهرة في ٧ أكتوبر ١٩٣١، أتقن العزف على العود وهو في التاسعة من العمر، درس أصول الموسيقي في مدرسة "عبد الحفيظ إمام للموسيقى الشرقية"، ثم تتلمذ على يد "درويش الحريري"، التحق بكلية الحقوق وفي نفس الوقت التحق بـ"معهد فؤاد الأول للموسيقى" –معهد الموسيقى العربية حاليًّا-، توفي في ١٢ سبتمبر ١٩٩٣ بعد صراع طويل مع مرض الكبد.

علينا بالجنة والنار؟ ولماذا اشترط دخول الجنة للمسلمين؟ لماذا لم يخلقنا جميعًا على دينٍ واحد؟ إنَّه هو المسؤول عما يحدث»

سادت حالة صمت طويلة، وبعد نهاية الحفل عدت إلى المنزل.

تغيَّرت حياتي وتغيّر تفكيري، ولأنني أصبحتُ أشعر بالونس اختفى أمجد، وكالعادة لم يلاحظ أبي وأمي التغيّر الذي طرأ على حياتي.

بدأت أُغيِّر شكل ملابسي، وبدأت أُقلد قصات شعرهم، وأرسم على معصمي وذراعي.

بدأت أكتب الأغاني لهم، لكن كانت ثمَّة فكرة تطاردني؛ فأنا أحب أم كلثوم وأحب القرآن ككتاب، فما المانع لو كتبت «سورة أم كلثوم»؟!

المزيج من كلمات أم كلثوم مع بعض الآيات..

«بعيد عنك... وَنَحْنُ أَقْرَبُ... ودارت الأيام... وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا... لا طول بعدك يغلبني... وَاصْبِرِ لِحُكْمِ... أغدًا ألقاك؟... إِنَّ نَّصْرَ... كم أخشى غَدٍ هذا... لَا تَخَفْ إن...»

قطعتُ دهب من حديثه:

ـ كُفَّ عن هذا، لا أريد الاستماع لهذا الهراء.

صب دهب كأسًا آخرًا من الفودكا، وواصل:

ـ وذات يوم، وفي فيلا ديرا، عرضتُ هذا العمل عليهم، ليكون هو أغنية الحفل القادم بعد أن انبهر الجميع بالكلمات، وعظموني أشد تعظيم؛ لكن لم تنبهر ديرا على الرغم من أنني كتبت هذا لها، للاقتراب من قلبها

أكثر؛ فقط بالأخير قالت أن الحفل القادم هو حفل منزليّ، وقبل أن تختم كلماتها قالت:

- **«وسيكون حفل زواجي أيضًا.»**

كانت صدمة؛ الصدمة كانت في تقبّل الجميع للموقف وكأنه شيء طبيعيّ يحدث.

كيف ستتزوج في حضورنا ؟! ومن هذا الذي ستتزوجه ؟!

كنت أريد الاقتراب منها فكيف تتزوج ؟!

في الطريق تحدثت مع "مايكل" الذي اندهش من اندهاشي..

- **«هذا أمر طبيعي، فالزواج مسموح للجميع»**

قلت:

- **«كيف يا مايكل؟ ومن ذاك الذي ستتزوجه؟»**

قال:

- **«ستعرف كل شيء يوم الحفل.»**

«حفل زفاف ديرا»

ـ كان الحفل مزدحمًا، لكن ورغم الزحام كنا نحن الخمسة نجلس في المقاعد الأمامية.

بدأت الفرقة بغناء "سورة أم كلثوم"، كانت الموسيقى مع الكلمات والمؤثرات الضوئية كفيلة بخلق حالة جديدة، الأجواء رائعة، لكن قلبي كان يرتجف.

بخطواتٍ ثابتة صعدت ديرا على خشبة المسرح الصغير، فعادت الإضاءة لطبيعتها وانتبه الجميع لها:

- **«أوفيائي، اليوم سأتزوج.»**

نظر الجميع ناحية مايكل، وبدأ البعض بتقديم التهاني له، فواصلتْ:

- **«الآن أطلب من دهب الصعود إلى خشبة المسرح، والموافقة على طلب زواجي منه.»**

دهب! نعم لقد كنت أنا!

نظرات استهجان غريبة لاحقتني، فواصلتْ:

- **«إنني أحبه، وأؤكد لكم أننا سنعيش حياةً رائعة معًا.»**

هدأت ثورة البعض، فصعدتُ الخشبة، وأمسكتْ هي يدي، ثم غرزت دبوسًا في أحد أناملي، وبنفس الدبوس غرزت أناملها، فاختلط دمي بدمها، وعانقتني، وهكذا كان الزواج!

انطفأت الأضواء، ورحل الجميع وانتهى الحفل.

كنا نجلس على خشبة المسرح، كانت ديرا تنظر إليَّ بتمَعُّنٍ وكأنها تقرأني، بادلتها النظر، حتى قالت من بعيد:

- **«والآن تزوجنا؛ كيف حالك يا دهب؟»**

لا أعرف لماذا شعرت بثقل من هذا السؤال، لكنني أعرف معنى أن تكون منهكًا للحد الذي يجعل سؤالًا عابرًا يستدرجك للبكاء.

لا أعرف لماذا شعرت أنني عارٍ تمامًا في تلك اللحظة، لست بخير، ولكن ما الفائدة من الاعتراف بذلك؟

أن تكون منهكًا بطريقة تجعلك تخبِّئ كل هشاشتك وضعفك وتتجنب الإجابة على هذا السؤال؛ إنني متعب جدًا ومريض وحزين، ولا أعرف سببًا واضحًا لهذا الضعف، لكنني أشعر به، لا أعرف سببًا واضحًا لهذه الآلام، لكنها تؤذيني، لا أعرف لماذا لست على ما يرام، وهل ينبغي أن أكون على ما يرام من الأساس أم لا، لكنني لست بخير؛ فلم أرد على ديرا.

اقتربتْ هي ثم أمسكت رأسي ووضعته على قدميها، تمامًا كلوحة "العودة للديار[18]" تلك التي أحفظ تفاصيلها عن ظهر قلب، ثم قالت:

[18] لوحة "العودة للديار": لوحة للفنان الألماني "هانز أدولف بوهلر"، يصوّر بها عودة جندي من الحرب وقد ألقى بنفسه على ركبتي حبيبته ينعم بلمساتها الرحيمة وهي تُربِّت على رأسه؛ اتبع "بوهلر" أسلوبًا مجازيًّا في لوحاته، واشتهر برسم المواضيع الملحمية والأسطورية، ولد هانز عام ١٨٧٧، وتوفي عام ١٩٥١.

- «الواقع في غاية القسوة، نحن هنا لأننا لا نملك حق المغادرة، ولا أنكر فلطالما حاولتُ المغادرة لكن الموت لم يقبلني، أعني أن الحكمة من الحياة أن نتقبلها كما هي، ونحن يا زوجي العزيز متمردون، نرفض الخضوع لها، هي أيضًا ملعونة ودنيئة، تضعنا بين السيّئ والأسوأ، ألا يعتبر الأمر مضحكًا أن يمر يوم واحد دون الوقوع في مشكلة جديدة، فتعتبر أن هذا يوم عظيم؟ أن تتشبث بقدْرٍ أقل من الآلام؟

لماذا تزوجنا؟ ليس لأنك الأجمل، وليس لأنك الأفضل، وليس لأنك أصبحت واحد مِنَّا؛ تزوجتك لأنني أعرف أنك تعاني مثلي من الحياة.

فوضوية يا عزيزي، فوضوية، لعبة قذرة تريدنا أن نتسخ بقوانينها؛ أنت لم تنضم لنا لأنك لا تحب الله، لكنك انضممت لأنك تبحث عن ذاتك، تبحث عن أي شيء يجعلك تشعر بقيمتك ومكانتك، شعور أنك لست غريبًا، ولذلك تزوجنا؛ تزوجنا لأنني اتخذتُ هذا الطريق مثلك تمامًا، من أجل أن لا أشعر بالوحدة، من أجل أن لا أشعر بالغربة والتعاسة.

نعم، إن شعور الغربة قد يدفعك حتى للكفر بالله.

كنت فتاةً عادية، عادية جدًا، لم تكن أحلامي تتجاوز حياة هادئة سالمة، لم أكن أريد فكرة الصراع، التسلق على أكتاف الآخرين، النفاق والكذب، أصبحتُ منبوذة لأنني لا أستطيع النطق بما لا أشعر، الموافقة دون التساؤل، كنت أبحث عن فرصة للخروج عن القطيع، كنت مختلفة جدًا، والاختلاف الزائد عن الحد لعنة، أن تصبح مختلفًا للحد الذي يجعلك تتمنى لو أنك فرد من القطيع، لو أنك بلا فكر، بلا أمنية، بلا هدف.

حاولت الانتحار، مرارًا حاولت الانتحار، لكنني كنت أتراجع، لأنني أعلم وفي نفسي أنني لن أتحمل قسوة وظلام القبر، لأنني لم أقدم في حياتي شيئًا يجعل الله يغفر ما فعلت، جحيم هنا وجحيم هناك، ويا لقسوة القدر!

أحببتك، أحببتك لأنك مختلف، لأنك تملك نفس المخاوف الفكرية والاضطرابات النفسية، لأنك تخاف الوحدة والظلام، رغم أنك وحيد لا تجلس إلا في غرفة مظلمة، لم تكن شخصًا عاديًا بالنسبة لي، كنت أومن أن بداخلك شيء يختلف، شيء ما يجذبني نحوك.

المرض؟ ربما! كنت أعرف أنك تعاني، ونحن لا نطمئن إلا مع الذين عانوا مثلنا، لأنهم يعرفون قسوة الوحدة والغربة والخذلان، فلن تتركني في ظلامي، ولن تشعرني بالغربة في وجودي معك.

كنتَ تتلعثم أمامي فيسخر الجميع من تلعثمك، أما عني فكنت أعرف أنَّ تلعثم لسانك ما هو إلا ضجيج أفكار لا يهدأ في رأسك، وكنت تبتعد عن الزحام فيظن الناس أنك انطوائي، لكن الحقيقة كانت تختلف، كنت أعرف أنك تخاف الأماكن المزدحمة، تتخيل لو أنهم اتفقوا في هذه اللحظة على أن يؤذوك أشد أذى، ولم تكن لديَّ مشكلة مع صمتك، على العكس، كنت أعرف أن بداخلك الكثير من الكلمات، لكنك لا تجيد التعبير عما يحدث بداخلك، حتى عندما اتهمك البعض بالجفاء والقسوة لم أرَكَ مثلهم، كنت أعرف أن قلبك أنقى وأصدق من كل هذا، كنت أعرف أن بداخلك طفل يخجل الظهور أمام الناس، طفل يعادي الناس والحياة ويخاف منهما.

أحببتك لأنك تفكر في الفلسفة وفي الدين، لأنك لا ترتدي قناع التقوى وتخبِّئ شيطانك، أحببت تلك الندوب وعلامات الأسى التي كنتَ

تجاهد من أجل اخفائها، توترك الشديد، وصمتك الدائم، وخجلك، أحببتك لأنك تعاني كما عانيت وأعاني هنا، وهذا سبب كافي جدًا للحب.»

صمت "دهب" فجأة، وكأنه يستعيد شيئًا من ذاكرته التائهة بين الكحول والحشيش..

ـ هل تعرف يا سراج، البشر مجموعة من المنافقين والمجاملين؛ يحاولون دائمًا التسلق على أكتاف غيرهم من الناس للوصول إلى أهدافهم وغاياتهم، يمتدحون بعضهم لمصالحهم المشتركة، ويقفون بجوار بعضهم إن كان خصمهم يفكر بطريقة مختلفة عنهم، أو ينوِ الخروج عن ردائهم، ومن حسن الحظ أن المنافقين وأصحاب المصالح المشتركة يتَّحِدُون دائمًا بكذبهم ولونهم الأصفر الدنيء، وإلا لتحوَّل العالم لرقعة من الدماء؛ وأنا حتى لا أتبرأ منهم، لكني لم أنافق أحدًا، ولم أجامل أحدًا، ولم أخادع أحدًا، بل ذنبي أنني وافقت على التعامل مع هؤلاء المنافقين المخادعين؛ أنا شخص ضعيف لا أستطيع حتى مواجهتهم بنفاقهم، ولا أستطيع تجنب التعامل معهم أيضًا لأنني مرتبط بمصالح مشتركة بيننا، إنني أحاول جاهدًا أن أحافظ على نفسي- من النفاق والمجاملات، أحاول وكأنني أقف في السماء متحديًا جاذبية الأرض، أحيانًا تفشل محاولاتي للنجاة، حتى وإن كان فشلي ليس لأني استخدمت النفاق في حياتي، بل لأنني التزمت الصمت أمامهم، ولطالما حاولت تجنب التعامل مع البشر، لكن في النهاية عدتُ لأنني ما زلت في تعداد الموتى، أقصد على قيد الحياة.

من المستحيل تجنب التعامل مع البشر، أو على الأقل من المستحيل تجنب النفاق والمجاملات في أبسط الأشياء، وأقل الناس مجاملة ونفاقًا؛ فمثلاً البائع في المتجر، ومنذ سنوات، يسألني عن حالي وكأن أمري يعنيه، ودائمًا أردد «أنا على ما يرام». ويبقى السؤال، ألم يفكر المجنون كيف لشخصٍ أن يكون على ما يرام لعدة سنوات؟ ألم يفكر المجنون ماذا لو أخبرته أنني في حالة من الحزن والضيق؟ ألم يتوقع مني أي إجابة غير مألوفة بالنسبة له؟، وإن حدث فلا أستبعد أن يرد بابتسامة سمجة وكلمات سخيفة معناها أن الجميع يعاني وأن كل هذا سيمر..

النادل يستقبلني بابتسامة جميلة، لكنها لا تقنعني ولا أصدقها، فكيف لشخصٍ أن يبتسم أمامك كل يوم ابتسامة يبدو عليها السعادة وكأنه لا يحمل أيَ هَم؟! وكأنه رجل خارق لا يحزن، لا يعاني، وكأنه محصن من مخالب الحياة؛ أنا أيضًا منافق، أضطر لأن أبادله الابتسامة، ولم أفكر أن أسأله عن حاله، فبالطبع سيجيب بأنه في أفضل حال تمامًا كما فعلت أنا مع البائع، ولو أخبرني أنه ليس على ما يرام فقد أتظاهر بالحزن، ثم أردد نفس الكلمات التي رددها البائع معي، وهكذا إلى ما لانهاية..

البائع، النادل، السائق، حارس العقار، العامل في البنك، وفي شركات المحمول، كلهم يتبادلون معي الابتسامات والسؤال عن أخباري وأحوالي، إما مجبرين على تلك المعاملة اللطيفة، وإما أنهم اعتادوا على هذه المجاملات وكأنها من ضمن أساسيات الحياة كالهواء والماء.

ما أخشاه أن لا أجد شخصًا صادقًا يسألني عن حالي، فأقول له أنني لست على ما يرام فيساعدني لأنه يحبني، لأنه لا ينتظر مني أي مصلحة،

ولا يهمه إلا أن أكون على ما يرام، ما أخشاه أن لا أجد شخصًا لا يضحك في وجهي عندما يحزن مني، أو شخصًا لا ينطق بأي كلمة لطيفة في حقي إلا وكانت صادقة خالية من النفاق والكذب، أو يتخذها كغاية تبرر وسيلته، ما أخشاه أن أقضي حياتي وسط مجموعة من الحمقى والمنافقين دون التعامل مع شخصٍ صادق، وإلى أن يظهر هذا الشخص فيمكن القول أنني من أولئك المنافقين لمجرد التعامل معهم، كلنا منافقون حتى بالصمت العاجز ولا أستثني أحدًا.

وهذا ما وجدته في علاقتي بـ ديرا؛ الحب يعني أن تشعر بأنك أسوأ من في الأرض، فتجد من يشبهك بمساوئك وهشاشتك ومرضك، لكن ومن الممكن جدًا أن تحب شخصًا ويحبك هو الآخر، لكن لا يحبكما العالم.

«لم يحبنا العالم»

ـ مر عامان على علاقتي بـ ديرا، كنا معًا في بؤسنا وظلامنا وكفرنا، أصبحتْ جزءًا أصيلًا من حياتي، بل كانت هي حياتي.

اختفى شعور الغربة، أصبحتُ وبطريقة ما أنتمي لها ولعالمنا المظلم، كنا معًا نلعن الحياة ونحن نمارس الحب، نتناقش في الفلسفة، في الدين، وفي السياسة، تَعَرَّينا أمام بعضنا، تَعَرَّى الوجع والحزن فلم نعد نخجل من عالمنا، كانت مهربي ومكاني وملجأي الوحيد من عالم ضيّق لا يتسع إلا للمنافقين.

بدأت ديرا تهتم أكثر بحياتها، فقررنا أن نبتعد قليلًا عن المجموعة، أن نصنع نحن مجموعة خاصة بنا، عالمًا آخرًا أكثر هدوء ورحمة، ولم تكن تلك خطوة بسيطة، فقد عرفتُ أنّ مايكل كان يحب ديرا، وكان ينتظر لحظة زواجهما، فظهرت الكثير من المضايقات لنا بعد زواجنا، الكثير من الضغط، اتهمونا بالتخلي عن أفكارنا وهدفنا السامي في علوّ اسم الشيطان الأعظم، صبوا علينا اللعنات، وحتى مايكل كان يتوعَّد دائمًا بالانتقام؛ لم نهتم، فلن نُهزَم ما دمنا معًا.

لكن وفي نفسي كان شيء يجعلني أتساءل: «إلى متى ستبقى ديرا؟»

الكثير من المخاوف بدأت تظهر في تصرفاتي معها، كنت أخشى أن تنتهي علاقتنا في الظلام كما بدأت؛ فبدأتُ أُفكر، الارتباط الرسمي؟ ولما لا! لقد أصبحت مستعدًا -على الأقل- لمواجهة أهلي، أصبحت أعمل في مجال التسويق الإلكتروني، وأستطيع تحمل مصاريف الارتباط الرسمي، وديرا غريبة هنا، أبٌ في باريس، وأم توفيت يوم ولادتها، ولا توجد عقبات

قوية تمنع ارتباطنا، ولن أخبر أحدًا بأمر زواجنا، سنبدأ حياة جديدة أكثر استقرارًا وهدوءًا.

وذات يوم كنا معًا في مسكنها، لم تكن كعادتها مشرقة، بل كانت مهمومة وكأنها كانت في معركة قاسية، حاولتُ معرفة ما حدث، لكنها أقسمتْ أن مزاجها العام سيِّئ ليس أكثر؛ كانت تحاول الظهور أمامي بثباتٍ دائمًا، رغم يقيني أنها ليست على ما يرام.

على الطاولة وجدتُ مذكراتها الخاصة، ولستُ شخصًا فضوليًّا، لكن شعرت أنها تعمدتْ وضعها هنا لأقرأها، كانت مُفكرة تحمل على غلافها صورة لـ فيروز[١٩]، فتحتُ مذكراتها وبدأتُ أتصفح سريعًا، بخطٍ مُنَمَّق كتبتْ الكثير من العبارات القصيرة:

* **«كارثة! العالم يؤذيك ثم يلومك على عدم فهمك له.»**
* **«أمي عند الله الذي لا أؤمن به، أبي بعيد جدًا عني، وأنا هنا بلا أمل في عودتهم.»**
* **«لم يفهمني أحد سوى الرجل الذي أحببته، فماذا لو فقدته!»**
* **«الحياة مرهقة، الحب وحده يخفف وطأة الآلام.»**

---

[١٩] فيروز: "نهاد رزق وديع حداد"، المعروفة بالاسم الفني "فيروز"، مطربة وممثلة لبنانية، ولدت ببيروت في ٢١ نوفمبر ١٩٣٥، بدأت بالغناء في عمر السادسة، ولاقت رواجًا واسعًا في العالم العربي والشرق الأوسط والعديد من دول العالم، وقد نالت جوائز وأوسمة عالمية، وقد تحوَّل بيت الطفولة الذي ترعرعت فيه "فيروز" في قلب العاصمة "بيروت" إلى متحف كنوع من التكريم.

* «اليوم فكرتُ في الانتحار، ثم تساءلتُ "مَن سيحملني إلى القبر؟" فأنا لا أريد الذهاب وحدي.»

* «ليس لديَّ أصدقاء، هذا مُتعِب لأنني لا أستطيع مصادقة نفسي.»

* «أحاول أن أكون إنسانة جيدة، لكن كل شيء يدفعني نحو الهاوية.»

* «أنا غريبة ووحيدة ومريضة، لكنني أحبكَ جدًا.»

* «لا أحد هنا سوى الموسيقى، حتمًا ستقتلني.»

* «الذي صنع الموسيقى هل كان يعرف أنها ستصبح الرفيق الوحيد لفتاة وحيدة؟»

* «اللعنة يا ميلينا، كيف تتركين رجلًا مثل كافكا[٢٠]؟»

* «العالم هادئ اليوم، هل اقترب موعد القيامة؟»

* «كانت وحيدة، صديقة للموسيقى والأشجار والحيوانات والظلام.»

* «أحبكَ جدًا يا رجل، آسفة، تمنيتُ أن أكون فتاةً رائعة لتحبني أكثر.»

* «أعيش في ظلامٍ كبير، متى ستشرق شمسنا؟»

* «يومًا سينخلع رأسي من جسدي ويقف أمامي ليسألني: متى سيتوقف الضجيج؟»

* «العالم خدعة، وأنا لا أحب المهرجين.»

---

[٢٠] كافكا: "فرانس كافكا"، كاتب تشيكي يهودي، رائد الكتابة الكابوسية، يُعد أحد أفضل أُدباء الألمان في فن الرواية والقصة القصيرة، وتُصنَّف أعماله بكونها "واقعية عجائبية"، كما يتناول في أعماله مواضيع نفسية، وقد ظهر في الأدب مصطلح "الكافكاوية" رمزًا إلى الكتابة الحداثية الممتلئة بالسوداوية والعبثية؛ ولد بـ"براغ" في ٣ يوليو ١٨٨٣، وتوفي في ٣ يونيو ١٩٢٤ مُصابًا بمرضِ "السُّل".

تـأخرت ديـرا في تجهـيز الإفطـار، فاسـتغللتُ تأخرهـا، ورغمًـا عـني وجدتني أكتب في مذكراتها:

«وأتعجب حين أراكِ تحاولين التجمل أمامي، كأنكِ يا فتاتي تجهلين أمري، كأنكِ لا تعرفينني، تبذلين مجهودًا مضاعفًا لتظهري أمامي بكامل أنوثتكِ وتألقكِ، تخافين أن أراكِ حزينة فأبتعد عنكِ، وتخافين أن أعتاد عليكِ فأهملكِ، تحاولين خلق أحاديث معي كي لا أشعر بالوحدة، وتلعنين معي قسوة العالم رغم لطفكِ وحيائكِ.

أُشفقُ عليكِ، لأنني لم أحبكِ لكونكِ جميلة، فما أكثر الجميلات، ولم أحبكِ لأنك تجيدين خلق الأحاديث؛ هذا الحزن الذي تجاهدين من أجل اخفائه عني هو سر عشقي لكِ، هذه الفوضوية التي تحاولين تنظميها كانت سببًا في جنوني بكِ، ملامحكِ أجمل ببراءتها وبعلامات السهر، وشفتيكِ التي أهلكها التوتر والقلق كانت أصدق عندي من مساحيق التجميل، لستِ لوحة يعجبني تناسق ألوانها، أنتِ طفلة أعشق خوفها وحزنها وفوضويتها.

لا تحاولي الوصول للكمال، فالجمال يكمن في النقص، والحب يعني أن أقع في غرام جانبكِ المظلم قبل الجانب المشرق منكِ، ندبات الحزن، هالات السهر، علامات التوتر والغضب على شفتيكِ وأظافركِ، نوبات بكائكِ المفاجئ، العبارات التي تكتبينها في مذكراتك، والموسيقى الحزينة التي تحبينها، رغبتكِ المفاجئة في الصمت، ووسواسكِ القهري، كل هذه الأشياء التي أكرهها وأتمنى أن أحميكِ منها لا تستدعِ اخفائها عني، لا تستدعِ خجلك منها ومن التعبير عنها؛ إنني أحبكِ وأحب حطامك وحزنك واكتئابك العظيم.»

عادت ديرا، فسألتني:

- **«هل تصفحتَ المذكرات؟!»**

قلتُ وعلى ملامحي علامات الكذب:

- **«لا.»**

كانت تأكل في صمتٍ تام، أحب طريقتها في تناول الطعام، حاولتُ إضحاكها لكنني فشلت، فقلت لها:

- **«طريقتكِ في الأكل مضحكة، تأكلين وكأنكِ تغتصبين الطعام، طفلة أنتِ يا ديرا!»**

ضحكتْ، ثم أمسكتْ بكوب العصير وألقته على ملابسي، ثم قالت:

- **«مسكين! ألم تتعلم بعد الذهاب إلى الحمام وحدك يا طفل؟»**

ضحكنا معًا، ثم طاردتها في أرجاء الفيلَّا، كانت تختبئ كالأطفال وأبحث عنها، فتظهر فجأة لتقصفني بأي شيء أمامها، فأنقض عليها، فتنقض على شفتيَّ ثم تهرب.

تحولنا لحلبة مصارعة، تضربني فأضربها، تهدأ، تلتهم شفتيَّ، ثم تهرب، أضربها بالوسادة فتضربني بوسادة أكبر؛ لحظات حب طفولية، كنا نحتفظ بشيءٍ من طفولتنا التي لم نرَها إلا معًا.

انتهت الحرب الطفولية، جلسنا على السرير، وكعادتها تفتح ذراعيَّ ثم تدفن رأسها في صدري وهي تقول:

- **«هذا ملك لي وحدي.»**
- **«أنتِ مزعجة وفوضوية..»**
- **«أنتَ وغد ومتمرد.»**

- **«أحبكِ.»**
- **«أستحق الحب.»**
- **«أعرف.»**

غزوتُ خصلات شعرها بأناملي وأنا أقول:

- **«ديرا، لماذا لا نعلن زواجنا؟»**

ضحكتْ:

- **«لن يوافق أهلك على فتاةٍ مثلي.»**

قلتُ:

- **«سيوافقون، وإن لم يحدث سأتزوجكِ رغمًا عنهم.»**

بسخريةٍ:

- **«انسَ الأمر، لن نتزوج.»**

نهضتْ "ديرا"، ثم أشعلت سيجارتها وقالت:

- **«دهب، من فضلك، لا أريد صراعات أخرى مع الحياة، نعم أحبكَ، لكن الحب ليس سببًا كافيًا للزواج، بيننا أشياء رائعة لكنها لا تضمن لنا حياة جميلة.**

أنا أخاف الزواج المُعلَن يا دهب، أخاف أن أكون مسؤولة منكَ، أنا امرأة طائشة، لستُ في حاجةٍ للقيود، ولا أمل في تهذيب أخلاقي.

سنتزوج ثم ماذا؟ ننجب أطفالًا؟ أقصد مزيدًا من البؤساء! ما الرائع في حياتنا لنُنجب طفلًا جديدًا يولد ليُعَذَّب كما عُذبنا نحن، المال؟ المال لا يضمن السعادة، لا يضمن الطمأنينة، لن ندفع لكل عابر في حياته من أجل أن يتعامل معه بِلُطف، لن ندفع للتعثرات والأزمات من أجل التغاضي

عنه، الواقع لن يرحمه، سيقتله مثلما قتلنا، لن نضمن له حتى احتوائنا له، لأن ومن الطبيعي ستأخذه الحياة منا، فماذا سنفعل؟

لو شعر بالوحدة والغربة مثلما شعرنا نحن! لن توافق لو اتخذ نفس مسارنا، لن توافق لو أدمن الكحول والمخدرات، لن توافق إن رأيته حزينًا لفقدان شخص ما رحل عنه، أو جميلة وعدته بالبقاء ثم تخلَّت عنه.

أنا عدمية يا دهب، لن أُنجب طفلًا بائسًا آخرًا يلعننا في حياتنا ومماتنا؛ حتى لو تزوجنا ولم ننجب، هل حقًا انا أستحق المجازفة وخضوعكَ لحرب شرسة مع والديك؟ لا أعرف، لا أراني أستحق التضحية، لا أظن أنني حتى سأقدر تضحياتك؛ فلنبقى هكذا يا دهب، فنحن حتى لا نضمن ما سيحدث في الغد.»

أوجعتني كلماتها رغم حقيقتها، أوجعني شعور أننا لا بد أن نبقى هكذا في ظلام أبدي.

لكن ورغمًا عني وبعد ثلاثة أيام من هذا اليوم، ذهبتُ وتحدثتُ مع أبي، في البداية وجدته يبغض الفكرة ويرفضها، فعلت قصارى جهدي من أجل اقناعه، فسألني عنها وعن حياتها، اضررتُ للكذب عليه في بعض التفاصيل، وبالأخير وافق، لكنه اشترط أن يلتقي بها أولًا في منزلنا.

من سعادتي اتجهتُ إليها؛ عانقتني وشكرتني على كلماتي التي كتبتها لها في مذكراتها، تناولنا الغداء، كنت في غاية السعادة، وازدادت سعادتي بعد ما أخبرتها ووجدتها سعيدة جدًا لهذه الخطوة، في الحقيقة كنت في حالة دهشة، كيف وافقت بهذه البساطة؟!

أدركتُ أن الناس أحيانًا يرفضون تعليق آمالهم بخطوة رائعة مستقبلية، خوفًا من أن تُهزَمَ توقعاتهم، هذا ما كانت تعاني منه.

اتفقتُ معها على اليوم وقد جاء..

في الخامسة عصرًا، ذهبت لمسكنها، وللمرة الأولى رأيتها في كامل أناقتها، فستان أسود طويل، شعر لامع دون أي لمسات تجميلية، وملامحها التي لا تتقبل أي مساحيق تجميل، كانت رائعة بطريقة جعلتني أتلصَّم في مكاني.

- **«تبدين مختلفة اليوم!»**

بخطواتٍ ثابتة وهي تنزل من السلالم الداخلية:

- **«أرجوك، أنا الآن مخطوبة»**

ضحكتُ من طريقتها:

- **«مداعبة فقط!»**

وهي تتحرك أمامي:

- **«لن تلمسني قبل كتب الكتاب.»**

ركبنـا السـيارة واتجهنـا إلى المـنزل، أحبَّتهـا أمي مـن اللحظـة الأولى، وأدهشتني ديرا بطريقة تعاملها، فلم أرَهَا يومًا اجتماعيـة لهذا الحد، كانت تضحك مع أبي وأمي كما لو أنها تعرفهم منذ زمن.

سـألها أبي عـن حياتهـا، ولم تكـذب، فأخبرتـه أن والدهـا يتكفـل فقـط بمصاريفها كل شهر مـن باريس، أمـا عـن والدتهـا فقـد توفيت يـوم ولادتهـا، فشعرتُ أن أمي قد أعطتْ بعض العطف لها بنظراتها.

كانت ليلة رائعة، انتهت بأكثر مما اتمنى، لقد طلبت أمي ديـرا بالخطوبـة، وكانت ديرا في غاية السعادة، واتفقنا على كل شيء.

بعـدما أبلغـت ديـرا والدهـا بالخطوبـة ووعـدها بالحضـور، كتبـتْ عـلى صـفحتها الشخصـية في فيسـبوك لتعـزم أصـدقائها يـوم الخـامس عشرـ مـن أغسطس، وقد كانت التعليقات رائعة.

وها قد جاء اليوم الموعود؛ اتفقنا على إقامة الحفل بأحد نوادي القـاهرة، وعلى عكس المعتاد أصرَّت أمي على المبيت مع ديـرا بصحبة فتيـات عائلتنـا من أجل تجهيزها للحفل، كانت لفتة رائعة من أمي التي كانت تقدر أن ديـرا وحدها تمامًا، وبالفعل حدث وكانت يومها ديرا عـلى أتم اسـتعداد، بفسـتانها الرمادي الطويل، وعقد فضي رائع، وخاتم من الألماس يزين أصـغر أصـابعها؛ يعجبني الجمال الهادئ المنظم، وهي كانت سـيدة كل الجميلات، ابتسـامتها رائعة هادئة جدًا، صحيح كانت تبحـث عـن والدهـا بـين الحضـور لعلـه قـد حضر، لكنه لم يأتِ، والكثير من الصمت لأنني لا أريد إفساد اللحظة.

على خشبة المسرح وقفنا، ثم رقصنا الرقصة الأشهر –slow-، ولم أرَهَا بهذه السعادة من قبل.

الشمس تودع السماء، والجميع في حالة سعادة وبهجة، وعروس الحفل أكثرهم سعادة، كم كانت رائعة تلك اللحظة، ظللت أُردد في نفسي- «شكرًا لأنك جعلتِني أومن بالحياة».

الرقص، الغناء، التهاني..

ها أنا يا أبي أصبحتُ شخصًا مسؤولًا، ها أنتِ يا ديرا تعيشين لحظة حقيقية في عالم واقعي.

كانت الشمس قد أوشكتْ على الغروب، لكن لم تغرب وحدها؛ فمن بين الزحام ظهر مايكل، اقتربَ مني ثم هنأني، وعندما مددتُ يدي له...

واصل دهب وهو يبكي:

- ظهر فجأة ثم بلا أي رحمة، انقضَّ عليها وزرع خنجرًا صغيرًا في قلبها، بتلك البساطة! انقض عليها بلا رحمة، بتلك البساطة زرع كل سمومه في قلبها، ولم تصرخ، فقط تهاوت بين ذراعيّ، وهو لم يهرب بل وقف وابتسم!

الدم كان ينتفض من جسدها النحيل، الملامح تنطفئ، الجميع في حالة ذهول، وأنا في حالة صدمة:

- **«ديرا، لا يا ديرا! لا يا ديرا! استيقظي! أبي، أمي، النجدة! ماذا يحدث؟»**

الصمت يسيطر على الجميع..

- **«ديرا، إنها حياتنا، ديرا استيقظي! لا يا ديرا، وعدتني أن لا نفترق، وعدتني أن لا نبتعد، النجدة!»**

الأنفاس الأخيرة وديرا تودع الحياة..

- **«ديرا، أرجوكِ استيقظي، هذه مزحة! هيا، هيا تنتظرنا حياة رائعة، انظري هؤلاء فرحون لأجلكِ، انظري هؤلاء ينتظرون صغارنا، لا يا ديرا، لن ترحلي..»**

ماتت، وكيف تمت وهي بين ذراعيَّ؟ لا لم يكن موتًا، إنه كابوس! هذا حتمًا كابوس، كنت أضرب بكفيّ على وجهي:

- **«استيقظ، استيقظ يا دهب، هذا كابوس، هيا ديرا تنتظرك، الحفل رائع، انظري هذه البالونات صنعت لأجلكِ، تحبين اللحم! هذا الطعام صنع خصيصًا لكِ، هيا يا ديرا، هيا أنتِ عروس هذا الحفل، انظري أصبحتُ أُجيد عمل ربطة العنق، تحبين الرمادي! لقد ارتديته أنا أيضًا لأنكِ تحبينه، لم تمت لا!»**

صرخت في وجوه الجميع:

- **«لا، هي لم تمت، هي لم تمت، هيا يا ديرا انهضي وأخبريهم أنكِ ما زلتِ على قيد الحياة، هيا لنواصل الرقص.. يا أمي أخبريهم أنها لم تمت! يا أمي أخبريهم أنها لم تمت! هيا يا ديرا!»**

كانت يديّ الملطخة بالدماء، تداعب ملامحها، تبتسم هي، كانت الأنفاس الأخيرة:

- **«أرجوكِ يا ديرا، هيا لنواصل الرقص..»**
- **«حاولتُ أن أكون جميلة يا دهب، أنا أُحبك.»**

صراخ.. عويل.. صراخ.. عويل.. صراخ:

- **«لا، لا لم تمت، لا لم تمت..»**

تنهدتْ التنهيدة الأخيرة في قلب الموت، وانتهى الحفل.

دخل دهب في نوبة بكاء قاسية، كان يشرب ويبكي، ثم غدى في نومٍ عميق، وكأنه يريد استعادة ذكرياته في عالمٍ آخر أقل قسوة.

تأثرتُ كثيرًا بتوابع الأحداث التي مرت على هذا الشاب؛ الوحدة تلك التي أذت سوما، والغربة تلك التي قادت دهب إلى الهاوية.

يا الله، ظننتُ أن فراقكِ يا مريم كان أقسى حدث في التاريخ!

تذكرتُ مريم، وتذكرت قصتنا، كان هذا قبل ثلاث سنوات، كنت يومها في حالة ضيق لا تطاق بعدما علمتُ برفض سفري لأمريكا لأسبابٍ سياسية لا أعرفها، ربما تلك صفعتي الوحيدة في الدنيا، إنها الخيبة؛ أردتُ لعب كرة القدم، لكن كُسرت قدمي وأُصبتُ بإصابةٍ مُزمنة جعلتني أبتعد عن هذا الحلم الذي بدأ منذ الصغر، أردتُ الالتحاق بالكلية الحربية، لكن انتهى ذلك مع الإصابة، علقتُ آمالي بدراسة الطب، فكان مجموعي لكلية الآداب، أردتُ الحياة مع أبي والعيش في استقرارٍ عائلي، لكن لم يحدث بعد ما كثرت المشادات معه، فشعرت بالخيبة، وعن الفتاة التي ظننتُ أنني سأرتبط بها اكتشفت أنها تعاملني كأخٍ صغيرٍ لها!

ليس لديَّ أصدقاء، وقد اغتربتُ عن أهلي منذ فترة بعيدة، لم يكن لدي كل هذا الكم من المعارف المتواجدين الآن، كدتُ أُجَن وأريد الهروب، أبحث عن أي شخص أستطيع التحدث معه، أحتاج لمَن أتحدث إليه، فأخذتُ سيارتي ووقفت في شارع جامعة الدول العربية، حتى أتت إحداهن:

ـ تعالي!

قالت:

ـ بكم ستكون الليلة؟

شغلتُ المُحرّك:

ـ ضعف أجرك.

ركبتْ على الفور:

ـ إلى أين؟

ـ لا تقلقي.

أخذتُ الطريق المعاكس، واتجهت إلى منزلي في وسط المدينة.

باختصارٍ شديد، دخلنا المنزل وكانت الساعة الرابعة صباحًا، جلستُ على الطاولة -تلك التي ربما ستتحدث عما شاهدته من ذكريات-..

ـ الحمام جاهز لكِ، تفضلي.

تلك لم تكن الليلة الأولى في ممارستي للجنس، لكنني لم أكن أحتاج للجنس تحديدًا، كنت أحتاج لما هو أصدق وأعمق.

خرجتْ، كانت ترتدي فستانًا قصيرًا ومغريًا، وجلستْ أمامي بأنوثة:

ـ ما اسمك؟

ـ سراج، وأنتِ؟

ـ أي اسم تريد مناداتي به، لن أمانع.

نظراتها لي كانت تعتريني، وكأنها تعرف طبيعة الشخص الذي أمامها.

ـ حسنًا، تبدو شخصًا عاطفيًا، تأكدتُ من ظنوني الآن.

ـ هل تحملين رقم "غادة العتَّال"؟

ضحكتْ:

ـ نعم، لماذا؟ هل ترى أنكَ لن تكتفي مني؟

قلتُ:

ـ لا، اتصلي بها وأخبريها أنكِ اليوم مع سراج.

ففعلتْ ما أمرتها به، ثم نظرت إليَّ وهي تقول:

ـ سأتأكد بنفسي الآن.

قلتُ:

ـ تعالي معي!

جلسنا على السرير:

ـ لا أريد منكِ أكثر من عناقٍ حتى أغدو في نومٍ عميق.

ضحكتْ بسخرية وهي تقول:

ـ والمال؟

أعطيتُ لها ما اتفقنا عليه، فنظرتْ إليَّ قائلة:

ـ المهم المال، حسنًا تعال!

عانقتني بقوة، وبدأتُ أحكي لها عن الأشياء الموجعة التي مرت على قلبي، عن الخيبات والأحلام المحطمة، بكيت رغم أنني لم أبكِ في حياتي، كانت دافئة جدًا، شعرت بتأثرها، فواصلتُ الحديث والاعتراف لها بكل شيء كما لو أنها زوجتي.

وفي صباح اليوم التالي استيقظتُ فلم أجدها، بحثتُ عنها، لكنني تفاجأتُ بأنها غادرت، وعلى الطاولة كان المال الذي أعطيتُهُ لها، وقد أعدَّتْ الإفطار، وورقة صغيرة كتبتْ بها:

«بداخلك طفل، أحببتُ القدر.. صديقتكَ مريم.»

ومن هنا بدأ كل شيء..

ليلتها ذهبتُ إلى نفس الشارع، بحثتُ عنها فلم أجدها، طلبت "غادة" على الهاتف، وسألتها عنها، فقالت أنها فتاة من الإسكندرية، وقد تعرفتْ عليها صدفة، وهي من عائلة كبيرة في الإسكندرية، لكن لا أحد يعرف سر هروبها إلى القاهرة؛ وكانت الصدمة التي ختمت بها "غادة" الاتصال:

- ليلتها معك بالأمس كانت الليلة الأولى في حياتها.

آه يا مريم لو تعلمين ما حدث وما يحدث، لأشفقتِ عليَّ كثيرًا.

عدتُ من ذكرياتي مع مريم، لأواصل التفكير في أمر دهب النائم بجوراي، فهو –بالتأكيد- صاحب رسالة الانتحار؛ حياته مؤذية منذ اللحظة الأولى.

لكن ومَن يعلم، ربما تكون سوما، فهي أيضًا عاشت حياة في غاية السوء، وربما القادم أسوأ، لا أعرف، لكن ما زلت لم أستمع للبقيَّة، ما زال الكثير من الأحداث ينتظرني.

لقد كُتِبَ عليَّ الشقاء الأبدي، حتى وعندما قررت الحياة أن تكافئني وتبعدني قليلًا عن اشتياقي ومأساتي مع مريم، أقحمتني في دائرة من الحيرة والعذاب لن تتوقف إلا بانتحار شخصٍ ما.

غدوتُ في نومٍ عميق بعدما قررت أن يكون اليوم هو الأخير بالنسبة لاستضافتي لـدهب، فالوقت يداهمني، وربما صاحب الرسالة ليس هو النائم بجواري الآن.

في الصباح، استيقظتُ فلم أجد دهب، وقد ترك رسالة على الطاولة:

«سأعود عند التاسعة».

اتصلتُ بسوما على الهاتف، فسألتني إن كنت عثرتُ على دهب، فأخبرتها أنه سيقيم عندي بضعة أيام، فطلبتْ مني أن نلتقي، لكنني اعتذرتُ منها.

سألتني عن سبب اهتمامي بـ دهب، وعن اهتمامي المبالغ بحياة الآخرين هذه الفترة، فقلتُ:

ـ تعرفين أنّ هذه هي السنة الأخيرة في دراسة الفلسفة، وأحتاج لمشروعٍ فلسفيّ كامل عن أفكار البعض في الحياة بشكل عام.

شعرتُ من نبرة صوتها أنها لم تصدقني، لكن لم أهتم كثيرًا بإثبات صدق كذبتي.

سألتها عن هاجر أباظة، فقالت أنها قد اتصلتْ بها بالأمس لتتحدث معها عن أمرٍ طارئ، وأنهما اتفقتا على أن تلتقيا في السابعة مساءً، سألتها عن بعض تفاصيل حياة هاجر، لكنها لم تعطني إجابات مفيدة، فاتفقت معها على إقامة حفلٍ غدًا في منزلي، وشدَّدتُ عليها بضرورة إخبار هاجر وصديقتنا فريدة.

كنت أجازف، أحتاج لقطع الوقت بأقصى طريقة ممكنة، فصاحب الرسالة لن يكون بعيدًا عن تلك المجموعة التي تهتم بلعب القمار؛ فالوحدة هي التي حولت سوما لهذا البؤس، والغُربة هي التي دفعت دهب لهذا الطريق، وكم هو مؤذي أن تدفعنا الحياة للتحوّل لشخصياتٍ لا تشبهنا، كم هو مؤذي أن تفرض الحياة علينا قوتها وسيطرتها من أجل أن نبتلعها رغمًا عنا!

كنت أفكر في الأمر كثيرًا، حتى فكرتُ بـ يوستانيا، فلا مانع من تناول الغداء معها الآن.

طرقتُ بابها، ففتحتْ، وكالعادة بابتسامتها الجميلة استقبلتني، وسألتني عن الضيف الذي كان معي، فأخبرتها أن إقامته ستستمر حتى الغد، وبتلقائية طلبتُ أن أتحدث معها قليلًا.

بمنزلها هنا الأصالة؛ المنزل مُنظَّم بطريقة رائعة، الصليب في كل مكان، صور لمريم العذراء، مكتبة كبيرة تحمل بعض الكتب الدينية والفلسفية، حتى لمحتُ كتاب "القرآن الكريم"، ماذا يفعل هنا؟!

أمسكته ثم تصفحته وكأنني وللمرة الأولى أقرأه، كانت يوستانيا تُعد الغداء بينما كنت أنا مشغول بعظمة وهيبة المكان.

ربتتْ على كتفي قائلة:

ـ لا تستعجب، هذا الكتاب من أعظم الكتب التي عرفتها البشرية.

دون أن ألتفتَ إليها:

ـ كيف؟!

تنهدت ثم قالت:

ـ إنه أعظم الكتب التي عرفتها البشرية، يتحدث ويتغلغل داخل خبايا الروح، تجد بداخله قصص تُعرّي وتكشف حقيقة الإنسان؛ «مريم العذراء» رغم اختلافي الديني، لكن دع العقائد الدينية وحدثني كيف استطاع وصف مشهد مريم مع جبريل؟! صمودها بهذه الطريقة أمام قرية يتهمها كل مَن فيها بالعُهر، كيف استطاع أن يقنعك أن يسوع الرضيع نطق وأخبرهم بالنبوة؟! هذا ليس من صنع الإنسان بالتأكيد.

رائعة «سورة يوسف» المكيدة بين إخوته، دعوات يعقوب الذي فقد ابنه، وصَبرُهُ على المصيبة، خُبث ودهاء زوجة العزيز، كيف عَرّى المرأة بهذه الطريقة وكشف حقيقة رغبتها وشهوتها دون أن يشعر القارئ بالشهوة؟! ثم الانتقام الإلهي بأن جُعِل يوسف عزيز مصر.

كيف أخذك في مشهد ملحمي عندما جاءت الملائكة إلى «لوط» وخبئهم عن أهل القرية الذين رغبوا فيهم بفاحشة، كيف وصف طريقة مفاضلة لوط بين بناته وضيوفه؟!

ثم كيف رُويَت قصة بناء المكان الذي أقرّ أنه لن يُهدم حتى نفنى، كيف روى بألفاظٍ مُحكمة ما اضطر إبراهيم لمحاولة ذبح ابنه الأكبر والوحيد آنذاك، ابنه الذي لم ينجبه إلا بعد عناء، وهو الذي ذاق في صغره تحكمات وظلم الأب وعلم عنه الكثير.

وعلى الجانب الآخر كيف للصبي «إسماعيل» أن ينقاد للأمر بتلك البساطة؟!

والتفاصيل يا صديقي في قصة «موسى» ووصف فضوله مع الرجل الصالح، التفاصيل التي تجعلك تعيش الرحلة بأكملها وكأنك كنت معهم، التي تجعلك تحاول فِهم حكمة ذلك الرجل وصبره على أسئلة شريكه، أعتقد لو كنت مكانه لكنت فارقت ذلك الشريك منذ السؤال الأول له؛ فهذا موسى الذي أُلقي في البحر وهو رضيع لينجُ من عدوٍ وجده ورباه في بيته، انقباض القلب الذي يصيبك حين تقرأ ذلك للمرة الأولى بالطريقة التي حُكي بها وبتلك التفاصيل والألفاظ القوية.

ثم كيف يمكن إقناع رجل واعٍ بتحمّل سخرية قومه وعشيرته وهو يصنع ويبني أمامهم سفينة كاملة في صحراء لا تتصل نواحيها بأي محيط ماء، ليس هذا فقط، بل إنك تستطيع أن تعيش أثناء القراءة أجواء الطوفان كاملة، كيف كانت الصخور تُضرب بفعل المياه، كيف هدمت القرية، وكيف فارق الأب ابنه العاصي في مشهد لن تسمع فيه إلا صوت الماء!

وستستمر في الاستماع إلى صوت الماء عندما تعيش مع «يونس» الذي أودَت به القُرعة إلى القفز في الماء لإنقاذ حياة ركاب سفينته، وهنا التفاصيل تمكنك من مشاهدة حياته وكأنك تراها من عينٍ سِحرية تقود نظرك إلى بطن حوت عملاق التقَمَ إنسانًا وعاش بداخله لا يفعل شيئًا سوى مناجاة الخالق، نعم حتى في بطن الحوت كان يذكر الرب كثيرًا حتى أخرجه منه ذكر الرب ومناجاته.

ثم ما فعله «زكريا» بعد أن كفل «مريم» التي جعلته يحب الذرية والأبناء، لقد صلى كثيرًا حتى بُشّر بـ «يوحنّا»، أو «يَحيَ» كما ذُكر، ليحيَ زكريا بعدها وهو يعلم أن شؤون قومه ستكون في مأمَنٍ من بعده.

الإيمان يا صديقي هو الذي جعله يستمر بالصلاة حتى بعد أن أصبحت زوجته «إليصابات» عاقرًا.

نحن نضرب أمثال الصبر هنا بـ «أيوب»، وهذا الكتاب ضرب به المثل في القوة والتحمّل وهما أساس الصبر، الأروع أنك ستعيش مكان زوجته وأنت تقرأ قصته هو، ستغادر بعقلك إلى "كيف تحمّلته زوجته وصبّرت على صبره؟"، لقد تمنيتُ يومًا لو أقابل هذه السيدة وأحاورها عن قصة كفاحها تلك.

والكثير الكثير من التفاصيل والتعبيرات واللغويات القوية التي تقودك للتاريخ، هنا موسوعة تاريخية كاملة للخليقة، بحر كبير من القصص المؤرخة بأسماء أصحابها، ذلك الكتاب يصف الإيمان والصبر كيف كان، وكيف يجب أن يكون، وكيف يجب أن نرى الرب على حقيقته ونتعمق في حكمته أكثر، هذا الكتاب معجزة بكل المقاييس.

رد كافي جدًا، جعلني أشعر بالجهل أمام قيمة هذا الكتاب العظيم، مؤسف أن تؤمن بعقيدة لا تعرف تفاصيلها في الوقت الذي يعرف أدق تفاصيلها ذاك الذي لا يؤمن بها، أنا مسلم لأنني ولدتُ على الإسلام فقط، وكم هذا مخجل.

تناولنا الغداء، وبدأتُ أتحدث عن الأشياء التي عرفتها عن دهب، كانت ثابتة جدًا، حتى قلتُ:

ـ أظن أن دهب هو صاحب الرسالة.

قالت:

ـ لا تستعجل، فربما هناك مَن يعيش حياةً أخطر، ما دام يبكي فهو لا يزال بعيدًا ولو بخطوة عن الانتحار.

اعترضتُ على وجهة نظرها، ولم نتفق، لكننا واصلنا الحديث عن دهب، ثم وبفضول شديد سألتها عن زوجها، وعن قصة ارتباطها، فردت بضحكتها المعتادة:

ـ لا تقلق، لا أفكر في الانتحار.

تبادلنا الضحك ثم واصلنا الحديث عن دهب..

ـ أحيانًا أُشفق على هذا الجيل، إنه مظلوم تمامًا، ولد في وضعٍ سياسي مضطرب، تفكك أخلاقي وأسري، والكثير من التساؤلات التي لا تنتهي.

الإدراك لعنة، وما أكثر منافذ الإدراك في هذا العصر يا سراج!

يُخيَّل لي أن وبعد مئة عام سيأكل البشر بعضهم بعضًا، لن يتحملوا كم تلك الضغوطات التي تنتظرهم.

هل فكرت لو أن هناك كائنات أخرى تعيش على كوكب آخر؟ ترى ماذا سيكون انطباعهم عنا! بالطبع سيسخرون منا.

هل حقًا حياتنا تستحق كل تلك التحديات؟! هل حقًا الأرض تستحق منَّا كل تلك الدماء؟!

أُفكر دائمًا في الحياة ما قبل وجود الإنسان، هل كانت بهذا السوء؟! لا أظن، فنحن البشر أخطر كائنات الكون.

هل الرَّب راضٍ عما حدث ويحدث؟! هل صدقت توقعات وتنبؤات الملائكة في اللحظات الأولى من خلق آدم عندما قالوا أننا سنقتل وننشر الفساد؟ كيف صدقوا إلى هذا الحد؟ لا أعرف؛ لكن الحياة مؤذية، ونحن نؤذيها أكثر بأفعالنا.

الأرض لم تُخلق عبثًا، لكن ما يحدث من حروب ودمار هو قمة العبث؛ الأديان لم تهبط من السماء لنشر الفتنة والقتل، لكن من حملوا راية الأديان هم من أفسدوا وحطموا كل شيء.

رددتُ:

ـ تتحدثين كثيرًا هذا الصباح على غير العادة!

قالتْ:

ـ المعذرة، أنا لم أتحدث مع أحد منذ وفاة خالد.

سألتها:

ـ ألهذا الحد تفتقدينه؟!

تنهدتْ:

ـ أفتقده! هذا السؤال في غاية التعقيد؛ إنني أفتقد شيئًا لا أستطيع التحدث عنه، ولا أستطيع وصف مدى الهشاشة التي حدثت بعد غيابه، إنني أفتقد شيئًا كان يعطيني الحياة بلا مقابل، أفتقد شيئًا كان يملؤني، شيئًا كان يحميني منها، من الحياة.

تحركت يوستانيا العجوز ناحية جهاز الكمبيوتر اللوحي، قائلة:

ـ إنني لا أستطيع التحدث، لقد سجلت هذا المقطع الصغير، استمع له جيدًا.

بدأ المقطع الموسيقي الشهير "je suis malade"، ثم ظهر صوتها، كان وكأنه يرتعد:

- **«عزيزي خالد، السلام والحب على قلبك أينما كنت، ثمة أسئلة تدور في خاطري، آسفة، أنا تلك المزعجة التي لن تكف أبدًا عن طرح التساؤلات، لكن هذه المرة لن أطيل عليك، لأنني أدرك وحشة وصعوبة القبر.**

آه يا شريان قلبي، ليتني معك في ظلامك، أريد أن أشتكي لك يا خالد، يقولون أنه قد مر عام على رحيلك، هل رحلت حقًّا؟ لماذا لا أتقبل الفكرة بعد؟!

لست خيالية يا خالد، ولست متوهمة كعادتي، هذه المرة أنا في كامل قواي العقلية.

نعم، تضحك الآن لأنها المرة الأولى التي تراني فيها بهذا النضج، لا تواصل الضحك أرجوك فهذا ذنبك أنت، أنت من جعلتني أعيش حياة كاملة بقلب طفلة، فلا تسخر أرجوك.

خالد، يا وغدي الكبير، كيف رحلت عني؟ لم ترحل الأماكن، ما زالت غرفتك قائمة، نظاراتك، وحقيبتك لم يرحلوا معك، ملابسك ووشاحك لا يزالوا هنا، لم تمحيك الصور يا زوجي، لا زالت صورتك معلقة على الحائط، هل تتذكر هذه الصورة التي التقطناها في إيطاليا؟

لم تتوقف الحياة بعد، الشمس تشرق كعادتها ويحل الظلام قاسٍ وعنيف وطويل جدًا يا أحشائي، لكن توقفت حياتي أنا.

كيف حالك يا طفلي الكبير؟ أريد أن أشتكي لك من قسوة الأيام، وبالطبع تملك وقتًا كافيًا لسماعي، فلطالما كنت أنا أهم أولوياتك دائمًا؛ الجميع هنا يُصِرُّ على أنه قد مضى عام واحد على فراقنا، وهذه الصورة تذكر التاريخ جيدًا؛ اللعنة على كل التواريخ يا عزيزي، عام واحد! أقسم لم أشعر بالعجز إلا في هذا العام، تجاعيد ملامحي كانت فرض قوة من الزمن، الأمراض، الملل، الهموم، الواقع، كل شيء حاول ملء قلبي شيخوخة وعجز أمامك، نحن لا نكبر بالزمن، نحن نشيخ بالفراق، وكان حبنا يحميني من كل خبث وداء، كنت أحمل ملامح الجدة وقلب وروح الحفيدة، كنت مزدهرة لأنك تراني هكذا، كنت جميلتك، حتى آمنت أنني أجمل نساء العالم،

عام واحد تزاحمت الحياة على قلبي، أعطتني كل السهام التي كنت تحميني منها، تملكت الشيخوخة مني بعدما عجزتْ عن الاقتراب مني خلال الخمسين عامًا التي عشتها معك، عام واحد أصيب قلبي بالحزن يا سعادتي وهنائي، أصيبت ملامحي بالتعاسة والعجز، حتى ابتسامتي لم تعد، أصبحت وحيدة جدًا، لا أحد يرافقني الطرق، لا أحد يحتسي معي فنجان القهوة، لا أحد يشاركني الحياة.

أحبك وأفتقدك يا طفلي الكبير.»

نظرت إلى يوستانيا فوجدتها في قمة ثباتها، واقفة أمام صورة خالد وتدعو له، كان يبدو أن الوقت قد مَرَّ ولم أتحدث معها بشكلٍ كافٍ، فشعرتُ أنَّ وجودي في تلك اللحظات يفسدها.

خرجت وعدتُ إلى شقتي، وعندما عدتُ وجدتُ دهب بالداخل.

ـ جِئْتَ مُبكرًا!

قال وهو يداعب قطعة حشيش أخرى بأنامله:

ـ لا يهم.

ـ كيف كان يومك؟

قال:

ـ اليوم كان الموعد السنوي للغدر بـ ديرا.

أخرَجَ ورقة من جيبه، ووضعها على السرير، ثم وهو يدخن السيجارة الأولى من الحشيش:

ـ بعد أسبوع من اليوم الملعون، اتصل بي والدها، وانتظرته في فيلَّتها، كان رجلًا متزنًا جدًا، سألني عن مصير مايكل، فأخبرته أن والدي تصرَّف، وحتمًا سيُعدم.

ثم دخلنا غرفتها، المؤلم أن تلك المرة كانت غرفتها ليست كئيبة، لم تكن الغرفة التي أعرفها، المصحف الشريف ماذا يفعل على سريرها؟!

فتحتُ الخزانة فلم أجد إلا ملابس طويلة وسجادة صلاة، كنت في حالة دهشة، أسطوانات لأدعية مختلفة، وصورتها فقط معلقة على الحائط بعد ما كانت صور للشيطان والعالم السفلي تزين كل أرجاء غرفتها.

لاحظ والدها اندهاشي، فسألني عن سبب اندهاشي، ولم أرد إلا بإجابة تكذب ظنونه.

وجدتُ على رف المكتبة مذكراتها الخاصة، فوضعتها في حقيبتي، لم أقضِ وقتًا طويلًا مع والدها، فقط تحدَّثنا عن أسباب الحادث، لكن ومع الأسف لم أشعر منه باهتمامٍ كبير، فاستأذنتُ وعدتُ إلى المنزل.

تصفحتُ المذكرات، ووجدتُ أنها لم تكتب شيئًا جديدًا، تصفحتها بتمعن أكبر، كانت بعض العبارات الجديدة فقط:

- **«أنا آسفة يا الله، هم مَن جعلوني بهذا السوء.»**
- **«الحياة مرهقة يا أمي، متى سنلتقي؟»**
- **«اليوم سأكون عروس الحفل، كم أفتقدك!»**

وفي الصفحة الأخيرة كتبت:

«دهب، هذه الرسالة كُتبت لك وحدك، لو شاء القدر حتمًا سأعطيك إياها ونحرقها معًا ونحن على فراش واحد، وإن لم يشأ لهذه اللحظة التي أنتظرها، فلن تكون قرآتك إلا بعد مفارقتي الحياة، تأكد أنني حاولت أن أكون جميلة.

لقد أحببتك بكل ما أوتيتُ من ضعف، لم أكن إلا فتاة عادية يا دهب، لم يحبني أحد، إنك لا تدرك كم أذوني الناس، أنا لم أفعل لهم شيئًا أكثر من أنني أردتُ أن أخرج عن قطيعهم، صدقني يا دهب إنَّ اقتحامك لعالمي كان الإنجاز الوحيد الذي حدث في حياتي.

لقد كنت مزيفة يا حبيبي، أضحك أمامهم وأبكي وحدي، أتظاهر بالقوة في حضورهم وأسقط في هشاشتي وحدي، أتحدى كل أعدائي الذين لا أعرف لماذا أصبحوا أعدائي من الأساس، ثم أعود وأرتعد لأنني لا أستطيع عبور الطريق وحدي، لم أتمنى أكثر من شخص مثلك ينتشلني من غربتي.

تخليت عن ديني وأصبحت ضمن مجموعة تعبد الملعون من أجل أن لا أشعر بالغربة، لكنني وفي نهاية كل يوم كنت أصلي وأستغفر من أجل أن يسامحني الله، كان جسدي أرخص ما أملك لأملأ شعور أنني لست غريبة؛ آهٍ لو تعرف قسوة أن تتخلى عن كل شيء من أجل أن لا تشعر بالغربة.

حتى أتيتَ أنت، كيف يجمعنا المرض إلى هذا الحد الذي جعلني أتمنى أن أُدفَن بين ضلوعك، أن تُخبئني عن العالم؟!

لم أكُن صامدة يا دهب، كنتُ بقايا وجع، دَمٌ مُتجمّد لدغته الغُربة فأفسدته، أتيتَ أنتَ وما أعظم مجيئك، أعدتَني إلى الحياة، أعدتَني للجنة التي هبطتُ منها فوجدتني بلا أُم.

ما أخشاه هو أن نفترق دون أن تعرف مدى امتناني وحبي لك، إنني أحببتك لأنني لم أجد معك إلا الأمان والطمأنينة، لم أشعر بالغُربة معك يا دهب، أخشى أن نفترق قبل أن يجمعنا فِراش واحد بالطريقة الصحيحة، دون أن نخرج ونعلن للناس زواجنا، والحياة يا دهب تلك التي حُرمتُ منها منذ اللحظة الأولى من ولادتي، أن أموت قبل أن نسافر معًا، أن يصبح لنا طفل يشبهك مثير للشغف والأمل، أن أموت قبل أن أشعر بشعور الأمومة.

لقد ودعتُ حياتي القديمة يا دهب، ربما سيبهرك التغيّر الذي ستراه، لكنني ودعتُ حياتي القديمة، أحاول جاهدة أن أكُون تلك الفتاة التي تمنيتها والمناسبة لك، فتاة تزعجها الألفاظ البذيئة، لا تدخن ولا تشرب الخمر، ودعتُ الفتاة التي لا تخاف أحدًا، أقول لك لو شاء القدر سيفاجئك التغيّر الذي أنوِ فعله، فقط يشاء القدر.

وهذه القلادة لن أرتديها اليوم، سأتركها في مذكراتي، وإن عدتُ فسأعطيك إياها، وإن حدثت مخاوفي فلا تخلعها أبدًا، أريد الحياة على صدرك يا موطني، لا تخلعها أبدًا.

أرجوك لا تبكِ، أرجوك لا تبكِ، سأشعر بك وأنا في ظلامي ووحشتي، يا لقسوة الموت يا حبيبي! أشعر به يوم زفافنا، كم أنا تعيسة!

أتمنى أن يخيب ظني، أن تكون ظنونًا وهمية، لكنني أشعر به حولي، لا تبكِ إن حدث، لا تبكِ، تأكد أنني أحببتك بكل ما أوتيتُ من ضعف.
وفي الختام أوصيك أن تكتب على قبري "حاولتُ أن أكون جميلة"، أوصيكَ أن لا تنساني في وحدتي، لقد عشتُ حياةً كاملة في غُربة، ولا أريد أن أشعر بغربة أخرى في قبري، تعالَ كل عام واطمئن عليّ، تعالَ وحدّثني عما حدث في حياتك بعد غيابي، لا تتركني كثيرًا في ظلامي يا دهب أرجوك، بحق لحظاتنا الجميلة، بحق كل لمسة دافئة وأمان حدثت بيننا، لا تتركني في ظلامي أرجوك، تعالَ وتحدث معي عن كل شيء مهما كان تافهًا وسخيفًا، تعالَ والمس قبري، سأشعر بك يا دهب، سأشعر بكل خطوة وكل دعوة.
حاولتُ أن أكون جميلة يا دهب، صدقني، حاولتُ أن أكون جميلة، أُحبكَ.»

بعد هذه الرسالة دخلتُ في مرحلة اكتئابٍ حاد، عامين ما بين الأطباء النفسيين، والنتيجة واحدة "أنت المسؤول الأول عن علاجك"، كنت أعرف أنني لن أُشفَى بسهولة، وإن تعافيت من الاكتئاب فماذا عن شعور الغُربة واللا انتماء لهذا العالم؟!
عامين وحدي، أو كما صَحَّ التعبير مع الناس لكنني وحدي.
انتفض الشعب وحدثت الثورة ولم أُحَرّك ساكنًا، أُقيل أبي من منصبه ورُجِمَ من محاكمة قاسية ولم أُحرِّك ساكنًا، ظهر القائد وجماعته على منصات الخطابات السياسية ولم أُحَرّك ساكنًا، حُكم على مايكل بالإعدام ونُفِّذَ الحُكم، ولم أُحَرِّك ساكنًا، تغيّر العالم سريعًا في عامين فقط، ولم أُحَرِّك ساكنًا.

قضيتُ عامين في غرفتي بين اللوحات والروايات، وكما يقدم الموظفون استقالتهم قدمتُ أنا استقالتي من العالم، حتى قررت الذهاب للجامعة من جديد، كلية "السياحة والفنادق"، كانت الهيئة التعليمية رحيمة بي، فالعُذر الذي قدمته قبل عامين قد قُبِلَ وتفهموه، كنت وحدي كالعادة لا صديق لي.

حتى يوم حدثت مشادات بين مجموعة من شباب الجامعة والأمن الخاص بالجامعة، كنت وقتها أجلس على سلم المبنى أتابع المشادات وأنا أستمع إلى الموسيقى، ولسبب ما لا أعرفه قرر أحدهم الوقوف أمامي، ثم ركلني في وجهي وهو يقول:

- **«أنت معهم.»**

لم تكن الضربة قوية لكنها كانت مباغتة، فنهضتُ ثم ركلته بكل ما أوتيتُ من غضب، فتدخلتْ إحداهن وكانت تجلس بجُواري:

- **«توقف، توقف! هذا ليس معهم»**

انتهت المشادات معي بعدما تجمعوا عليَّ وظلُّوا يركلونني مع الكثير من اللعنات التي لا أعرف سببها، صرخت الفتاة وطلبت النجدة، لكن لم ينقذني أحد، حتى رحلوا، فذهبت الفتاة وعادت بسيارتها، ونقلتني إلى المستشفى.

لم تكن الجروح عميقة، لكنها كانت كثيرة جدًا ومتفرقة في أنحاء جسدي، جلستُ على السرير وبدأت الممرضة بعمل الإسعافات الأولية، كانت الفتاة تجلس بجواري في حالة قلق غريبة.

- **«أنا آسفة، ليتني استطعتُ مقاومتهم!»**

كنت متعبًا، حتى أبسط الكلمات كانت تُتعبني.

- **«أريد العودة إلى المنزل.»**

قالت:

- **«كما تريد، لحظة فقط!»**

خرجتْ الفتاة ثم عادت وساندتني حتى سيارتها..

- **«أين تسكن؟»**
- **«جاردن سيتي.»**

انطلقت بسيارتها حتى العقار، وظلت معي حتى وصلت إلى الشقة.

ما إن رأتني أمي حتى صرخت، لكنني ذهبتُ مباشرةً للغُرفة دون أن أهتم لصراخها، دخلتُ ثم ارتميت على السرير في نوبة بكاء قاسية جدًا، ولم أفِق إلا في صباح اليوم التالي، حين أيقظتني أمي وأخبرتني أن بعض زملائي في الجامعة ينتظرونني في صالة منزلنا، وبطريقة الأم المعتادة قالت:

- **«لم تخبرني أنك على علاقة بفتاة بهذا الجمال يا وغد!»**

لم أرد عليها، لم أفهم ماذا تقصد من الأساس.

ثم أصدقائي! أنا لا أعرف أحدًا في ذاك المكان الملعون!

خرجتُ لهم بعد ما ارتديتُ ملابسي، كانت فتاة الأمس وشاب وجهه بشوش، بادلوني الابتسامة والعناق، واستمر الصمتُ ثوانٍ، حتى قطعه الشاب:

- **«أهلًا دهب، نعتذر عن زيارتنا المفاجئة، لقد أخبرتني "سارة" بما حدث، أعتذر لك.»**

نظرتُ إلى الفتاة، فقالت:

- **«آسفة، أنا سارة، وهذا "الغندوري"، قائد رابطة التشجيع "الأولتراس"[٢١] الخاصة بالنادي الأهلي.»**

قلت:

- **«أنا لا أفهم، لست مهتمًا بالرياضة، ثم لماذا تم ركلي من الأساس؟ هل يعاقب الأمن مشجعي النادي الأهلي؟»**

واصل الغندوري وهو يضحك:

- **«شيء من هذا القبيل، ما حدث بالأمس أن مشادة قد تمتْ بين أحد أفراد مجموعتنا، وبعض أفراد الأمن، ووصل الأمر لاشتباكات عنيفة بيننا وبينهم، كنت وقتها وحسبما علمتُ من سارة أنك ترتدي قميصًا أحمر، فظنوا أنك معنا فانتقموا منك، على أيِّ حال، أُقدم لك اعتذاري بالنيابة عن المجموعة.»**

قلت:

- **«يا لهم من حمقى! ماذا لو كنتُ مِتُّ تحت أقدامهم؟»**

قال الغندوري:

- **«لقد اعتدنا على تلك التصرفات.»**

قالت سارة:

- **«الموت دائمًا ضريبة الحرية.»**

---

[٢١] الأولتراس: كلمة لاتينية تعني "المتطرفين"، وتظهر بصورة مجموعات مشجعي الفرق الرياضية والمعروفة بانتمائها وولائها الشديد لفرقتها، وتتواجد بشكلٍ أكبر بين مُحبي الرياضة في أوروبا وأمريكا الجنوبية، وحديثًا في دول شمال أفريقيا؛ وقد أُنشئت أول فرقة أولتراس عام ١٩٤٠ بالبرازيل وعُرفت باسم "torcida".

شعرتُ بوغزةٍ في قلبي، وتذكرتُ ديرا التي لم أنسَها:

- **«نعم الموت دائمًا ضريبة الحرية.»**

نهض الغندوري واستعد للرحيل مع سارة وهو يقول:

- **«ننتظركَ غدًا في الجامعة.»**

وبعد أن ودعتهم، جاءت أمي وأخبرتني ما حدثت بالأمس:

- **«هذه الفتاة رؤيتها تطمئن القلب، لقد طمئنتني عليك، وقالت أن الجروح بسيطة، لكن لما لم تخبرني عنها من قبل؟»**

رددتُ:

- **«أنا لا أعرفها يا أمي.»**

انتهى اليوم، وفي الصباح اتجهتُ إلى الجامعة، لم أحضر محاضراتي، بل كنتُ في حاجة للجلوس وحدي، رحتُ وجلست على السلم.

مرت ساعة حتى جاءت سارة، كانت ترتدي قميصًا قصيرًا وتربط حول خصرها قميصًا آخر، ذاتَ ملامح قمحاوية ورباطة شعر تخفي طوله الحقيقي، وعلى رقبتها وشاح الانتفاضة الفلسطينية؛ جلست بجواري ثم بدأت الحديث:

- **«حمدًا لله على سلامتك.»**

لكنني لم أرد، لا أعرف لماذا كنت سخيفًا معها.

قالت:

- **«أنا مَدينة لك بالكثير.»**

قلتُ:

- **«لا أفهم، مدينة لي بماذا؟!»**

قالت:

- **«أنا سارة، صحفية بجريدة "شباب الحرية" ، لقد كنتُ أختبئ من مطاردات الأمن، فجلستُ بجوارك وكأنني صديقتك، شعرتُ حقًّا بالأمان؛ فأمر غريب أن يشعر أحدهم بالأمان معك وأنت لم تقدمه له شيئًا يذكر.»**

واصلتْ:

- **«أنا أعرفك، منذ فترة طويلة، فقد تابعتُ قضية مقتل ديرا.»**

قاطعتها ونهضتُ من مكاني:

- **«المعذرة! إلى اللقاء.»**

شعرتُ بضيقٍ في صدري، لطالما أوجعني الحديث عن هذا الأمر.

خرجتُ من الجامعة، فخرجتْ ووقفتْ أمامي بسيارتها، ثم قالت:

- **«يمكننا احتساء فنجان من القهوة، وأعدك لن أُزعجك»**

- **«آنسة سارة، من فضلك، أنا مُمتن لما فعلته معي وهذا كل شيء.»**

قالت:

- **«إذن أنت مَدين لي بشكرٍ عمَّا فعلته، لن أطلب منك أكثر من فنجان قهوة»**

تنهدتُ ولأتخلص من هذا الدين وافقتُ على طلبها.

اتجهنا لأحد مقاهي وسط المدينة، كانت تحاول بشتَّى الطرق خلق أحاديث معي، لكنني كنتُ أقابلها بالرفض المتعمَّد.

حدثتني عن حياتها، وعن انضمامها للحركة الثورية التي نشأت بذكرى ثورة عمال الغزل والنسيج في محافظة الغربية، ثم عن مطاردات الأمن لها،

وعن دفء الميدان، وعن آمالها في تحقيق أهداف الثورة النبيلة، ثم تطرقتْ لموضوع معرفتها بأن والدي كان يعمل بالأمن الوطني، وتبع ذلك محاولات مستمرة في خلق أي حديث معي دون جدوى، فبدأتْ بالأسئلة:

- **«ما رأيك في الثورة؟»**

- **«لم أهتم، لكن وبالتأكيد لست راضٍ عما حدث، صحيح أن هذا الشعب عانى كثيرًا، لكنني لا أظن أن الفوضى التي حدثت كانت ردًا على أفعال الحكومة، السرقة أيضًا لم تكن رد فعل منطقي عما حدث، إنما هي تصرفات فوضوية تدل على أن الشعب لا يهتم إلا بإرضاء بطونه، لو خرج الرئيس في البداية وأعلن عن حدٍ أدنى وأقصى للأجور وتوفير فرص عمل طارئة للشباب لانتهى الأمر، حتى تصرف الثوار بالابتعاد عن الميدان بعد عزل الرئيس كان تصرفًا ساذجًا صبياني لا أكثر.»**

دخلنا في نقاشٍ حسب اختلاف وجهات النظر؛ هي الثورية المتحمسة وأنا الهادئ اللا مبالي، انتهى ذلك النقاش بمجيء الغندوري.

تحدثنا قليلًا عن حياة الألتراس، ثم دعاني لحضور إحدى المباريات، أخبرته أنني لا أتابع الرياضة، فقالت سارة أن أعتبر الأمر نوعًا من أنواع التغيير.

"مذبحة بورسعيد"

مضت خمسة أشهر على انضمامي لهم، ولم أتعافى من الاكتئاب، لكن على الأقل أصبح لدي عالم جديد، كنت كـ إبراهيم أبحث عن ضالتي؛ فظهور ديرا أعاد إليَّ الأمل في الحياة، ورحيلها حطم كل آمالي، فالناس لا يموتون باليأس، إنما يموتون بفرط التعلق بالأمل.

أصبحتُ جزءًا منهم، صحيح كنتُ لا أفهم أغلب ما يحدث، لكنني أحاول الاقتراب منهم أكثر؛ بدأتُ تدريجيًّا أتابع المباريات، وأذهب لحضورها وأسافر معهم.

آه يا ديرا، لقد أصبحت شخصًا اجتماعيًّا أكثر، لدي الكثير من الأصدقاء، عالم لا يخلو من الدفء والأمان.

وعن سارة فكان الوضع مختلفًا، أصبحتْ تملأ جزءًا كبيرًا من عالمي، اتفقنا على أن نبقى أصدقاء، أصدقاء فقط؛ لطالما حاولتْ الاقتراب مني أكثر، لكنني كنت أضع حدودًا وحواجز تمنعها من الاقتراب أكثر.

وذات يوم اجتمعنا في إحدى مقاهي وسط المدينة، كنا نستعد للسفر في الصباح لمدينة بورسعيد وحضور مباراة "المصري والأهلي" التي تقام على ملعب النادي المصري[٢٢].

[٢٢] ملعب النادي المصري: أو "ستاد بور سعيد"، هو ستاد متعدد الاستخدامات، يقع في مدينة بور سعيد بمصر، وهو الآن يستخدم في مباريات كرة القدم حيث يُعد الملعب الرسمي للنادي المصري، أُسس عام ١٩٥٣ وافتُتِحَ رسميًّا في أكتوبر ١٩٥٥؛ تم إيقاف اللعب به لمدة ٦ سنوات بقرار من الاتحاد المصري لكرة القدم في سلسلة العقوبات التي طُبقت بعد "حادث ستاد بور سعيد"، وأُعيد فتحه في عام ٢٠١٨ في المباريات الإفريقية حيث أُقيمت عليه أول مباراة يوم ١٠ فبراير٢٠١٨.

تحدث أحد الأعضاء عن احتمالية حدوث اشتباكات بيننا وبين جماهير الخصم، فأمر القائد صغار المجموعة المتعصبين بتجنب أي احتكاكات، وأمر كبار المجموعة بأعلى درجات ضبط النفس؛ أما الغندوري فكان صامتًا على غير عادته، وكانت سارة تتحدث عن اشتباكات المباراة الماضية، وأنها مرت وانتهت لكن الأمن لم يرد بعد، وأنها تتوقع أن حدوث الاشتباكات إذا حدثت مجددًا لن تكون إلا مع أفراد الأمن.

رد "عمر جان" أحد أفراد المجموعة:

- **«لا أعرف، لكن أتمنى حقًا أن تكون مجرد اشتباكات عادية.»**

بسذاجة قلت:

- **«ربما لن يحدث شيء.»**

كتب أحد مسؤولي صفحة الأولتراس تنويهًا عن موعد المباراة؛ فتحدثتُ مع الغندوري عن رحلة الغد، فرفض ذهابي لهذه الرحلة، خاصةً أنه كان يعلم بصعوبةِ فترة الامتحانات التي أَمَرُّ بها، لكنني أخبرته أنني مُصِرٌّ على السفر، وهو كان يرفض بصرامة.

أيضًا حاولتْ سارة إقناعي بعدم السفر معهم، وفي المساء اتصلتْ بي سارة:

- **«دهب، أنا قلقة بشأن الغد، أشعر أن مكروهًا قد يحدث.»**

ضحكتُ في محاولة لأطمئنها:

- **«لن نهزم، لا تقلقي.»**

قالت:

- **«لا أقصد المباراة، أقصد الاشتباكات، شيء ما يخبرني أنها لن تمر بسلام، خصوصًا بعد توعد أولتراس نادي الاسماعيلي بالانتقام من مجموعتنا.»**

قلت:

- **«سنشاهد المباراة معًا»**

قالت:

- **«لدي صديق مُصمم على السفر، وهو لا يعرف أي شخص من أفراد المجموعة، ربما سأسافر معه»**

رددت:

- **«حسنًا، فلننتظر حتى الصباح.»**

ما إن أنهيتُ المكالمة مع سارة حتى اتصل بي "عمر جان":

- **«دهب، أفكر جديًا في عدم السفر، إياك إن تسافر!»**

قلت:

- **«عمر، أنت قائد لإحدى المجموعات، لطالما كانت تعجبك المناوشات، منذ متى يا رجل وأنت تخاف السفر؟»**

في هدوء شديد قال:

- **«لا أعرف، لكن قلبي يرتجف!»**

فطمأنته هو الآخر، وأنهينا المكالمة على أنه سيفكر في الأمر.

استيقظتُ في الصباح، واتجهتُ إلى الجامعة، وأدَّيتُ الامتحان، ثم اتصلتُ بسارة والتقينا وذهبنا لنودع أصدقائنا.

كنتُ قد قررتُ السفر، لكن ما إن رآني الغندوري حتى انفعل وأمرني بالرحيل، انصب انفعاله أكثر على سارة التي ثار عليها بكلماتٍ قاسية، فقالت:

- **«هذا صديقي، ويريد السفر، وهو لا يعرف أحد سواي!»**

تبادل الغندوري وصديق سارة التحية ثم قال لها:

- **«لا تقلقي لن أعود إلا معه، ابقوا أنتم هنا.»**

الكثير من الأعلام الحمراء، وأدوات التشجيع، والرقص مع الجنون والحماس المعتاد قبل الترحال، والأغنية:

«عمري ما أحب غير الأهلي ولا في غيره يفرحني..
دايمًا معاه ولآخر الكون عمري علشان الأهلي يهون..
يوم نصره ليا عيد، عمري ما هكون بعيد..
ويوم ما أبطل أشجع هكون ميت أكيد..
من صغري بعشقه، عايش جوا قلبي واسمك هرفعه..
مش قادر أوصف حبي ليك يا أهلي الموت هيوقفه..»

تزعجني كلمات هذه الأغنية، يزعجني الحديث عن الموت بهذه البساطة، وقد كانت حالة القلق تسود الجميع بلا استثناء، ويتحدثون عن المناوشات المنتظرة.

ودعناهم، ثم ذهبنا لأحد المقاهي، ومن وقتٍ لآخر كنت أطمئن على الغندوري، كانت سارة قلقة، خصوصًا بعدما أخبرها أحد أصدقائها بتوقف القطار عند مدينة الإسماعيلية وحدوث مناوشات ومشادات بين مجموعتنا وبعض المتعصبين في المدينة، بعد ساعتين اطمئننا على المجموعة ووصولهم سالمين لمدينة بورسعيد.

تحدثتُ مع الغندوري عن الأجواء، فقال أنه يشعر بشيءٍ غريب يحدث، حيث قال نصًّا:

- **«نشعر وكأننا خارج مصر، ليس هذا جمهور كرة القدم، إنهم أشبه بالبلطجية، أتمنى أن ينتهي كل شيء دون أي خسائر.»**

بدأت المباراة، كان الملعب مزدحمًا، التلفزيون يقطع ويبث أصوات الجماهير التي ومن الواضح أنها تبادل عنيف للشتائم.

قالت سارة:

- **«أرجو أن لا يرفعوا اللافتة.»**

تساءلتُ:

- **«أي لافتة..؟»**

قالت:

- **«بلد البالة ما جابتش رجالة.»**

لكن وقبل نهاية الشوط الأول رُفعتْ تلك اللافتة الملعونة.

وبين الشوطين علمنا بنزول بعض جماهير المصري من المدرجات وتصدي الأمن لهم، فاتصلتُ بالغندوري على الهاتف، وقد بدا متوترًا جدًا:

- **«شيءٌ غريبٌ يحدث، لقد دخل عددٌ كبيرٌ من الجماهير دفعة واحدة، ولم يجلسوا مع جماهير المصري في المدرج الخلفي، بل جلسوا بالقرب منا، هيئتهم تثير القلق، ليسوا مجرد مشجعين، وأتمنى أن يخيب ظني.»**

ثم اغلق الهاتف فجأة.

الوضع متوتر، حتى بدأتُ أشعر بقلق سارة.

بدأ الشوط الثاني، والمباراة تسير باتجاه الخصم، وللمرة الأولى سمعتُ سارة تقول لنفسها:

- **«أتمنى أن تكون الخسارة فقط هي خسارة مباراة.»**

قبل نهاية المباراة بخمس عشر دقيقة اتصلتُ بالغندوري على الهاتف مجددًا، وبعد عدة محاولات أجاب على اتصالي، لكن لم يتكلم، فقط سمعته يصرخ:

- **«إلى الأعلى.. إلى الأعلى.. احموا النساء والأطفال.. قفوا هناك.. امنعوا القادمين من الجانبين.. تصدوا لهم.. حافظوا على تنظيمكم.. حافظوا على ثباتكم.. احموا النساء.. احموا الأطفال.. إلى الأعلى.. إلى الأعلى..»**

ثم انقطعت المكالمة.

سألتني سارة عما يحدث فطمأنتها وأنا أرتجف، كنتُ أعلم أنهم لن يخرجوا سالمين، لن يخرجوا من بورسعيد.

وبعد نهاية المباراة، اتصلت سارة بصديقها، لكن هاتفه كان مغلقًا، فاتصلنا بكل من نعرفهم، لكن الجميع هواتفهم مغلقة.

برامج التحليل كانت تقول أن إضاءة الملعب انطفأت قبل موعدها الطبيعي، والكاميرات تصوِّر ركض الجماهير ناحية المدرجات، بالإضافة إلى أسلحة بيضاء، ولاعبي فريقنا يركضون وخلفهم بعض الجماهير، وأحد مراسلي البرامج يصرخ:

- **«كارثة حقيقية تحدث في ملعب بورسعيد، أُناشد الجيش بإنقاذ الموقف..»**

توترت الأجواء أكثر، وعلى صفحة الأولتراس كُتِبَ:

"أنباء عن وقوع ضحايا في بورسعيد."

صرخت سارة واتصلتْ بأحد المسؤولين عن الصفحة، لتجده يصرخ قائلًا:

- **«مذبحة.. ما يحدث الآن مذبحة.»**

ثم أغلق الهاتف..

على صفحات الإنترنت تداولت الأخبار:

«سقوط قتلى بين صفوف جماهير الأهلي..»

والفضائيات تنقل الأخبار، لا حديث في مصر إلا عن عدد القتلى.

صب دهب الكأس إلى آخره، وواصل وهو يشعل لفافة التبغ الثانية الممزوجة بالحشيش:

ـ كانت سارة تنهار بالمعنى الحرفي لكلمة انهيار، هواتف الجميع مغلقة، وكنا نسير في الشوارع كالمجاذيب لا طريق لنا، نقف أمام منازل أصدقائنا، وصوت القرآن يظهر خلف النوافذ، اتصل والد صديق سارة بها أيضًا، لكنها لم ترد.

كالمجاذيب يا سراج، كالمجاذيب كنا نجول في الشوارع، في أماكن تجمعاتنا، في المقاهي التي عرفتنا، كانت سارة تبكي، وأنا في حالة ذهول وبكاء متواصل، كنتُ أنظر للعالم وداخلي يقول:

اصمتوا يا عالم، اصمتوا، كيف تمارسون حياتكم بشكلٍ طبيعي؟، لقد مات أصدقائنا.

في تلك اللحظة رن هاتفي:

- **«أبي، أتوسل إليك، أتوسل إليك افعل أي شيء، أرجوك يا أبي!»**

لا أتذكر أكثر من أنه قال:

- **«لا أحد يعرف ما يحدث..»**

وللمرةِ الأولى سمعتُ صوت أبي يبكي:

- **«تماسك يا بُني، تماسك أرجوك!»**

بعد ساعة رن هاتف سارة مجددًا، وكان المُتصل والد صديقها:

- **«البقاء لله، لقد وَدَّعَ حياته.»**

ثم أغلق الهاتف.

سقطت سارة وارتطمت بالأرض، فنقلتها إلى أقرب مستشفى متاح، وأنا أتابع الأخبار، أصبح الأمر حقيقيًّا:

«سقوط قتلى بملعب النادي المصري..»

وكلما اتصلتُ بمنزل أحد لا أسمع سوى: **«البقاء لله.»**

الغندوري!

لا هذه مزحة بالتأكيد!

اتصلتُ بأهله على الهاتف لأجد الرد:

- **«البقاء لله.»**

والصراخ يملأ المكان.

كنت أستقبل خبر وفاتهم كأنني أتابع صفحاتهم الشخصية، ومن فظاعة الموقف كنت أبتسم، والموت يقف أمامي ويبتسم؛ ديرا بين ذراعيه وتحت أقدامه أصدقائي.

صمت دهب صمتًا طويلًا، ثم قال:

ـ بعد هذا اليوم بشهرين، اجتمعنا للمرة الأولى؛ أربعة وسبعين شابًا قُتلوا غدرًا، لم يكتفي الموت منهم، بل قرر معاقبتنا بفقداننا لهم.

للمرة الأولى بعد الحادثة تجمعنا في مكان لطالما شهد على اجتماعاتنا، هنا كنا نسهر، وهنا كنا نستعد للمباريات، وهناك كنا نرقص، وهنا كان التجمع الأخير.

لم يعد أحد من بورسعيد، حتى الذين نجوا من الموت ماتت أشياء بداخلهم، ماتت أشياء لن تعود أبدًا؛ في خيالي المريض كنت أقول:

"سيعودون الآن ليخبرونا بأن كل ما حدث كان مزحة، ربما لم يمت كل هذا العدد وهم فقط في حالة إغماء طويلة"

كانت تتصل بي سارة بعد منتصف الليل وهي تقول:

- **«لقد رأيت الغندوري، وأوصاني بالسلام لك، ولقد قابلتُ عمر جان، سيعود قريبًا، هو فقط في رحلة..»**

ثم تدخل في نوبة بكاء قاسية، فأبقى معها على الهاتف حتى تغدو في نوم عميق، ومِن ثَمَّ أتخيَّل وجود أصدقائي، المواقف التي جمعتني بهم، ذكرياتنا.

اللعنة، كيف رحلوا بهذه البساطة؟ لماذا لم نرحل معهم؟

لا يهم مَن القاتل فلن تعود الأشياء التي قُتلت بداخلنا مهما حدث.

سألني دهب:

ـ والآن ستسألني عن علاقتي بسارة؟

أقول لك أن بعد الحادث الملعون تغيّرت نظرتي للحياة، حتى هي لم تعد تلك الفتاة المشرقة التي عرفتُها، شيءٌ ما بداخلنا جميعًا قد انطفأ، مات يا سقراط.

عدت لاكتئابي، لعزلتي، لم أعد أثق بوجود أحد، شعرت أكثر بفقداني لـ ديرا.

أنا الملعون تعيس الحظ، لم أجد ضالتي في أي شيء، فقررتُ أن أكون لا شيء.

ومن أجل هذا القرار وذات يوم اتصلت بسارة، طلبت منها أن نلتقي عند سلم مبنى الجامعة، هذا المكان الذي شهد على أول لقاء بيننا..

«النهاية»

- «سارة، لقد فكرت كثيرًا في مصير علاقتنا.»

ضحكت:

- «حسنًا، لن يمانع أبي زواجنا!»

قلتُ:

- «اسمعي من فضلك! لقد عشت حياة غريبة يا سارة، بدأت طفولتي بشعور الغُربة، انضممت لجماعات متشددة من أجل البحث عن ضالتي وانتمائي، لكنني وجدتني أكفر بما يعبدون، فانضممتُ لمن يكفرون به ويعبدون عدوه الملعون، فلم أجد سوى ديرا أنتمي لها، وقُتلتْ ديرا، وكأن الموت يأبى انتمائي لأي شيء؛ عشتُ غريبًا عن الجميع، غريب بما يكفي عن الناس، أنا لا أنتمي، حتى بعد ما وجدتُ شيئًا من انتمائي في مجموعتكم، قرر الموت مرة أخرى انتهاك انتمائي ومعاقبتي ثانيةً.

والآن أعترف لك بأنني أُحبكِ، لكن المسألة الآن مختلفة؛ سأرحل يا سارة، من الآن وحسب اعتبري أنني مِتُّ مع أصدقائنا في بورسعيد، أعرف أن هذا ليس الوقت المناسب للرحيل، لكنني لا أتحمل وجودي هنا، لقد حكمتْ عليَّ الحياة بالعَيشِ وحيدًا منفردًا، سأرحل وأنا أعرف قسوة ما سأتركه في قلبك، وأعرف أن قلبكِ لا يستحق كل هذا العناء، لكنني لا أريد الشقاء الأبدي لكِ بوجودكِ معي؛ الحياة تؤذيني بما يكفي، وأنتِ لا تستحقين الأذى.

غدًا ستشكرينني على ابتعادي عنكِ، ستفهمين أنني ابتعدتُ لأنني أُحبكِ.

والكثير من الصمت بعد ذلك لأنني لا أستطيع وصف ما يحدث بداخلي الآن؛ وداعًا.»

ثم تركتها ورحلت، ومنذ هذا اليوم يا سقراط قررتُ أن أَهِبَ نفسي للغُربة، أُفكر في الموت ألف مرة، شعور الغربة يا سقراط كفيل بإنهاء حياتك، أعني أنني أعيش الآن من أجل العيش فقط.

تراودني أحيانًا فكرة إنهاء كل شيء، أتجوّل في الشوارع كالدراويش يومًا تلو الآخر، بحثًا عن شيءٍ أنتمي له، أنا بقايا ذكريات، أحيا على ذكرى الانتماء الناقص، فلا شيء مثير، ولا شيء يعجبني، ولا شيء أنتمي إليه، غريب جدًا عن هذا العالم، وكأنني هنا عن طريق الخطأ، وحتمًا لن يدوم هذا الشعور، ربما سأجد ضالتي ذات يوم في شيءٍ كامل، في شيءٍ أبدي، ربما ومَن يعلم! ربما.

صب دهب كأسًا آخرًا، ثم جمع أشيائه ورحل دون أن يودعني.

تركته يرحل، فلقد أنهى كل شيء وأخبرني بكل شيء.

ليل طويل بدأ برحيل دهب، الوحدة التي قادت سوما للهاوية هي نفس الغُربة التي جعلت من دهب شخصًا ميتًا على قيد الحياة، فالذي يدفع شخصًا للانتحار ليس أكثر من معركة تحدث بداخله، معركة تستهلك طاقته كل يوم، هي زحمة أفكار وقرارات ورغبات واضطرابات لا يعرفها إلا الشخص نفسه.

نحن وبشكل يومي ومع بداية كل يوم جديد نخوض معركة واحدة على الأقل في حياتنا، البعض يخوضها من أجل المال، السلطة، النفوذ، اليأس، أو حتى الموت، لكن لن يخضع أحد لقرار الانتحار إلا عندما يخوض معركة دامية مباشرة ضد الحياة، ليست قسوة المعركة مع الحياة في هزائمها، إنما في شعورنا الدائم أن مهما حققنا من إنجازات وانتصارات سنُهزَم في النهاية.

الحياة هي الحرب الوحيدة التي ومهما حاربت ومهما كافحت ضدها تستطيع بإشارة واحدة منها أن تُنهي كل آمالك في النجاة منها؛ كم مرة ظننتَ أنكَ على وشكِ الفوز بها ثم اكتشفت أنك لم تبدأ بَعد؟

نحن أبناء "سيزيف الإغريقي"[٢٣] نحيا معاناته على الأرض، لكننا نملك قرار الانتحار، نملك الحق في اختيار نهايتنا، وأصعب ما في معركتنا مع الحياة هو أن يكون الموت هو الحل والهدنة الوحيدة من تلك المعركة.

لا أعرف لماذا لم أُفكر في الانتحار، لكنني بدأتُ أتأقلم على فكرة أن أبتلع الحياة.

[٢٣] أسطورة سيزيف: كان أحد أكثر الشخصيات مكرًا بحسب الميثولوجيا الإغريقية، حيث استطاع أن يخدع إلـه الموت "ثاناتوس" مما أغضب كبير الآلهة "زيزس"، فعاقبه بأن يحمل صخرة من أسفل الجبل إلى أعلاه، فإذا وصل إلى القمة تدحرجت الصخرة إلى الوادي، فيعود إلى رفعها إلى القمة، ويظل هكذا إلى الأبد، فأصبح رمزًا للعذاب الأبدي.

أتذكر ذات يوم خيرتني أمي بين وجبة الخضراوات ووجبة الدجاج المقلي، يومها رفضتُ الخيارين، وقضيت يومًا كاملًا بمعدة خاوية تمامًا، حتي اشتد الألم بمعدتي، فانتظرتُ حتي الصباح ثم ذهبت إليها:

- **«أريد وجبة أخرى!»**

في هدوءٍ تام قالت:

- **«لا يوجد سوى وجبتي الدجاج والعدس.»**

في حالة غضب وثورة اتجهت إلى غرفتي رافضًا خيارات أمي التي لا تناسبني.

الكبرياء! نعم، كنت طفلًا متعاليًا أرفض الخضوع للافتراضات، وأرفض الاختيار بين عدة خيارات لا تعجبني بالأساس.

مَرَّ يوم آخر وأنا صائم عن الطعام، حتي استيقظتُ فجرًا من شدة الآلام، كانت معدتي تضيق أكثر فأكثر، بحثتُ بين رفوف الثلاجة عن شيء يستطيع ملء أركان معدتي الخاوية، لكن دون جدوي.

حسنًا، الدجاجة، على الأقل مذاقها أقل بشاعة من العدس، وكمدمني الهيروين أسرعتُ نحو الموقد فلم أجد إلا العدس!

صرختُ في المطبخ حتي استيقظت أمي مفزوعة، سألتها:

- **«أين الدجاجة؟»**

بعدم اهتمام قالت أمي:

- **«لم يتبقَ سوى العدس.»**

صرختُ في وجهها:

- **«لقد أخبرتني أن هناك وجبة دجاج!»**

قالت وهي تشعل الموقد:

- **«الآن لم يتبقَ إلا العدس.»**

وأنا أضرب الأرض بأقدامي:

- **«لا أحب العدس يا أمي.. لا أحب العدس!»**

وهي تطعمني العدس في فمي رغمًا عني قالت:

- **«ابتلعه!»**

صرخت من مرارة مذاقه:

- **«لن أفعل.»**

شدَّتْ على فمي:

- **«لا مفر، ابتلعه وإلا ستموت جوعًا.»**

والآن وبعد عمرٍ طويل يا أمي تعلمتُ أن الاختيار بين الأشياء التي أحبها والتي لا أحبها رفاهية لا أمتلكها، وفي الكثير من المواقف تخيرنا الحياة بين السيِّئ والأسوأ، بين الأسود والكحلي، بين مرارة العلاقات وأوجاعها وبين مرارة الوحدة وقسوتها، تعلمتُ أن أبتلع الآلام حتى لا يبتلعني اليأس، وأن أتجاوز اللحظات الحزينة حتى لا تبتلعني الوحدة، تعلمت أن أبتلع الحياة يا أمي.

في الصباح..

استيقظتُ وأنا أفكر في أمر دهب، هل حقًا هو صاحب رسالة الانتحار؟ لا أعرف حتى الآن.

وكانت يوستانيا دائمًا هي الحل الوحيد الذي ألجأ إليه لأفكر.

العجوز دائمًا تستقبلني بابتسامتها الصادقة الجميلة، دائمًا تهوّن عليَّ قسوة التعب والتفكير؛ دعتني للدخول، وفي تلك المرة لاحظت تفاصيل جديدة في منزل العجوز، كالديكورات القديمة العتيقة، جرامافون مع هاتف منزلي قديم، وأثاث ذهبي يدل على قيمته، وبعض اللوحات الفنية لـ فنسنت فان جوخ.

رائحة هذا المنزل تشعرني دائمًا أنني في متحف أو مسجد أو كنيسة قديمة مهجورة، شيء ما في هذا المنزل يجعلني أشعر بالدفء والأمان.

جاءت العجوز بالقهوة، ووضعتها على الطاولة، ثم جلست أمامي وسألتني عن دهب، فأخبرتها بكل ما أخبرني به، فسألتني:

ـ وما رأيك أنت يا سراج؟!

بعد تفكيرٍ طويل رددتُ:

ـ أحيانًا أتساءل لماذا لم ينتحر أولئك البؤساء حتى الآن؟ ماذا لو كان من باب العدل والشفقة أن نقتلهم مثلًا؟ هل حقًّا سننفذ تلك الخطوة من أجلهم؟ لا أعرف؛ لكنني حقًّا تمنيتُ أن أقتل كل تعيس أقابله، فهذا الأبله لا يعرف أن راحته في الموت، في الفناء.

ضحكتْ بهدوء:

ـ ومن سيقتلك أنت؟

قلتُ:

ـ لن أُقتل، أنا لست تعيسًا!

قالت:

ـ لكنك تهتم وتتأثر كثيرًا يا عزيزي، وهذا سيجعلك أشد تعاسة منهم.

لم أرد على كلام العجوز، فواصلتْ:

ـ تعرف ما المشكلة الحقيقية في كل هذا يا سراج؟ أننا نجاهد من أجل حل ألغاز العالم، لكننا نعجز عن حل لغزٍ واحد يتعلق بنا، بطريقة أو بأخرى نحن نهرب من ضجيجنا الداخلي بالاستماع لغيرنا، نتأثر بمشاكلهم وحياتهم، وننخرط بداخلهم خوفًا من مواجهة حقيقتنا وحياتنا نحن، إننا نهرب، اعتدنا الهروب دائمًا يا سراج، لكن هل الهروب ضعف؟ صدقًا لا أعرف؛ لكنني أُشفق دائمًا على أولئك الذين اعتادوا الهروب، فما الذي يجعل شخصًا يهرب من الواقع طوال الوقت إلا حياة في غاية القسوة؟ حياة بلا هدف وبلا أمل وبلا روح، علاقات محطمة من كل اتجاه، أحلام فانية، أمنيات تنزلق من بين أيديهم، وشعور دائم بالغربة واليأس!

صدقني، إن أولئك الذين اعتادوا الهروب من الواقع هم أكثر ظلمًا ويأسًا في الدنيا، أن تكون في العقد الثالث من العمر وتهرب من الواقع طوال الوقت يعني أنك حقًا تتحطم في كل لحظة تواجه فيها الحقيقة، أن تفقد شغف الأيام وكأنك عشت سنين وسنين، أن تصبح بتلك الوحدة وكأنك مُسنٌّ ينتظر الموت بعد أن ماتت كل عائلته، أن يعاملك جسدك

على أنك رجل في سن الشيخوخة لا يستطيع النهوض حتى من سريره، أليستْ تلك أسباب كافية للهروب؟ أليس اليأس والتعب والإرهاق والاكتئاب في وقت من المفترض أن تكون فيه الأيام هي أجمل أيام عمرك سببًا كافيًا للهروب؟

أن تهرب يعني أنك ضعيف، لكن ما الذي جعلنا ضعفاء لهذا الحد؟

سادت حالة صمت طويلة، وفي نفسي ـ كانت الكلمات تتصارع من أجل الخروج:

ـ بالفعل يا يوستانيا، نحن دائمًا نهرب من الحياة، نهرب لأننا لم نعد قادرين على المواجهة، فبتلك البساطة لم نعد حتى نخجل من الاعتراف بضعفنا وهشاشتنا، حتى الذين ينصحوننا دائمًا بالثبات أدركوا أخيرًا أن الحياة أقوى مما نتخيل، هم أيضًا ينتظرون الفرصة المناسبة للهروب، يبحثون عن سببٍ يستطيعون به إقناع مَن حولهم بالهروب، عِزَّة النفس أو ربما الخجل من الاعتراف أيضًا بهشاشتهم وضعفهم!

كم مرة كان علينا الهروب وواجهنا رغم يقيننا أننا لا نقدر حتى على مواجهة نملة، ومع ذلك نخوض المعركة خوفًا من اتهامنا بالانسحاب وشماتة البعض في انسحابنا؛ لكن أيهما أقسى أن تنهزم أم تنسحب؟

بالطبع أن نُهزم أقسى؛ فما بالك لو كانت هزيمتنا من الحياة ومن الناس ومن أنفسنا في لحظة واحدة!

استمرت حالة الصمت حتى قطعته العجوز:

ـ ما زلت أفكر في أمر دهب، إنني أُشفق عليه كثيرًا؛ البعض يولد يا سراج بشعور الغربة بلا سبب، يشعر باللا انتماء حيال العالم، يحاول بشتَّى الطرق البحث عن ظلٍ له، البحث عن شيءٍ يناسبه؛ الكارثة أن تجد ضالتك، أن تشعر بكيانك وأنك أخيرًا وجدتَ جنتك التي تبحث عنها، ثم تعاقبك الحياة بفقدانٍ مفاجئ.

لأي هدفٍ تعيش سوما الآن؟ الحرية؟ حتى الحرية وإن جاءت بعد الآلام والحسرة تفقد جزءًا كبيرًا منها.

ربما لو خُيِّرَ بعض رجال الحرب أن ينتصروا في معركة دامية أو يعيشوا حياتهم قبل الحرب لاختاروا الحياة القديمة، حتى لو كانت تحت إذلالٍ وهزيمة، فأهوال المعارك لا تُمحى بسهولة، كل نصر ـ آتٍ بعد كفاحٍ قاسٍ يخسر جزءًا من انتصاره، عدا الجنة يا سراج، عدا الجنة، الوحيدة التي لن تشعر بمرارة الدنيا عندما نفوز بها.

لأي هدفٍ يعيش دهب؟ اللا مبالاة؟ حتى اللا مبالاة موجعة يا سراج، كيف نتحمل الهزائم بهدوء كما لو أننا لم نُهزم؟ أن تكون مجرد جثة تستقبل كل شيء ولا تُعارض في أي شيء، فلا أنت حي فتتألم وتتأثر وتعاني مثل الأحياء، ولا أنت ميت مع الأموات فلا تشعر بصخب الحياة حولك.

سوما! ما الذي جعلها لم تنتحر حتى الآن؟

دهب! ما الذي جعله استمر حتى الآن في هذه المعركة؟

قرأت الرسالة التي تسببت في كل هذا، كلها أسباب خفية يمكننا توقعها من الطرفين، لكن لا يزال هناك شخصان غامضان بالنسبة لنا، ربما نجد بينهما الأكثر وضوحًا، لكن وإلى الآن لا يمكننا تحديد صاحب الرسالة.

أرجوك، الوقت يتلذذ بنا يا سراج، حاول بأقصى وأقصر الطرق إنقاذ المسكين صاحب الرسالة.

ابتسمت ابتسامة عَجْزٍ أمام القدر:

ـ حسنًا، بيننا لقاء قريب.

الفصل الثالث

«أنا لستُ الأقل خوفًا مِن الموت»

عالِم الجيولوجيا تشارلز داروين
وقت رحيله.

"البوكر"

العاشرة مساءً..

أعدتُ كل شيء لاستقبال هاجر وفريدة وسوما مع باقي الضيوف، تلك الليلة كانت مختلفة، فلقد اتفقت مع يوستانيا على حضور الحفل، لتساعدني أكثر بحكم خبرتها في النفس البشرية، لعل عقلها يقودها لمعرفة صاحب الرسالة.

حضر الجميع في الموعد، عدا دهب، توقعتُ هذا، صحيح أنه يحب مثل هذه الحفلات، لكن تلك المرة لم يحب أن يتعرَّى أمامي أكثر.

بدأت الموسيقى والرقص، ويوستانيا بزيها الإيطالي وكأنها أصغر عشرين عامًا، وسرعان ما اندمجت وسط المجموعة.

«هاجر» فتاة الإسكندرية الجميلة، تذكرني طلتها بمريم، شعرها الأسود القصير، فستانها الأزرق، والعديد من الخواتم المتفرقة بين أصابعها، لونها القمحاوي، ولكنتها الإسكندرانية الواضحة؛ كانت تجذبني دائمًا ولا أعرف لماذا كنتُ أتجنب الحديث معها.

وقبل تحضير طاولة البوكر، حاولتُ معرفة ماذا كانت تريد هاجر من سوما، فحاولت الاختلاء بـ سوما بعيدًا عن الحاضرين، لكنها كانت ترقص وتعزف بشغف وجنون، شيء ما يجب إغراء سوما به من أجل الانتباه لي.

تذكرتُ أنني مدعو لحفلٍ بعد أسبوع في فيلا أحد أصدقائي الفرنسيين، ولا يوجد أكثر من هذا يغري الشقراء المجنونة، فاقتربتُ منها:

ـ سأحضر حفلًا رائعًا بعد أسبوع، أصحاب هذا الحفل من باريس.

قلتُ ذلك ثم اتجهتُ إلى الشرفة، وكما توقعتُ فقد لحقتني:

ـ لن تذهب إلا في برفقة فتاة رائعة، قوام ممشوق، ضحكة جميلة، شعر أشقر غجري، وربما هذه الفتاة هي أنا، أليس كذلك؟!

حسنًا، نجحت الخطوة الأولى:

ـ في مقابل..؟!

ضحكتْ:

ـ أُدبر لك ليلة رائعة مع إحدى الجميلات مثلًا!

قلتُ:

ـ لا.

قالتْ:

ـ سأتكفل بمصاريفك هذا الشهر!

رددتُ:

ـ لا، معي ما يكفي من المال.

تنهدتْ سوما:

ـ حسنًا، اطلب ما شئت!

بعد لحظاتٍ من التفكير:

ـ ما الذي كانت تريده منكِ هاجر أباظة؟

ضحكتْ:

ـ لا، مستحيل، هذا سر.

أدرتُ وجهي عنها وأنا أقول:

ـ حسنًا، الشقراء لن تستمتع بالحفل وزجاجات النبيذ الفرنسية المعتقة، والقوام الممشوق لن يقف على المسرح برفقة أشهر عازفي باريس، خسارة!

أشعلتْ سيجارتها، ثم قالت:

ـ وإن عرفتَ، هل ستساعدها؟!

قلتُ:

ـ بالتأكيد.

قالت:

ـ تبحث عن طبيبٍ نفسيّ-، عرضتُ عليها أحد أصدقائي الأطباء، لكننا لم نتفق بعد.

لم أرد عليها، كنت أفكر كيف أستطيع الاستفادة من حاجة هاجر لطبيب نفسيّ.

أخذتْ سوما بيدي لنعود إلى الرقص وهي تسألني:

ـ والآن، مَن هذه العجوز الجديدة؟!

ـ العجوز! نعم نعم، ستعرفين الآن مَن هي العجوز.

طرأت في عقلي فكرة رائعة، فتركتُ سوما تعود لملاذها من الرقص والغناء، وبحثتُ عن العجوز، لكنها كانت مشغولة بتجهيز طاولة البوكر، وفجأة ظهرت سوما برفقة هاجر وفريدة، ثم جلسوا على الطاولة.

تعجبتْ فريدة من وجود خمس كراسٍ فقط، وكانت هاجر تنظر للعجوز بشغف.

بدأت سوما بصَبِّ كؤوس النبيذ وتوزيع الأوراق وهي تسألني:

ـ لم تعرفنا بالجميلة!

قبل أن تبدأ يوستانيا بتعريف نفسها قلتُ:

ـ إنها يوستانيا، جارتي وصاحبة العقار، إيطالية الجنسية، تزوجت رجل مصري عظيم اسمه خالد، وعادوا إلى مصر قبل ثلاثين عامًا تقريبًا، طبيبة نفسية ولها عيادتها الخاصة.

ما إن قلتُ هذا حتى نظرت إليَّ يوستانيا، لكنها فهمتْ من نظراتي ما أقصده، فأكملتُ:

ـ سيدتي، أُعرفكِ بالفتيات سوما، هاجر، وفريدة.

تبادلوا الترحيب ثم قالت هاجر بلا مبالاة بعد نظرة عميقة للعجوز:

ـ فلنبدأ اللعب!

بدأتْ اللعبة، وُزِّعتْ الأوراق، وكل منهن مشغولة بترتيب أوراقها، وخلفنا لا زال الرقص قائمًا، والموسيقى تسود كل شيء.

على الطاولة بإمكانك أن تُميِّز القائد، كالعادة بسطوتها وتصرفاتها تسيطر سوما على زمام الأمور، وفريدة الصحفية الهادئة تلك التي لا تدخن السجائر لكنها مدمنة للكحول، أما هاجر أباظة التي لطالما داعبتْ قلبي من

بعيد برقتها وأنوثتها، تلك التي لا أعرف كيف وصلتْ بها الحياة لقضاء سهرتها مع مجموعة من البائسين مثلنا.

ليس ثمة علاقة تربطنا في هذه الغرفة أكثر من الصدفة؛ مجرد مجموعة كان يلتقي أفرادها في أماكن متفرقة حتى جمعتهم أنا عندي في منزلي، ومع الوقت أصبحوا مجموعة واحدة؛ الحزن دائمًا يجمع المتشابهين، يجعل بينهم أُلفة غير ملموسة، ثمة مسؤوليات وارتباطات بين بعضهم حتى هم لا يدركونها، ولهذا قدُمتُ أنا لإنقاذ صاحب الرسالة، لربما لشعوري بالمسؤولية تجاهه.

لكن حتى وإن انتحروا جميعًا لن أتأثر، فهم من الأساس ليسوا أصدقائي، إنهم مجموعة من التعساء لا يفكرون إلا في نهاية هذه الحياة العبثية بأقصر طريقة ممكنة، وأنا أيضًا مثلهم، لكن وإن كان أحدهم هو من عثر على هذه الرسالة حتمًا سيفعل مثلما أفعل أنا؛ إنه رباط الحزن الذي يجعلنا نشعر بالمسؤولية تجاه بعضنا البعض.

حتى في حواراتهم على الطاولة تجد بينهم مزيجًا من التعاطف واللا مبالاة، بلا سبب تجد أحدهم يبكي وأحدهم يضحك، والآخر يفكر في اللعبة القادمة، تجدهم فجأة انتبهوا لك وتعاطفوا معك، وفجأة تشعر وكأنك تجلس وحدك وسط مجموعة من الجثث، حتى وإن قال أحدهم أنه سينتحر بعد ساعتين لن تجد تأثرًا كبيرًا منهم، وعلى العكس قد يتحدثون عن أشياء أخرى أقل أهمية من الحياة؛ الفكرة مرعبة، فكل من يجلس ويلعب هنا لا يتذكر أي أحاديث بدأت مع بداية اللعب، حتى الذي يتحدث لو واجهته بما قاله عندما يستعيد وعيه لن يتذكر هذا، بل سينكر أشد إنكارًا، إنها مرحلة من الخلو النفسي.

لا أحب الجلوس معهم، فهم لا يتحدثون إلا عن الوجع، عن التعاسةّ، والخيبات، والحزن، لا يتحدثون إلا عن كل الأشياء التي يتجنبون الحديث عنها وهم في وعيهم، وكأنهم يواجهون حقيقتهم الزائفة، وكلما اشتدت اللعبة كلما اشتعلتْ لفافات حشيشٍ أكثر وظهرت زجاجات نبيذٍ أكثر وتعرَّى الجميع.

بدأت العجوز التي فهمت الغرض من عرضها كطبيبه نفسية:

ـ في إيطاليا كانت البوكر لعبة العجائز، أولئك الذين يبحثون عن منافسة أقل قسوة بعدما أنهكهم الزمن بمعارك أقل خسائر فيها كانت مشاعرهم وإنسانيتهم.

قالت فريدة:

ـ نحن هنا لهذا السبب.

ردت العجوز:

ـ الحياة مرهقة على أي حال.

بعد تفكيرٍ عميقٍ في اللعبة قالت سوما:

ـ لو كان لدي ابن حتمًا لن أسمح لنفسي- أن يراني ألعب البوكر مع مجموعة من التعساء البائسين الحمقى، أن يراني ألعب وفي يدي كأسًا من النبيذ.

ردت العجوز:

ــ في الحقيقة، لو وُلد في هذه الظروف فلن تختلف ظروفه عن ظروف أُمه.

باستهجانٍ ردت سوما:

ـ وأنتِ أين أبنائك وأحفادك ؟

شعرت بالخجل للعجوز، لكنها كانت تحت تأثير الخمر أيضًا، فقالت بثقة:

ـ أنا لا أُنجب، وهذا لم يحزنني قط، فقد كان زوجي خير ونس وأهل في غربتي، وبعد وفاته عرفت معنى أن تكون مغتربًا في وطنٍ لا يجمعك به إلا مجموعة من المرضى النفسيين، هكذا كانت حياتي.

بخبث ودهاء سوما المعتاد وهي تسحب كل أوراق الطاولة:

ـ لو كان زوجكِ أو ابنكِ معكِ لربما استطاع أحدهم أن ينقذكِ من هذه الخسارة الفادحة!

ضحكتْ العجوز وكأنها كانت تلاطفها:

ـ بالطبع تسألين لماذا ألعب معكم الآن؛ ببساطة أنا أستعد لإطلاق كتابي الأول والأخير عن الطب النفسي وتأثيره في الشباب العربي، وأحتاج لبعض القصص، المواقف الصعبة، الانتكاسات العاطفية والاجتماعية.

هنا كان الظهور الأول لهاجر وهي تسحب نفسًا عميقًا من سيجارتها:

ـ تجلسين معنا لكتابة كتابكِ الأول والأخير! مسكينة يا سيدتي، هناك حل أكثر إفادة، انزلي إلى الشارع، اقرأي الوجوه، اسمعي حوارات الناس في المقاهي والمواصلات، انخرطي بينهم وكوني منهم؛ يا سيدتي إن مصر أكبر مستشفى للمرضى النفسيين في العالم.

دون أن يكترث أحد لكلمات هاجر واصلت العجوز وهي تصب كؤوس النبيذ للجميع:

ـ ما رأيكم لو حللتكم نفسيًا ببساطة واختصار شديد، حسب إشاراتكم الجسدية، مع بعض الأسئلة؟ بشرط الإجابة بصراحة، وعمومًا أغلبنا بدأ يفقد الوعي، بالتالي لن نتذكر كل ما سيقال؛ هذه هي قوة ومتعة الجلوس مع مجموعة من السكارى والحشاشين، يستطيعون تعرية بعضهم البعض دون خجل.

ضحكتْ سوما:

ـ هذه الليلة مختلفة بكل المقاييس!

لم يعترض أحد على الاقتراح، كان الوقت قد تأخر وبدأ تدريجيًّا أصدقائنا بالرحيل.

وقبل أن تبدأ اللعبة اعترضت فريدة:

ـ لكن سراج لا يشرب!

على الفور قالت العجوز:

ـ سراج يشرب كثيرًا، أنتِ فقط لا تلاحظين، يبدو أن الزجاجة المعتقة مفعولها أقوى مما كنت أتخيل!

نظرتْ إليَّ العجوز وابتسمتْ ابتسامة انتصار في معركة غياب الوعي؛ أحد الانتصارات الصغيرة تحت تأثير الكحول أن تقنع غيركِ بما هو ليس حقيقي.

بدأت العجوز:

ـ لا أعرف الكثير عنكم، لكن بالأمس قرأتُ بعض رسائل الانتحار، المثير للدهشة أن أغلب رسائل الانتحار من شباب ما بين العشرينات والثلاثينات من العمر، تُرى ما الذي يجعل شبابًا في هذا العمر يُقدمون على الانتحار؟

أول القصيدة كفر، والعجوز كانت أقسى مما أتخيل، لم تضيع وقتًا، كانت تريد الاستفادة من حالاتهم بين الوعي واللا وعي.

استقبل الجميع سؤال العجوز بصمتٍ تام، وكأن كل منهم يبحث عن إجابة منطقية، إجابة تخفي حقيقة بداخلهم، إنها المصارحة التي يخشاها الجميع.

بتمعنٍ تتابع العجوز الانطباعات الجسدية لهن؛ سوما هادئة تتلاعب بخصلات شعرها، هاجر تشعل سيجارة أخرى، وفريدة تعيد ترتيب أوراقها.

قالت سوما:

ـ ربما الخذلان!

ردت العجوز:

ـ تقصدين خذلان الحب؟

أجابت:

ـ لا لم ينتحر أحد بخذلانٍ من الحب، مهما كانت قوة رباط الحب، فالمشكلة ليست دائمًا في الحب، لو كانت حياتنا رائعة لما تعبت قلوبنا من

الحب؛ إننا لا نفكر في الانتحار بسبب علاقة انتهت رغمًا عنا، أو أشخاص تعلقنا بهم وتركونا وحدنا في منتصف الطريق، لكن خذلان الحياة يقودنا أحيانًا للتفكير في الانتحار.

استطاعتْ سوما أن تجذب انتباه هاجر، فواصلت:

ـ الخذلان لا يتوقف عند الحب؛ تحطم الأحلام خذلان، عدم القدرة على التمني خذلان، الأمنيات التي تمنيناها ثم اكتشفنا أنها تنزلق من بين أيدينا خذلان أيضًا، أن يحاولوا تحطيمك أولئك الذين ومن المفترض أن يكونوا مصدر طاقة وقوة لك، أن يتسببوا في جراحٍ عميقة بداخلك أولئك الذين ومن المفترض أن يكونوا هم الدواء لك، أن تتعرَّى بين ذراعي من يغطي ويحمي وجعك، أن تجد مَن يسخر من حزنك واكتئابك ويتهمك بالتعاسة في الوقت الذي كنت تظن فيه أنه أول من سيبقى بجوارك ويتفهم أسباب حزنك، أن تبكي وحدك لأنك لا تملك صديقًا واحدًا تستطيع البكاء أمامه بلا مناسبة رغم كثرة معارفك، أن يتخلى عنك الجميع في وقتٍ كنت تحتاج من يُربت على كتفك، أليس هذا خذلان؟

خذلان الحياة يا عزيزتي سببًا كافيًا للانتحار.

قالت العجوز:

ـ ربما!

بلا سببٍ رفضتْ فريدة الإجابة على هذا السؤال، وابتكرتْ موضوعًا آخر تشغل به الحاضرين عن إجابتها؛ الهروب من المواجهة نجحت فيه الصحفية المشهورة، لكن لم يهتم أحد لمحاولاتها، فقط تفهموا أنها لا تريد الإجابة على هذا السؤال، فطبيعي اتجهت الأنظار إلى هاجر.

قالت هاجر:

ـ لا أعرف ما الأسباب التي تجعل شبابًا في العشرينات من العمر يفكرون في الانتحار؛ لكن إن جُمعتْ كل الأسباب المتفرقة بينهم سنجد أن الناس هم الجاني الحقيقي وراء كل هذا، التعامل مع الناس مرهق، ضغوطات الحياة كارثية فما بالك بعلاقات مرهقة تزيد علينا الضغط والحمل!

لا أعرف لماذا أصبحت الحياة بهذا التعقيد، من المفترض أن تكون حياتنا أقل من كل هذا؛ إذا فتشنا في حياة أي شخص سنجد علاقات مرهقة، علاقات تطلب منه دائمًا المبررات والمناقشات، علاقات تكسر القلب، وعلاقات تتفنن في إيذائه، ومع ذلك لا يستطيع التهرب والخلاص منها.

لو بحثنا بين الناس لوجدنا أنهم مُجبرون على التعامل مع بعضهم، والخضوع التام لأمر العلاقات الاجتماعية، الوضع أشبه بالتعامل مع عدوك كل يوم في معركة الخاسر الوحيد منها هي مشاعركم وإنسانيتكم.

قاطعتها يوستانيا:

ـ لكن لا معنى للحياة إن لم تكن مبنية على علاقات اجتماعية!

سخرت هاجر من ردها، ثم اعتذرت عن سخريتها، وواصلت:

ـ يا سيدتي، من بين مئات الآلاف على مواقع التواصل الاجتماعي، أو قائمة أصدقائكِ على الهاتف، أو أقاربكِ وجيرانكِ، ربما لن تجدي بين كل هذا الزحام شخصًا واحدًا تستطيعين اللجوء إليه في اكتئابك وحزنك!

يقولون "ليس المهم أن تملك مئة صديق، المهم أن تملك صديقًا واحدًا ينقذك من الغرق"، هل حقًّا أصبحنا نملك هذا الذي بإمكانه التخلِّي عن كل شيء من أجلنا؟

المشكلة أن الذين يفكرون في هذا المسألة هم أكثر الناس تعاسة وبؤسًا، إنها حالة من الوعي، أن تكون إنسانًا مُدركًا لقيمتك الإنسانية في عصرٍ يسلب منك كل حقوقك ويتفنن في إظهار أسوأ ما بداخلك، وهنا تكمن الكارثة.

أنا لا أشعر بالوحدة، لكنني أشعر بالفراغ تجاه الناس، لا أُكِنّ لهم أي مشاعر حقيقية، لا أفتقدهم، لا أشتاق إلى أحد، لا ألاحظ غيابهم، أتعامل معهم على أنهم سراب لا وجود له؛ لكن هل هذا يعجبني؟

بالطبع لا!

لكن ما قيمة العلاقات يا سادة إن لم يكن لها وجود حقيقي في حياتنا؟ وجود ملموس نشعر به في سوداويتنا ولحظات انكسارنا قبل سعادتنا ولحظات مجدنا!

تعرفون؟ هناك أشياء تجعلنا نتحمل هذه المعاناة الأبدية، أشياء قد تبدو خرافية، لا يؤمن بها إلا الذين ضاقت بهم الحياة فذهبوا واكتفوا بها.

من جديد قاطعتهم سوما وهي تجمع مكاسبها:

ـ هذه الثورة تكفيني لقضاء خمس ليالٍ في تركيا.

ضحكت العجوز:

ـ أنتِ جميلة يا هاجر، لا أعرف لماذا أراكِ بهذا الجمال وأنا لا أعرفكِ من الأساس، لكن ثمة أشخاص نلتقِ بهم فنشعر بدفئهم ومودتهم وصفائهم حتى قبل أن نتعامل معهم، نشعر بالحب لهم والمسؤولية تجاههم من المرة الأولى؛ أنا أراكِ جميلة جدًا، ربما أكثر مما تظنين عن نفسك.

ابتسمت هاجر:

ـ مجاملة لطيفة جدًا يا يوستانيا، اعذريني إن كنت حادة معك.

قالت فريدة:

ـ الآن خسرنا كل شيء وانتصرت هاجر بكلماتٍ لطيفة.

ردت سوما:

ـ الكلمات لن تشتري تذكرة حفل في الأوبرا، المال يفعل هذا.

سألت هاجر:

ـ وأنت يا يوستانيا، أعطِني فكرة عامة عن طبيعة العمل النفسي؟

قالت يوستانيا وهي تدخن الحشيش:

ـ في الحقيقة أنا لا أستخدم المراجع التقليدية، ولا أستخدم الأدوية الكيميائية، ولا أستخدم التعليم الأكاديمي، دوستويفسكي[٢٤] الكاتب العظيم لم يكن طبيبًا نفسيًّا، ومع ذلك استطاع وصف النفس البشرية وتقلباتها، وربما أكثر من أعلم وأقوى علماء النفس، الطب النفسي مهنة في غاية الخطورة، لا أسخر من الأطباء الذين يتعاملون مع مرضاهم بالأدوية والعقاقير الكيميائية، لكنني أسخر من نظرتهم لطريقة العلاج، بدايةً من قائمة الأسئلة المعتادة المحفوظة، إلى بعض الأدوية وبعض الأوامر الاجتماعية لشفاء المريض، إنهم لا يلامسون الروح، إنما يخاطبون العقل، العقل فقط، والمرض النفسي ـ لا يكمن في العقل، بل يكمن في الأشياء التي لا يستوعبها العقل، في اللا منطق وليس المنطق، في اللا وعي، اللا قدرة على إيجاد كلمة مناسبة أو وصف صريح؛ إن أكثر ما أبحث عنه في عملي هو مخاطبة الروح البشرية، وبالمناسبة لا أُعتبر طبيبة نفسية، لكنني خير من يسمع للجميع.

أُعجب الجميع برد العجوز، حتى فريدة التي كانت في حالة غياب تام عن الوعي، انتبهتْ لها وأبدتْ إعجابها بالرد بنظرة خاطفة.

[٢٤] فيودور دوستويفسكي: روائي وكاتب قصص قصيرة وصحفي وفيلسوف روسي، ولد في موسكو ١١ نوفمبر ١٨٢١، رواياته تحوي فهمًا عميقًا للنفس البشرية، كما تُقدّم تحليلًا ثاقبًا للحالة السياسية والاجتماعية والروحية لروسيا في القرن التاسع عشر، وتتعامل مع مجموعة متنوعة من المواضيع الفلسفية والدينية، توفي في ٩ فبراير ١٨٨١ متأثرًا بمرضي الصرع والنفاخ الرئوي.

سألتني فريدة:

ــ وأنت يا سراج، لماذا تستضيفنا بشكل دائم رغم أنك لا تمارس طقوس الحفل معنا؟

توترتُ قليلًا، وصببتُ كأس النبيذ، ثم كررت هي سؤالها، فقلت:

ـ قد لا تكون هناك إجابة منطقية، لكنني أشعر بالانتماء لكم، أعني أن الأمر جاء بمحضِ الصدفة من البداية حتى هذه اللحظة، لو أنكم لا تشعرون بالانتماء لما اجتمعتم كل فترة في منزلي، ثمة منازل مفتوحة لكم، قد تكون أجمل وأوسع وأكثر إمكانيات، لكنكم ورغمًا عنكم لا تشعرون أن الذي يجمعنا هنا ما هو إلا رباط الحزن، بمعنى أوضح أنكم تشعرون بحرياتكم وتؤمنون أن هذا المنزل لن يغلق أمامك مهما حدث، وأنا أشعر أيضًا أنكم لن ترحلوا بعيدًا عني، ولهذا فأنتم من سميتم هذه الغرفة بـ "القاهــرة"، لأنها تجمعنا رغم اختلافنا وعقائدنا وربما ميولنا الجنسية أيضًا؛ هنا لا أحد يسألك عن ديانتك، لا أحد يسأل عن أهلك، عن حياتك، أنت هنا غريب جدًا، لكنك لا تُرْفَض من أي شخص، غريب جدًا، ومع ذلك تنتمي لمجموعة من الغرباء، هذا في حد ذاته شيء رائع.

سأفتقدكم، لا أعرف، اعتدتُ تجاهلكم الشديد لي، لكن هل تأقلمتُ على معاملتكم وكأنني خادم لكم؟ لا أعرف، لكنني أشعر بالامتنان لوجودكم، أشعر بالونس، وإن كان ونسًا مزيفًا.

اقتربتْ سوما ووقفتْ خلفي ثم همست:

ـ أنت سببٌ في وجودي على قيد الحياة.

انتهت دراما اللعبة بضحك وسخرية من الحياة ومن العلاقات، وبفوز عظيم حققته سوما.

وحدها العجوز كانت صامتة، فبدأتْ سوما بالاستعداد للرحيل، تبعتها فريدة، ثم طلبتْ هاجر -سرًا- يوستانيا في لقاء فردي.

نجحتْ يوستانيا في جذب لطفها وصداقتها كما توقعت، لم أشك قط في قدرة العجوز على الجذب.

سألتْ هاجر إن كان بإمكانها أن تأتي في العاشرة مساء اليوم التالي، ورحبتْ العجوز بالفكرة.

بعد أن رحل الجميع كنت منهكًا تمامًا، لكن كان لا بد من الاتفاق مع العجوز على لقاء اليوم.

سألتني العجوز:

ـ والآن، ماذا يدور في رأسك؟

أجبتُ:

ـ إذن أنتِ مَن ستعرف إن كانت هاجر صاحبة الرسالة أم لا؟

قالت:

ـ بالتأكيد؛ لكنني أفكر كيف ستتمكَّن من متابعة اللقاء!

سألتها أولًا:

ـ ما انطباعكِ حول الفتيات؟!

أجابت:

- إنهن حقًّا يعانين في حياتهن؛ لا أستطيع أن أربط تصرفاتهن بمدى رغبتهن في الانتحار، لكن وبالنسبة لي سوما هي تلك الفتاة المرحة التي تحاول دائمًا الهروب من غيمة سوداء تسكن قلبها، شخصيتها التي تحاول الظهور بها ما هي إلا هَشّ، كـ فأر مسكين يعاند الموت رغم وقوعه في قفص القط، يأبى الموت ضعيفًا، فتاة مثل سوما تعاني من هذا الثبات القوي، لأنها ليست صخرة لتتحمل كل حطام قلبها بالضحك، إنها تضحك من فرط البكاء، تسخر من فرط التأثر، لحظات من الأنين والضعف تواجَه بـ كبرياء امرأة تأبى الخضوع، لأنها خضعت من قبل، خضعت للمهندس ونفوذه، ذاك الذي أجبرها على التخلي عن أبسط حقوقها في الحياة، لذلك تحاول أن تسترد شيئًا من حقها المغتَصَب.

أما عن فريدة فأراها مغرورة جدًا، هذا الغرور لا يعجبني، يخبئ بداخله شيئًا ما، هناك شيء حقيقي أهان غرورها، لا أستطيع تحليلها بشكلٍ دقيق، لكن إن كانت سوما تسترد ضعفها بالسيطرة على أبسط الأشياء، فإن فريدة تسترد غرورها بالتخلي عنها؛ وما تتخلى عنه هو ما قد نعرفه فيما بعد، أرجو أن يسمح لنا الوقت بهذا.

هاجر هي أيضًا تعاني، لكنها خجولة، إنها تشبه طفلة جميلة تخاف الناس، لكنها تريد اقترابهم منها، المعادلة الأصعب أنها وما إن تشعر بالخطر في اختيارات قلبها تهاجم بشراسة لتخفي جمالها واحتياجها، بالنسبة لي هذه الفتاة تعاني أكثر منهن جميعًا، فهي حتى أضعفهن، لا تستطيع بناء شخصية

أو ارتداء قناع ملائم لها، إنها طفلة كبرت فجأة فوجدت نفسها ملتزمة ومسؤولة عن أشياء حتى قد لا تعرفها.

هل تعرف يا بني! إن الثلاث فتيات حقًا بإمكانهن خطوا خطوة ناحية الخَلَاص، حتى دهب بإمكانه فعل هذا، إنهم جميعًا ورغم اختلافاتهم الفكرية لكنهم يعانون، يتفقون في المعاناة، صحيح أن المعاناة دائمًا تختلف من شخص لآخر، لكنها تبقى معاناة، إنهم يتفقون في سبل الهروب، السهر، الخمر، المخدرات، الضحك، مراوغة الحقيقة، وربما الجنس أيضًا، مع الكذب، وذاك أخطر أنواع الهروب؛ لأنك تخلق الوهم ثم تقنع من حولك بتصديقه، كأن تكون رمادًا فتقنع نفسك أن هذا الرماد ليس إلا صخورًا صغيرة بإمكانك الاستناد إليها، أن يغلي ما بداخلك فتقول "لا تلك مجرد طاقة مكبوتة"، أن تُعذَّب وتُهان فتُردد في نفسك أن ذلك من النعيم والصفاء.

الكذب يا سراج أخطر أنواع الهروب، عمومًا ما أرجوه أن يكون الوقت لطيفًا معنا، على الأقل وإن خسرنا صاحب الرسالة لا نخسر شخصًا آخر.

يخيفني دائمًا البحث في طريق والمضي- نحوه، ثم نكتشف أننا على الطريق الخاطئ، أقصد إن حالفنا الوقت ومنعنا صاحب الرسالة فلا أستبعد أن ينتحر من لم يكتب مثل هذه الرسائل، الذي فقد القدرة حتى على التعبير، وأشعر أن لا أحد منهم يريد التعرِّي بشكل كامل حتى في حرمة الخمر والمخدرات.

لا تظن أن دهب كان صريحًا معك في كل شيء، فثمة أشياء تبقى في النفس البشرية، مهما جاهد بالجهر بها تبقى بداخله تؤلمه وتنهك أركان قلبه رغمًا عنه.

على أي حال لدي فكرة رائعة، بما أن الوقت يداهمنا، فلنصطد عصفورين بحجر واحد، سأتولى أنا أمر هاجر، لكن عليك أنت بالصحفية فريدة؛ لدي وقت يسمح بذلك وأنت أيضًا لديك وقت لهذا، ولنعرف أكثر ما رأيك لو وضعنا كاميرا مراقبة في غرفة المكتب الخاصة بي، وقتها ستتمكن من الاستماع ومتابعة لقائي بهاجر، وفي الوقت نفسه تستطيع الاقتراب من فريدة!

هززتُ رأسي بالموافقة ليوستانيا.

كان الأهم من كل هذا حاليًا أن أغدو في نومٍ عميق، فتلك الفترة حقًا جسدي يعاندني، حتى الميل برأسي على الوسادة أصبح يتعبني.

"حنين ابن مريم"

حديقة عامة..

زحام..

صراخ أطفال..

ضحكات..

صوت باعة..

سيارات تُبدي اعتراضها على الزحام..

فتاة ترتدي ملابس غير متناسقة، بنطالًا أسود وقميصًا رمادي عارِ الكتف، تمسك بيدها اليسرى سيجارة متآكلة، وبجوارها دمية مُهترئة..

ـ لماذا تبكين؟

لم ترد، كانت تنظر للعالم نظرة انكسار، وكأن العالم سرق صوتها، أو سرق طفولتها منها، تبكي ولا أحد يبالي بأمرها، فكررتُ سؤالي مجددًا..

وقفتُ أمامها، وصرخت في وجهها، لكنها لا تبالي، هي لا تراني من الأساس!

تصرخ هي..

أحمر الشفاه يلطخ وجهها..

الكحل يترك بصمته..

شعرها الأحمر أشبه بمنفضة العنكبوت..

تتجه ناحية حائط عريض، وتكتب:

«الموت، الموت يعانقنا.»

«سئمتُ.. سأنهي هذه المسرحية العبثية.»

ثم صرختْ أمام الحشود:

ـ هل تسمعونني ؟! سأنتحر!

واصلتْ الصراخ:

ـ أحتاج لعِناق؛ هل بإمكان أحد مساعدتي ؟

ارتجفتْ وواصلت:

ـ هل تسمعونني ؟ أحتاج لعِناق!

وكالهاربة من العدالة اتجهتْ إلى أكثر الأماكن ازدحامًا، الناس يسيرون حولها، يصطدمون بها، ولا يبالون بصراخها.

وقفتُ أمامها محاولًا لفت انتباهها من جديد، لكن دون جدوى..

استيقظتُ!

أنا هنا، في غرفتي الكئيبة، بألوانها الباهتة، وأساسها المتهالك، وإضاءتها الخافتة جدًا.

لم يكن ذلك إلا حلمًا عابرًا؛ فهكذا كانت تقول مريم دائمًا:

«إن الكوابيس مهما كانت قسوتها ففي النهاية هي حلم حتمًا سينتهي، الواقع هو الكابوس الحقيقي، لأنه لا ينتهي، وإن انتهى قد تكون نهايته لا ترضينا، لكننا مُجبرين عليه.»

شعرتُ بالحنين إلى مريم، تلك التي علمتني معنى الحنين؛ كلما مرت صدفة جمعتني بها تذكرتها، وتذكرتُ كيف كانت قصتنا رائعة.

بعد ليلتنا الأولى، وبعد بحث دام أسبوعين، فقدتُ الأمل في العثور عليها، حتى ظننتُ أنها كانت حلم، لِما لا؟!

اتجهتُ إلى الإسكندرية، لم أكن أدري هل ذهبت إلى هناك لقضاء بعض الوقت في راحة واستجمام بعيدًا عن صخب القاهرة، أم كنت أبحث عن تلك الفتاة التي فعلتْ ما لم يفعله أحد.

إن الفضول يقودنا للجنون، والجنون يقودنا للمغامرة، وما أجمل أن تكون مغامرتك من أجل الحب!

هل حقًا وقعتُ في غرام فتاة ليل؟

لا ليس حبًا، إنه مجرد الفضول.

الشتاء رائع في مدينة الثغر؛ في يومين لم أترك مقهى أو مطعم إلا ذهبتُ إليه، كنتُ أبحث عنها رغمًا عني.

«مريم» هذا فقط كل ما أعرفه عنها، كنت أفتش عنها بين مئات الذين ألتقي بهم يوميًّا.

وذات يوم، وبالصدفة، كنتُ في أحد المولات التجارية الشهيرة بالإسكندرية، حتى لمحتها؛ انتفض قلبي، إنها هي مريم!

كانت ملابسها تدل على ثرائها رغم بساطتها؛ وقفتُ أمامها فتظاهرت بأنها لا تعرفني.

ـ مريم، أنا سراج!

وقفتْ وكأنها تتأملني:

ـ المعذرة!

قلتُ في لهفة:

ـ مريم، أنا سراج، الليلة التي قضيتِها معي، ثم أعدتِ لي الإفطار، وتركتِ رسالة على الطاولة!

أخرجتُ الرسالة من جيبي:

ـ ها هي.. هل تتذكرين؟!

أمسكتْ مريم بالورقة، توترتْ قليلًا، -كانت عندما تقلق يحمر خديها كالأطفال- وصمتتْ لمدةٍ طويلة، ثم قالت:

ـ تعالى معي.

ذهبتُ معها إلى المَرأَب نحو سيارة فارهة، سألتها:

ـ هذه سيارتك؟!

قالت دون أن تنظر إليَّ:

ـ نعم، تعال، لا تقلق.

ركبنا السيارة، ثم اتجهنا إلى أحد مقاهي المدينة.

المكان كان رائعًا وهادئ، يعتبر أحد أشهر مقاهِ الإسكندرية وأقدمهم؛ فقديمًا كان الدخول إلى هذا المكان مسموح فقط لليونانيين والطليان، لكن ومع مرور الوقت أصبح متاحًا للجميع.

كانت صامتة، لكنها كانت أكثر جمالًا من المرة الأولى، وأكثر أُنوثة.

طلبتْ فنجانًا من القهوة، ثم اعتذرتْ:

ـ آسفة، هنا لا يقدمون الخمر، البيرة فقط.

ضحكتُ:

ـ لست من مدمني الكحول.

جاءت القهوة، فأعطيتُ لها سيجارة بعدما لاحظتُ أنها تحتفظ بعلبة سجائر، لكنها قالت:

ـ لا أدخن .

تعجبتُ، فتاة ليل لا تشرب الخمر ولا تدخن!

سألتني:

ـ ما الذي أتى بك إلى الإسكندرية؟

بتلقائية قلت:

ـ للبحث عنكِ، أقصد كنت في حاجة للاستجمام فجئت إلى هنا.

ردتْ:

ـ تسافر من القاهرة إلى الإسكندرية للبحث عن فتاة ليل!

أظن أن فتيات القاهرة أكثر جمالًا!

قلتُ:

ـ أردتُ فقط أن أشكرك، لقد كنتِ نبيلة جدًا معي.

ضحكتْ:

ـ المعذرة! أي نُبل تقصده؟

أجبتُ:

ـ فتاة ليل، العناق، الصمت، وجبة الإفطار، الرسالة...

قاطعتني:

ـ لقد كان تصرفًا طبيعيًّا، ربما أسأتْ اختيار المكان، لكن ومن حُسن حظكَ لم تسئ اختيار الشخص؛ أقصد أنك لم تكن تريد شراء الجسد، بل أردتَ شراء الحب، ولأنني تفهَّمتُ هذا لم آخذ أي مقابل، فالحب لا يُشترى يا سراج.

انتهتْ من فنجان قهوتها، ثم واصلت:

ـ بالمناسبة، أنا أيضًا ممتنة لك، لقد كانت ليلتي الأولى والأخيرة، لولاكَ ما عدتُ إلى الإسكندرية، كنتَ رسالة عظيمة من عند الله.

لاحظتْ هي أنني لم أفهم ما تقصده، طلبتْ من النادل الفاتورة، ثم قالت:

ـ على أي حال سعدتُ بمعرفتك، أنا زبونة معتادة هنا كل يوم بعد العاشرة مساءً، إن غلبكَ الحَنين والشوق للإسكندرية لا تنسى ـ فنجان قهوتنا.

قبل أن ترحل قلتُ لها:

ـ أحتاج لأي وسيلة اتصال معك!

أدارتْ وجهها عني وهمتْ بالرحيل قائلة:

ـ دَع الصدفة تجمعنا، وداعًا.

يومها اضطررت للمبيت يومًا آخر في الإسكندرية، وقتها لم تفهم أنني أتشوَّق لما هو أبعد من الصدفة، لما هو أبعد من لقاءٍ عابر.

لقد حدث هذا قبل ثلاث سنوات، كنتُ أكثر حيوية وقوة وتفرُّغ؛ بعدما قررتُ العيش وحدي لم يكن لديّ مَن يُلاطف هذه الوحدة، كنتُ أشتري الحب كما ادعتْ مريم.

في اليوم التالي استيقظتُ في الثامنة مساءً على كورنيش المدينة، اختلسني هواء البحر، فكنتُ أُفكر ماذا فعلتُ وأفعل في حياتي؟

لا شيء أكثر من الروتين حد الثمالة، من منزل مُتفكك يخضع لكلمة أب سِكِّير، لأم عادية، لأخوة لا يفكرون إلا في أقصر الطرق للهروب من الجحيم المنزلي، كان الملل قاتلًا والفراغ يؤذينا، حتى عندما قررت التمرد، وجدتني في وحدة أكثر، لا يوجد اختلاف كبير بين الحياة مع عائلتك والحياة وحدك ما دمت تشعر بوحدة في صدرك.

أردتُ التمرد، لكن حتى للتمرد ضريبة اسمها اليأس، فظننتُ أنني خرجتُ إلى الحرية بعدما حطمتُ قيود الطاعة، لكنني اكتشفت أن سجن اليأس أشد ظلمًا وتعاسة؛ لكل شيء ضريبة، وضريبة التمرد دائمًا هو النفور من كل شيء.

وقفتُ أمام البحر؛ ربما مريم كانت الوحيدة التي جذبتني، التي جعلتني أشعر بالقبول والرضا عن الحياة، لم أبحث عن مريم لأجلها، بل للشعور الذي تركته بداخلي؛ أنا أؤمن أن العالم يدين لي بالكثير، لكنها الوحيدة التي جعلتني أشعر بالامتنان لها، ولهذا بحثتُ عنها.

وصلتُ إلى المقهى في العاشرة، كانت تلك الليلة الأخيرة في الإسكندرية، فعزمتُ على عدم الرحيل إلا بعد خلق طريق اتصال مع مريم.

وصلتْ هي في العاشرة والنصف، كانت ترتدي تنورة قصيرة سوداء اللون وقميصًا رماديًا مع معطفٍ أسود طويل، بشعرها القصير المميز المصفف بطريقة تناسبها وحدها، من خطواتها تستطيع تمييز الطبقة التي تنتمي إليها، لم تكن أكثر من فتاة تنتسبُ إلى عائلة مرموقة، هكذا تخطو مثلهم، بنظراتها المتعالية الواثقة.

جلستْ على الطاولة التي جلسنا عليها بالأمس، طلبتْ فنجان قهوتها، ثم أخرجتْ كتابًا وبدأت بالقراءة.

من مكاني لم أستطع قراءة اسم الكتاب، كنت أتابعها من بعيد، أحاول فهمها، أو ربما أطيل النظر عمدًا من بعيد، فأنا أحب النظر للأشياء الجميلة من مسافات بعيدة.

مرتْ نصف ساعة ولم أتحرك من مكاني، إلى أن اقتربتُ من طاولتها، فأغلقتْ الكتاب، ثم نظرتْ إليَّ:

ـ أهلًا سراج! توقعتُ قدومك اليوم.

قلتُ في تردد:

ـ جئتُ لأودعكِ فقط، سأعود إلى القاهرة.

قالت:

ـ نعم، لقد جئتَ لتودعني حقًا، لكنكَ لن ترحل قبل أن أُجيب عن الأسئلة العالقة في ذهنكَ.

واصلتْ دون أن تنتظر ردًا مني:

ـ أنت محظوظ، فأنا في أَمسِّ الحاجة إلى الحديث مع شخص لن يراني مرة أخرى.

شعرتُ بغصةٍ في قلبي، لكنني تظاهرتُ بالعكس، فواصلتْ:

ـ سأحكي لك شرط أن لا تسألني مرة أخرى، وأن لا تحاول التواصل معي، اتفقنا؟

كنتُ أريد الرفض، لكن لربما حاجتها للحديث مع شخص مثلي أقوى من احتياجي الشخصي لها.

ـ حسنًا، لست فتاة ليل يا سراج، كل ما في الأمر أنني أعيش في مجتمع مرفَّه، مجتمع لا يأبى، لا يفكر إلا في المكاسب الاقتصادية فقط.

عشت عشر سنوات هنا، ثم رحلت مع أمي إلى كندا بعدما هَجَرَتْ أبي؛ وفي كندا كانت طفولتي، الحياة مع أمي كانت أشبه بالجحيم، لم تكن أمي تفكر إلا في ثروتها الطائلة، هَجَرَتْني كما هَجَرَتْ أبي، لكن الفرق أنها كانت تعيش معي تحت سقف واحد.

قضيتُ مراهقتي في مجتمعٍ مفتوح تمامًا، مجتمع لا يمنع الجنس، لا يمنع الخمر، لا يمنع حتى الإدمان، كانت أمي تعرف كل هذا، ورغم ذلك لم تهتم، بل كانت تقول أحيانًا:

«الأهم أن لا يعرف والدكِ ما تفعلينه.»

والدي! حتى هذا الذي لم يتصل بي منذ سبع سنوات، هل لديه وقت من الأساس للاستماع لما يحدث لابنته!

قضيتُ سنوات طويلة مع أمي، والمثير للغرابة أنني كنت أرفض العلاقات المفتوحة، أحتفظ بشيء من عروبتي أو من قيم المجتمع الذي نشأتُ عليه؛ لا أعرف، لكن لم تكن تغويني العلاقات العاطفية، الحياة في كندا رائعة، لكن عقلي وقلبي كانا ينتميان رغمًا عني للإسكندرية.

تضخمتْ ثروة أمي، ومع تضخم ثروتها تزداد المسافات بيننا؛ العنصرية أيضًا مؤلمة، ولأنني عربية الأصل لم يكن لدي إلا صديقة واحدة فلسطينية تدعي "نوال"، كانت بمثابة الأم والأخت لي، أعجبها تحفظي ولو -بشكلٍ بسيط- على قيم المجتمع العربي الذي أنتمي إليه، أعجبتها رغبتي المُلحَّة في العودة إلى مصر، لأنها تشبه رغبتها في العودة إلى فلسطين.

وفي إجازة ما قبل الالتحاق بالجامعة، تفاجأتُ باتصال أبي، كانت مفاجأة غريبة لم أتوقعها، لم أكُن له أي مشاعر عتاب أو حزن، على العكس لقد كنت في أمس الحاجة لشعور أنني ابنة؛ دعاني أبي للعودة إلى مصر، لم أتردد ولم أجد من أمي أي رد فعل، على العكس، شعرت أنها كانت تنتظر هذه الفرصة منذ زمن، لم يكن هناك عائق حقيقي يمنعني من العودة سوى دراستي.

ودعتُ صديقتي نوال؛ الذين يتحدثون عن الوداع لا يعرفون قسوة أن تودع صديقك الوحيد في المطار وشيء ما بداخلكما يؤكد أنكما لن تلتقيان مرة أخرى.

في الطائرة كان الحنين لمصر يتضاعف، الإسكندرية بهوائها وشوارعها وذكرياتها، الوجوه الطيبة تلك التي لم تغِب عن عقلي ولو للحظة، ونس الأسرة الذي تفكك فجأة بعد سفر أمي.

في أولى خطواتي على أرض مطار برج العرب، كان أبي في انتظاري، لم يتغير هذا الرجل، تلك الأعوام لم تكن كافية ليتغيّر أبي.

استقبلني خير استقبال، لم يسألني عن أمي، كان يسألني عن حياتي، فأخبرته أن الحياة في كندا باردة تمامًا كتلك الحياة التي قضيتها مع أمي، تظاهر أبي بالانزعاج من تلك الحياة الباردة، فبدأتُ أرسم أحلامًا وردية؛ لن أبقى وحدي، سيكون لدي عائلة، على الأقل سأشعر باهتمام أبي؛ لكن سرعان ما تحطمت أحلامي بعد شهرين من الحياة في مصر.

تخيل أنني لم ألتقِ بأبي إلا ثلاث مراتٍ فقط!

خيبة أمل كبيرة أصابتني، وكأن حلم الأسرة والدفء أمر في غاية الصعوبة.

التحقتُ بعدها بإحدى الجامعات الخاصة، درستُ الهندسة، وخلال سنوات الجامعة كنت على عهدي القديم، لا أبني أي علاقات عاطفية، كان الجميع يخشوني من الأساس، الجميع يعرف قوة ونفوذ أبي.

لم أكن أعرف سر هجر أمي لأبي، فليس لنا عائلة قوية، لا أعرف سوى أبي ورفقائه في العمل، حتى الغفير الذي كان له طفل صغير يؤانس وحدة طفولتي عندما عدتُ لم أجده، سألتُ أبي عنه فأخبرني أنه ترك العمل منذ فترة طويلة.

لم يختلف شعوري بالاحتياج كثيرًا من كندا عن مصر، ربما زاد معه شعور الخيبة فقط؛ إن لم تجد رقعة تحتويك وتشعرك بقيمتك فأنت لاجئ في كل الأوطان، هكذا كانت حياتي، لا شيء أكثر من الدراسة والتواصل مع نوال، كنت أصغر دفعتي في الجامعة، لكن ولأن أبي له سلطته ونفوذه لم

يحاول أحد الاقتراب مني، لم أفهم سر تلك التحفظات الغريبة؛ شعور أن العالم يتجنب التعامل معك سيِّئ، لكنني كنت أشعر بالأسوأ، اعتدتُ الأمر واعتدت تلك الحياة السخيفة.

بعد نهاية دراستي طلبتُ من أبي العمل معه، خمس سنوات لم تختلف كثيرًا عن غيرها مع أمي، سنوات من الاحتياج لأسرة، لم أعرف معنى الدفء؛ يقول العظيم ألبير كامو[٢٥]:

«عارٌ على البشرية أن ينتحر شخصٌ كان في أمَسِّ الحاجة لعناقٍ طويل».

عارض أبي فكرة العمل معه، وعندها بدأت أشعر بالمرض النفسي؛ أعيش في قصرٍ وقلبي وحياتي يعيشان في مقبرة، الأموال ما أغناها وما أرخصها إن لم تجد من تخرج معه، من يشاركك لحظات حياتك.

بدأتُ أتحدث مع نفسي، انقطع الوصل بيني وبين أمي، واكتفيتُ بصديقتي نوال؛ وذات يوم أخبرتني نوال بعودتها إلى فلسطين، كانت في غاية السعادة، لكن ما كنت أرجوه هو أن لا تشعر نوال بما شعرتُ به عند عودتي.

[٢٥] ألبير كامو: فيلسوف وجودي وكاتب مسرحي وصحفي وروائي فرنسي جزائري، ولد بالجزائر في ٧ نوفمبر ١٩١٣ لأب فرنسي قُتل بعد مولده بعام واجد في الحرب العالمية الأولى وأم إسبانية مصابة بالصمم، تخرج "ألبير كامو" من كلية الآداب قسم الفلسفة، وكانت فلسفته قائمة على فكرتين رئيسيتين هما "العبثية" و"التمرد" وقد أهلته فلسفته للفوز بجائزة "نوبل للأدب" فكان أصغر مَن نالها من الأُدباء، توفيَّ في حادث مرور بفرنسا في ٤ يناير ١٩٦٠.

تحدثتُ مع نوال عما يحدث معي وعن الاضطرابات التي أعاني منها، فنصحتني بزيارة طبيب نفسي-، رشَّحت لي طبيبًا نفسيًّا يدعى "حازم لبيب"، قالت أن صديقة قديمة لها من مصر- أخبرتها عنه، لكنني لم أهتم بنصيحتها.

وذات يوم وبعد شهرين من هذا الحوار سمعت بعمليات اغتيال متكررة في فلسطين من طرف عصابات يهودية متطرفة، فاتصلتُ بنوال لكنها لم تستجِب لمكالماتي، ولم تفتح حسابها على موقع الفيسبوك لمدة يومين؛ وفي اليوم الثالث، قرأتُ على صفحتها الشخصية منشورات نعي، لقد استشهدتْ نوال في إحدى عمليات الاغتيال المستمرة بين حركات المقاومة والعصابات اليهودية، كان خبر استشهادها بمثابة الطعنة الثالثة في حياتي، فقد رحل وطني الجميل الكبير.

وعندما علم أبي لم يبدِ اهتمامًا، بل كان يرفض الحديث معي عن هذا الأمر.

وبعد خمسة أشهر من الحزن الأنيق -ذاك الذي يأبى الظهور أمام الناس، أولئك الذين لا وجود لهم في حياتي من الأساس- كان الاحتياج يتزايد، وحينها كان "حازم لبيب" هو خير من أذهب إليه.

بدأت علاقتنا علاقة طبيب بمريضة، لكنه الاحتياج الملعون، فبعد أكثر من جلسة تواصلنا أكثر وتعمقت علاقتنا أكثر، لم يعطِني حازم أي تقارير أو أدوية، فقط قال أنني أحتاج إلى الهدوء الذهني، وقد نجح فيما أراد واستطاع أن يوفر لي كل الهدوء النفسي.

أصبح صديقًا رائعًا، يتحدث معي كل يوم، يسألني عن تفاصيل يومي، أصبح جزءًا أصيلًا مني، وجدته يخلق أسرة من اللا أسرة؛ فقد تعرفت على أسرته وأصبحت جزءًا منهم، كنت أُكن له كل مشاعر الحب، للمرة الأولى عرفتُ معنى أن يحبك أحدهم، أن يهتم بك، أن يخاف على سعادتك وحياتك، حتى عرض عليَّ الزواج، ووافقتُ، فلقد أعطاني كل ما كنت أحتاجه.

لكن رفض أبي الزواج، ولا أسباب مقنعة له أكثر من قوله:

- **«هذا الفتى لا أصل له.»**
- **«ونحن يا أبي أين جذورنا؟ أين عائلتنا؟ المال؟ المال لا يبني أسرة، نحن لدينا كل المال، ولا يوجد من يسأل عنا، المال لا يعوضنا عن فراغات مشاعرنا وقلوبنا!»**

لم يهتم أبي بكل هذا الكلام، بل حذر حازم من محاولة الاتصال بي.

عِشتُ سجنًا انفراديًّا، قطع عني كل سبل الحياة، حتى راودتنا فكرة الهروب إلى كندا، وعن طريق هاتف قديم استطعت التواصل مع حازم، واتفقنا على الهروب إلى دبي مؤقتًا، وبالفعل هربت مع حازم إلى هناك، بالطبع علم أبي بالأمر، فاتصلتُ به وطلبتُ موافقته وإلا سنتزوج هناك، لكنه أغلق الهاتف في وجهي.

حتى ليلة، كانت تلك المرة الأولى التي أسمح فيها لرجلٍ بأن يلمس جسدي؛ إن المال لا يعوض الاحتياج، والحب لا يُشترى.

بعد ثلاثة أشهر من حياتي الرائعة مع حازم، تفاجأتُ برسالة من أبي عبر الفيسبوك، كانت مقاطع جنسية لي وأنا بصحبة حازم، كنت مصدومة كيف حصل عليها؟ ومَن الذي قام بتصويرنا؟

سألت حازم الذي أنكر علاقته بالأمر، لم يكن الأمر هيِّنًا فغُرفة نومنا مراقبة!

اتصلتُ بأبي لأفهم ما حدث، فقال نصًا:

- **«الذي ترافقينه يساومني بين زواجكما والمال وبين الفضيحة، لن يُشفَى غليلي إلا وأنا أشرب من دمائكِ يا عاهرة.»**

واجهتُ حازم الذي اعترف أخيرًا، صفعته على وجهه وانهرتُ وجعًا؛ برر لي ذلك بأنه يشتاق لأسرته، وأنه فعل هذا من أجل الضغط على والدي والسماح لنا بالزواج والعودة إلى مصر، كان مبررًا سخيفًا بالنسبة لي، لكن لأنني أصبحتُ لا أملك وطنًا إلا هو تقبلته، أو كما يقولون ابتلعته.

مر شهر على هذا الحادث في انتظار رد فعل أبي، سرعان ما كان الرد أشد قسوة؛ ففي الصباح اليوم الأول من نيسان رن جرس الباب، فتحت الباب لأجد مظروفًا كبيرًا، فتحته وكان بداخله مجموعة صور، صرختُ من بشاعة الصور، فقد كانت صورًا لأهل حازم وهم غارقون في دمائهم، مع رسالة مكتوبة بخط صغير:

«يمكننا التفاوض الآن»

أبي لقد استرد حقه بطريقته الخاصة، أما حازم فلم يرحمني، كان يعذبني، ينتقم مني كل يوم بطريقة مختلفة، ما بين الإهانة، الضرب والاغتصاب.

لو كانت الرحمة موجودة في قلب أبي لسافر إلينا وقتلنا نحن، لكنه اختار أن نقتل بعضنا، فحياة حازم في خطر، وحياتي مع حازم أكثر خطورة..

قررتُ الهروب من جحيم حازم، فعدتُ إلى مصر. وما إن عدتُ إلى الإسكندرية حتى أمر أبي بحبسي، وبعدها علمتُ بمقتل حازم في دبي.

لا تتعجب، فالحياة أقسى مما تتخيل يا سراج، عام كامل في غرفتي، الحياة قاسية معي، قاسية جدًا.

الشيء الغريب هو الصمت التام على كل هذه الحوادث، وكأن أرخص ما في الأرض هو الإنسان؛ توقعتُ نهاية مأساوية لأبي، لكن فاجأني جبروته عندما أجبرني على الزواج من ابن أحد أصدقائه المهمين، وتزوجت بالفعل من "راجح التهامي" ابن أحد أهم رجال الدولة "التهامي محروس".

مسكينة أنا، ظننتُ أن هذا الزواج ربما طاقة نور تضيء حياتي، أنا أصغر من كل هذه الأحداث، لم أكن أتممتُ بعد عامي الثالث والعشرين، أمي لا تهتم، أبي قاتل ولا أحد يستطيع مواجهته، وراجح ما هو إلا مغصوب عليه مثلي تمامًا، كنت أشعر أنه حتى لا يستمتع معي، ظننتُ أن غياب الحب هو السبب، لكن ومع مرور الوقت اعترف لي بأن ميوله ذكورية، بالطبع ضحكتُ بسخرية.

احتيـاجي لأم غـاب في كنـدا، واحتيـاجي لأب انتهـى في مصرـ، احتياجي لصديق اغتيل في فلسطين، وحلم الاستقرار تحول لحلم في دبي!

قضيتُ مع راجح حياة مستقرة، على الأقل كان بمثابة رفيق جيد، اكتشفت إدمانه للكوكايين، كانت حياة مزرية قميئة، لكن لا مانع من خوض التجربة، كنا نعيش على الأموال التي يصرفها لنا والده ووالدي، نواصل حياة الرفاهية بلا معنى، بلا شغف.

بدا لي راجح أكثر من صديق، بل كان رفيقًا للتعاسة والضعف، ما يميزه عني أنه وعلى الرغم من شعوره بالاحتياج كان يعاني من اضطراباته الجنسية.

وذات يوم كنا نتعاطى الكوكايين، قال راجح دون أي مناسبة:

- **«لسنا مخيرين يا مريم، إننا نختار من مجموعة فروض وضعت رغمًا عنا في الحياة، لو كان الإنسان مخيرًا لاختار من يرافقه، ومن يتزوجه، ومن يقضي حياته معه، لاختار أن يكون فقيرًا أو غنيًّا، لاختار موطنه وعائلته؛ نحن نتوهم الحرية، لا حرية على الأرض، إنَّ الذي ينظر لنا من الأعلى هو من يختار حياتنا، هو من يحدد تفاصيل حياتنا، دياناتنا وعرقنا وأصولنا، ثم يختم اللعبة بنهاية درامية بين الفردوس والجحيم.**

لو تحدثتِ مع المسلمين لأقسموا أن الفردوس تنتظرهم، ولو تناقشتِ مع المسيحيين لأقنعوكِ أن الجنة ملاذهم، الجنة هي الموطن الأصلي لليهود، كل من يؤمن بالبعث يؤمن أيضًا أن الفردوس تنتظره، أمر سخيف مثير للسخرية؛ لِمَ كل هذا؟ لِمَ كل هذه الدراما السخيفة؟ ثم يأتي أحدهم ويقول أن الأرض ملاذ الإنسان! بل هي سجنه الأعظم والأكبر.»

كلمات مدويَّة صفعتني من راجح، قضينا حياة بائسة تعيسة، آمنتُ أن الحياة اكتفت مني، لكن وكالعادة يسقط الإيمان أمام القدر؛ مات راجح بعد جرعة زائده من الكوكايين، وأودعني أبي في مصحة لعلاج الإدمان، قضيتُ فيها عامًا كاملًا حتى تعافيت من الإدمان، حتى راجح لم تتركه لي الحياة.

بعدما عدت من المصحة، علمت بعودة أمي إلى مصر، عادت لتطمئن على ابنتها الوحيدة، وكم كنتُ سخيفة عندما ظننتُ هذا، بل إنها عادت لتصفي بعض الحسابات المتعلقة مع أبي، وللمرة الأولى يلتقيان بعد غياب أربعة عشر عامًا.

جاءت أمي، لم أستقبلها، ولم تسأل عني، يومان أسمع صوتها بالخارج وأظن أنها ستدخل غرفتي لتطمئن عليَّ لكنها لم تفعل، وكأنها لم تغِب عني أكثر من ثمان سنوات مثلًا!

أخيرًا سمعت صوت أبي وأمي في الخارج، فخرجتُ لهما، وللمرة الأولى أجتمع بهما منذ طفولتي.

ما إن رأتني أمي حتى سخرت من مظهري ومن جسدي النحيل، وشحوب وجهي وعيني الغارقة في السواد، حتى أنها طلبت ذهابي إلى لبنان وإجراء عملية تجميل، وأبي -هذا الذي لم ينظر لي حتى عندما عدت من المستشفى- وافقها على الفور.

صرختُ في وجوههم:

- **«أنتما السبب فيما حدث، أنتما السبب فيما حدث؛ أهملتماني أشد إهمال، وضعتما مصالحكما الشخصية فوق أبسط حقوقي المعيشية، سمحتما لي بالحرية المُطلقة على أن يبقى كل ما أفعله سرًا كي لا ينفضح أمركما، في حياتكما تخشون الناس ومراقبتهم لنا، ونسيتما أن الله هو الرقيب الوحيد، أنتما السبب.**

تسألانني ماذا ينقصني؟ لدي كل ما تتمناه أي فتاة، وكل ما أريده أستطيع الحصول علية فورًا، أستطيع شرائه بسهولة؛ لكن لا، ثَمّة أشياء لا تُشترى، الدفء لا يُشترى، الطمأنينة لا تُشترى، الود لا يُشترى الحب لا يُشترى.

لم أكن أحتاج لكل هذه الأزياء، لم تكن حاجتي تتلخص في حساب بنكي، أو سيارة فارهة، أردتُ الحب فقط، عناق طويل ألجأ إليه، هل تفهمون؟ أردتُ أن أشعر بالأمان، كيف يمكنني شراء هذا الشعور؟ بالله أجيبوني كيف أحصل على الحب؟ مَن الذي يبيع الحب؟ أجيبوا، كيف نشتري مثل هذه الأشياء، الأشياء السامية النبيلة، العواطف والمشاعر، كيف نشتري الحب؟»

ضحكوا وسخروا من كلماتي، فخرجتُ من المكتب، وجمعتُ أشيائي، ثم ذهبتُ إلى القاهرة.

لم أكن أعرف وجهتي هناك، لكنني كنت في حاجة لمن أشتري منه الحب.

وفي الفندق تعرفتُ على صديقة كانت تقيم بالغرفة المجاورة لي، عرفتُ أنها تعمل على إرضاء رغبات السادة أصحاب الأموال الطائلة، فأخبرتها أنني ما زلت بعذريتي، وقالت أنني لقمة ثمينة بالنسبة للزبائن العرب.

قرار غريب اتخذته في رحلتي للبحث عن الحب، وعدتها بالخروج معها، كانت أيامًا في غاية الغرابة، لم أفكر للحظة فيما أفعل، أخيرًا وافقتْ على الخروج معها بعدما أخبرتني ببعض المعلومات الهامة عن طبيعة العمل، والقاعدة الأهم:

«أن ترضي كل احتياجات وغرائز الزبون.»

ومع الأسف فالزبون الأول والوحيد الذي ذهبتُ معه يجلس أمامي الآن ويسمع هذه القصة السخيفة، وفي ذهنه يسأل كيف بعد علاقتين ما زلت بعذريتي؟

محدود خيالك يا صديقي، أنا أمتلك غشاء بكارة مطاط سميك ضيق، صحيح يسمح لي بالإنجاب لوجود الثقوب التي تسمح بمرور السائل المنوي خلاله، وهذا الغشاء لن يتمزق إلا بإجراء عملية خاصة أو بالإنجاب، هذه بالإضافة إلى أن الرحم ضيق والحل أيضًا في إجراء بعض العمليات أو استخدام الحقن والعقاقير.

بالطبع تسألني لماذا عدت عن طريقي وقررت العودة إلى الإسكندرية، وكيف كنتَ أنتَ رسالة من عند الله لي؛ ببساطة لقد كنتَ تبحث عما أبحث، الحب، لست عاهرة لكنه الاحتياج ذاك الذي يدفعنا للهاوية، كنتَ تريد شراء امرأة تنهار وتبكي أمامها، والتقيتَ بي، وأنا التي تنازلتْ عن كل

شيء في سبيل البحث عن الحب، وجدته معك في ليلة كل منا كان يبحث عن هدفه فيها.

الطرق التي سلكناها كانت في غاية الخطورة لكنه القدر، كنت مستعدة للتضحية بجسدي في سبيل شعور الأمان والطمأنينة، وكنتَ مستعدًا لدفع كل ما تملك في سبيل عناق طويل، أليستْ قاسية الحياة تلك التي تدفعنا لشراء الحب والتي تجعلنا بتلك الهشاشة؟!

عدت عن قراري لأنني وللمرة الأولى شعرت بالحب معك يا سراج، لكن تلك الليلة كانت أصعب وأعمق مما أتخيل؛ فبعدما عدت إلى الإسكندرية قررتُ إزالة الرحم، لأنني وببساطة شديدة لا أريد أن أكون سببًا في تعاسة أبنائي، كل امرأة تحتاج لشعور الأمومة، لكنني لا أريد أن أعذبهم معي، لن أستطيع الحفاظ عليهم والاعتناء بهم، ولو فعلتُ واهتممتُ بهم فكيف أحميهم من العالم؟ كيف أحميهم من قسوته ومخالبه؟ لن أنجح، ولن أكون سببًا في شقائهم الأبدي؛ أزلتُ الرحم لأنني لست أنانية، لا أريد أن أكون سببًا في جراحهم، كي لا يتعذبون كما تعذبتْ أُمهم، كما عانت في حياتها، حكمت عليهم بالعدم لأنني أخشى عليهم من نفسي ومن الحياة.

ثم عادت مريم من ذكرياتها..

كل هذا مر على فتاة لم تتجاوز الخامسة والعشرين عامًا، كل هذا في صدر فتاة كانت أقصى أمانيها أن تجد الحب!

بعد أن أنهت ما يضيق في نفسها قالت:

ـ أنت رائع يا سراج، لكنني ومع الأسف لن أستطيع التواصل معك مرة أخرى، لقد قدمتْ لي الكثير في ساعات معدودة، لنكتفِ بهذا القدر من المودة البعيدة، ولتبقى علاقتنا مجرد احتياج، كلما احتجتُ إليك واثقة بأنني سأجدك، وكلما احتجتَ لوجودي حتمًا ستجدني، لكن دع التواصل بيد القدر، اعلم أن لدي الكثير لأقوله لك، لكن هذا ليس الوقت المناسب، وداعًا.

رن جرس المنبه، فأعادني من ذكرياتي الأليمة في لقائي الثاني مع مريم، كم كانت جميلة تلك الفتاة التي لمست قلبي، لولا أنني كنت شاهدًا على الحفل لأقسمتُ أن مريم هي صاحبة رسالة الانتحار الحقيقية، لكن ليست هي، والآن عليَّ ترك ذكرياتي جانبًا والعودة لما ينتظرني من مجهول مع هاجر وفريدة.

نهضتُ من سريري، وبدأتُ وكعادتي بتنظيف المنزل، غرفة المعيشة هي أكثر الأماكن فوضى في هذا المنزل؛ هنا المعنى الحرفي للفوضى، الجميع مهذبون في البداية، ومع أول فرقعة لزجاجة النبيذ تبدأ الاحتفالات، الشرفة دائمًا مكان القبلات المسروقة، والأحاديث الجانبية، وربما لحظات الاختلاء بالنفس، أما غرفتي فهي أكثر الأماكن هدوءًا في هذا المنزل، سريرين ومروحة صغيرة مع المكتبة، وإحدى لوحات العظيم بيكاسو.

في غرفة المعيشة تلك هنا جلستْ سوما، وهنا كانت هاجر وفريدة ودهب، وهذه الأيام هي الأخيرة في حياة أحدهم، لكن شيء ما يحدثني أن كل ما أفعله تضخيم للأمور، وأن هذه الرسالة ربما تكون عابرة وقد كُتبتْ وقت ضيق وسقطتْ من أحدهم فنسي الأمر مع سقوطها!

وبالطبع ليس هذا أكثر من مجرد شعور، فربما يصدق صاحب الرسالة، ووقتها لن يرحمني شعور الندم، وأنني كنت أعرف أن هناك من سيخطو هذه الخطوة ومع ذلك لم أمنعه عنها؛ في نفسي أقول:

«ومَن أنا لأمنع أحد من الانتحار! إن رغبتي في الخلاص من هذه الدنيا ربما أكثر من رغبة صاحب الرسالة نفسه، لكنني اعتدتُ الهروب من نفسي- ومن مواجهة الحقيقة، فلو حدث وواجهتها لأشفقتُ عليها كثيرًا، أشفقتُ عليها لأنها مجبرة على الثبات، لو حدث وتركتُ لقلبي حق الصراخ لسمعته يصرخ بأن هنا قلب يتألم أيضًا، هنا حطام عظيم لا أحد يشعر به!

إنني لا أملك الوقت الكافي لأغدو حتى في آلامي، محكوم عليَّ بمواصلة الثبات لأنني لا أملك وقتًا كافيًا للانهيار، لأنني أضعف من السقوط.»

واصلتُ تنظيف المنزل، حتى قرأتُ على أحد الجدران عند باب المنزل عبارة كُتبتْ بخطٍ صغير:

«لقد أخبرتكم.. لم ينقذني أحد.. اقترب يوم الرحيل.»

أمسكت برأسي وأنا أقول:

- يا إلهي، عبارة أخرى!

لغز آخر!

مَن الذي كتب هذه العبارة هنا؟

متى كتبت وكيف لم ألاحظها من قبل؟
هل كتبت ليلة أمس أم كانت ليلة الرسالة الملعونة؟!
الأسئلة والكثير من الأسئلة..
كان الخط أعوجًا يصعب تمييزه، ربما صاحب الرسالة ليس من بينهم، ربما من أحد أصدقائنا الذين لم أتحدث معهم!
في بين مجموعة من التعساء يصعب تمييز أكثرهم تعاسة وكآبة، فهنا كالمسرح، الكل يجيد التمثيل بعيدًا عما يحدث في الكواليس.
لماذا لا يأتي هذا الشخص ويعترف أنه يفكر في الانتحار؟
لماذا لا يأتي ليطلب مساعدتنا؟
إن كان حقًا يفكر في الانتحار فلماذا لا يخرج من باب الحياة الضيق في سلام نفسي بعيدًا عن هذا الضجيج؟!
أسئلة لا تنتهي قادتني للذهاب إلى العجوز التي كانت تستعد لاستقبال هاجر..

ـ أهلًا سراج!
فتحتْ الباب ثم اتجهتْ إلى الشرفة تتابع لحظات غروب الشمس، فتبعتها، وقفتُ بجوارها ثم أشعلت سيجارتي.
قالتْ دون أن تنظر إليَّ:
ـ كل شيء جاهز لاستقبال هاجر.

ـ حسنًا، لم آتِ للسؤال عن هاجر، أريد أن أسألك إن كان أحدهم يفكر في الانتحار فلماذا لا ينتحر في سلام؟ لماذا يطلب النجدة غير المباشرة؟ لماذا لا يطلبها مباشرة؟ لماذا لا يطلب المساعدة ممن حوله يخبرهم ما يحدث له؟ لماذا يرفض الاعتراف أو المواجهة؟

أمعنتْ النظر ناحية الشمس ثم قالت:

ـ منذ فترة انتحر أحد المُغنيين المعروفين عالميًّا، وقبل يوم واحد من انتحاره نشرتْ إحدى صديقاته صورة لهما وهما يضحكان، كانت صورة مبهجة بين الأطفال، لم يخيَّل لأحد أن هذا الذي يبتسم في الصورة هو نفس الشخص الذي انتحر بعدها بيوم واحد، تساءل الجميع عن حقيقة اكتئابه، تساءل الجميع كيف انتحر هذا الذي قبلها وبيوم واحد كان يواصل حياته بشكلٍ طبيعي، لكن لم يفهم أحد أن للاكتئاب أشكال عِدة، وأغلب الذين انتحروا أرسلوا رسائل انتحار بشكل غير مباشر للعالم الخارجي، لكن لم يهتم بهم أحد.

صدقني لم يولد أحد يفكر في الانتحار، إنها خطوة في غاية التعقيد والقوة، هل تفهم معنى أن يخطو أحدهم خطوة ناحية الموت؟

طبيعة الإنسان عكس ذلك، الإنسان يخاف الموت، يخاف فكرة الخلاص، يخاف المجهول والظلام، فما بالك لو كان هو من يذهب إليه! هو من يذهب للظلام، للوحدة ، للحساب!

يا صديقي في هذه الحياة التعيسة لا أحد لم يفكر في الانتحار ولو مرة في عمره، لكن ثمة أسباب تدفعنا للبقاء.

مَن قال أنك لا تفكر في الانتحار لكنك مشغول الآن بمعرفة صاحب الرسالة، وما أن تعرف ربما ستنشغل بفترة أخرى، وهكذا..

نحن نقضي حياتنا على هيئة فترات طويلة، حتى نكتشف بعد عمرٍ طويل أننا قضينا عمرنا كله في التفكير بأشياء بعيدة كل البعد عن حقيقتنا، قضينا عمرنا نتجنب التفكير بما يحدث بداخلنا، وهذا فقط المختلف بين الشخص المنتحر والذي لم يقدم على الانتحار بعد، إنها الحقيقة، قد تكتشف حقيقة ما بداخلك وأنت في العشرينات من العمر، فتخطو هذه الخطوة مبكرًا، وقد تكتشفها في الستين من العمر، وقد ينتهي عمرك وأنت تهرب من مواجهة نفسك.

الاكتئاب مرض لعين، والذين اختصروا الاكتئاب في الصمت أو اللا مبالاة لا يعرفون قسوة الاكتئاب الحقيقية.

بالنسبة لي أحب تمييز أنواع الاكتئاب بالألوان –من وجهة نظري-؛ فهناك «الاكتئاب الأصفر» ذاك الذي يحولك لشخص اجتماعي مثير للضحك، الذي يسخر من كل شيء وأي شيء، تضحك لأسباب تافهة، وتنفعل لأسباب تافهة، وتحول نوبات بكائك وأسباب حزنك لنكات يضحك الجميع عليها، شخص ينشر البهجة حوله، ينتهز كل فرصة للاقتراب من الناس، للظهور دائمًا في التجمعات والأحداث الهامة، فقط من أجل الظهور على أنك بخير، أنك لم تتعثر كما ظن الناس، أنك ما زلت تحيا وفي أفضل حالاتك، تسمع الجميع وتهوّن عليهم وأنت في أشد احتياجك لمن يسمعك، تفعل المستحيل من أجل إسعاد الآخرين، تُقدم لهم كل المساعدة والدعم، شخص يضحك بصوت عالٍ، تلتقط الكثير من الصور، تظهر دائمًا

بأنك رمزٌ للسعادة والأمل، في نفس الوقت الذي يكون فيه قلبك يبكي ويصرخ بلا رحمة، تسمح لأحدهم بالاقتراب منك، تكون قريبًا للجميع بمسافة واحدة، بمسافة واحدة من الكذب، هو الاكتئاب الذي يجعلك تنكر حقيقتك وتتصرف عكس ما تشعر به، تحاول أن تظهر كمجرد مُهرِّج لتبعد كل الشكوك عنك، لتتجنب أي نظرة للشفقة والضعف، تجاهد لتكون بخير أمام الناس بكل الطرق الممكنة، تسخر من البؤس والتعاسة، بل تتهم من يتحدثون عنهما بالضعف، أن تكون مصدرًا للبهجة وللسعادة والاطمئنان وأنت تعاني وترتجف، وأنت تحتاج لمن يطمئن قلبك وينتشلك من الوحل؛ حتى يأتي الظلام فتظهر حقيقتك، تخلع وشاح الشخص الاجتماعي المضحك، وتكشف ندبات حزنك وتعاستك، تراجع أحداث يومك، وكم مرة كنتَ على وشك أن تبكي ولم تفعل، كم مرة غمرتك الدموع فواجهتها بابتسامة، كم تنهيدة أسى راودتك فقدمتْ لها تنهيدة ضحك وسعادة، كم موقف عابر كان يؤذي قلبك فحولته كالساحر لموقف كوميدي ساخر، كم هو مرهق هذا الاكتئاب الاصفر.

وهناك «الاكتئاب الأسود»، وذاك يعني أن تكون منعزلًا، في غرفتك وحدك، تعاني وتتألم دون أن يشعر بك أحد، تسهر طوال الليل حتى يستيقظ الناس فتذهب أنت للنوم، تخلق الحجج للاعتذار عن مقابلة أي شخص، تغلق الأبواب أمام كل راغبي الاقتراب منك، بل تؤذي من يجازف بالاقتراب منك، تبتعد عنهم بقسوة حتى لو اتُهمتَ بالقسوة والجفاء، تتجنب حتى أبسط المحادثات، تأكل من أجل أن تحيا لا أكثر، من أجل أن لا تموت من الجوع، تشعر بالضجر تجاه كل شيء، والسخط على العالم،

تُخلِّص آلامك النفسية بآلام جسدية بطريقة لا إرادية، تعترف أنك مكتئب لنفسك، وتلتزم الصمت أمام من حولك، لا تنتمي إلا لعالم من الظلام والوحدة، حبيس غرفتك لا ترغب في الخروج؛ المستقبل والهدف والكيان، تترك وتتخلى عن كل هذا رغمًا عنك، لا يهم إن اتهمتَ بالفشل واليأس، فأنت فاقد للأمل في أن يعرف أحد حقيقة ما تمُر به، لا شيء يثير انتباهك ولا شيء يغريك للخروج، أنت تعرف أنك تعاني، وهم يعرفون أنك تعاني، ومع ذلك تقطع كل سبل المساعدة نحوك، لأنك لا تثق في أي شخص، تستلم له استسلامًا تامًا لأنك لا تملك طاقة كافية لمحاربته ولهزيمته؛ هذا الاكتئاب الذي يؤثر على كل تصرفاتك وأفكارك، الذي يظهر على ملامحك فلا تحاول اخفاءه، يظهر في طريقة ملابسك، في تعبيراتك وألفاظك، واختياراتك للموسيقى والكتب، هو الاكتئاب الواضح الصريح، الاكتئاب الأسود.

وعن «الاكتئاب الأزرق»، فهذا أحد أنواع الاكتئاب المؤذية، هذا الذي يجعلك تتعامل مع الحياة بلا شغف تجاهها، تسطح علاقاتك بالجميع، ترد على الأسئلة بأبسط الإجابات الممكنة، ترضي الجميع، لا تفكر إلا في مجاراتهم كما يقولون، من يتهمك بالسوء تعتذر له بهدوء تام، من يتهمك بالتعاسة تضحك في وجهه، لا أنتَ راغب في تصحيح وجهة نظر أحد عنك، ولا أنت تبحث عن فرصة لإثبات شيء لأحد، مسالم أنتَ للحد الذي يجعلك لا تفكر إلا في تجنب الناس، في البحث عن أقل قدر من الضغط والتعب؛ هذا أنت كورقة في قلب عاصفة تتأرجح فقط لتحيا، لا تتحدث مع الناس، تكتفي بالاندماج مع الموسيقى والقراءة، بالتعامل مع

الحيوانات، ومصاحبة أشخاص لا وجود لهم على أرض الواقع، تسمح لأحدهم بالاقتراب منك، ثم يغمرك الخوف فجأة، فتبتعد بلا أسباب واضحة: مُشتتٌ أنتَ ومضطرب، خير رفيق لكل شيء بعيدًا عن الناس، أنت خير صاحب لمن لا يتحدث، لمن لا يوجعك أو يؤذيك بكلماته: الاكتئاب الأزرق يجعلك رقيقًا حَد الهشاشة، أبسط الكلمات تزعجك، حتى بعض الأصوات تستدرجك للبكاء، أنت هَشّ للحد الذي يجعلك تبكي أحيانًا بلا سبب، تشعر بضيقٍ مفاجئ بلا سبب، بسعادة بلا سبب، فجأة تشعر وكأن الأرض ملك لك، وفجأة تشعر أنك مسجون في باطنها؛ التفاصيل يا صديقي، التفاصيل، تلاحظ أشياءً لا يلاحظها أحد، وتبكي عليها ثم تسخر منها، وتُتَفِّهُ من أسبابها، المواقف الصغيرة تؤلمك وتبكيك، وأمام المواقف التي تستحق بكائك لا تبكي وكأنك صلب، ثم تعود لغرفتك، تغرزك أفكارك بين تشتتك في الحزن والسعادة، بين رغبتك في النهوض وميلك الشديد للجلوس في غرفتك دون فعل شيء واحد.

أما عن «الاكتئاب الرمادي» فهذا يعتبر أقسى- أنواع الاكتئاب يا صديقي، فأن تكون مكتئبًا هذا لا يعني أن تنعزل، الاكتئاب الرمادي أشد قسوة مما تتخيل، ذاك الاكتئاب يجعلك تمارس حياتك بشكل طبيعي، تنهض من فراشك بلا رغبة حقيقية في النهوض، لكنك مُجبر على مواصلة عملك، لأنك لا تملك إلا أسبابًا تافهة –بالنسبة للبعض- تخجل من الجهر بها، تأكل وأنت فاقد للشهية وللمذاق تمامًا، فلا فرق بين البصل وقطعة الحلوى، تجلس مع الناس لتتجنب سؤالهم عن غيابك، لأنك مُجبر على أن تكون طبيعيًا؛ في وادٍ آخر أنت بأفكارك واضطراباتك ومخاوفك رغم أنك

تجلس معهم، إلا أنك بعيد كل البعد عنهم، تراهم يضحكون فتضحك معهم، دون أن تعرف سبب هذا الهرج والضحك لكنك تضحك، إذا تأخرتْ القهوة قليلًا فلن تنفعل، ربما لن تطلبها من الأساس، إذا حققتَ إنجازًا هامًا في حياتك لن تهتم، فمهما طال وجوده سيأتي شيء يحطمه ويهزمك؛ إذا وعدَك شخص بالبقاء تقول لنفسك:

«كم سيكون رائعًا لو كنا التقينا قبل تشبع قلبي بالحزن والتعاسة.»

تواصل القيام بمهامك الطبيعية كإنسانٍ طبيعي مسالم لا يريد أن يؤذي أحدًا أو يتأذى بأحد؛ ثم يأتي الظلام، فينخلع وشاح ثباتك، وتهزمك موسيقى جديدة، أو مُقتبس لكاتبٍ يشعر بما تشعر، تقتلك الذكريات، ويحرضك الأنين على الصراخ، لكنك لا تستطيع لأنك لا تملك سببًا قويًا تخبر أهلك به إن استيقظوا على صراخك، لا تملك إلا الاعتذار حتى عن أفعال وكوارث لم ترتكبها، تشعر بالشفقة تجاه نفسك، تتحمل كل هذا في الخفاء، تواصل التأمل والتفكير نحو اللا شيء؛ اللا شيء متعب جدًا يا صديقي، ومن فرط الآلام وبعد ليلة في غاية القسوة كان بطلاها الصراخ الصامت والبكاء المرتعش، تغدو في نومٍ متقطع لتواصل اكتئابك مع كوابيس أقل قسوة من الواقع، ثم تستيقظ من جديد وتعيد نفس المهام؛ وهذا الاكتئاب الرمادي لا يجعلك منعزلًا، بل يجعلك شخصًا بلا شغف، بلا روح، بلا حياة.

ثمة أنواع وأشكال للاكتئاب تختلف، منها ما يجعلك صامتًا، مستسلمًا، تتقبل كل شيء بصدر رحب، أمام الصدمات تصمت، أمام لحظات البكاء لا تبكي، أمام المواقف الصعبة تبتسم، لا تبالي بأحد ولا تهتم بأحد، لا تكترث بالعالم، مهما تحدثتَ تعجز عن وصف ما بداخلك، تشعر أنك لا تملك أي كلمة لشرح المأساة التي تعاني منها، مهما تحدثتَ تشعر بضيقٍ كبير في صدرك، وكأنك لا تتحدث عن نفسك من الأساس؛ ومنها ما يجعلك سخيفًا، تؤذي الجميع ولا تشعر بالندم أو الذنب، تصيب الجميع بكلماتك السامة، لا تهتم لقلوب تئِن بسببك، لا تهتم لأذى غيرك، لا تفكر إلا في سعادتك وصفاء ذهنك وهدوئك، ترد على الكلمات الجميلة بردودٍ سخيفة باردة، ترد على الأذى بأشد أذى، لا تسمح لأحد بالتلاعب بك، أو محاولة الاستهانة والاستخفاف بك، ومع كل هذا تشعر بالرضا التام عن نفسك؛ وآخر منها يجعلك تشعر بالنرجسية، ذلك لأنك تألمت أكثر مما ينبغِ، فتحاول تعويض نفسك عن كل لحظة أسى عشتها، عن كل لحظة ضعف مرت على قلبك، تبتعد عن كل الذين يعاتبونك، وتقترب من كل الذين يرونك شخصًا مثاليًّا حتى لو لم تكن كذلك، المهم أنت أولا وأخيرًا، وكأنك أنت مَلِك العالم.

للاكتئاب أشكال وأنواع إن تحدثنا عنها لن ننتهِ، هناك مكتئب باكي، ومكتئب تعيس، مكتئب اجتماعي، ومكتئب انطوائي، مكتئب يملأ حياتك بالدفء، ومكتئب قاسي القلب، ومكتئب صامت؛ الاكتئاب هو الحقيقة الوحيدة التي تغير كل نفس بشرية رغمًا عنها.

رددتُ في نفسي:

ـ الاكتئاب هو الحقيقة الوحيدة التي تغير النفس البشرية رغمًا عنها.

ـ والآن، دعنا من كل هذا وأخبرني هل وجدتَ طريقة للاقتراب من فريدة؟

قلتُ:

ـ لا، فريدة بالنسبة لي أكثرهم تعقيدًا، إنها فتاة نرجسية بطريقة غريبة، لا يمكن اقتحام قلبها بسهولة، هي تلك التي تراها من المرة الأولى فتتهمها بالتعالي والغرور، لا تتحدث إلا عن إنجازاتها، وعن نجاحاتها، لا تهتم بنجاح أحد، ولا تقدم مساعدة لأي شخص، ترى نفسها البطلة الوحيدة في العالم، غامضة لا تتحدث إلا قليلًا، رغم أنها تبدو ثرثارة، إلا أنها وبعيدًا عن أضواء الكاميرات وقلم الجريدة لا تتحدث إلا قليلًا جدًا، لكن سأحاول إيجاد ثغرة للاقتراب منها؛ والآن كيف هي البداية مع هاجر؟

قالت العجوز:

ـ تعالَ لتعرف أماكن الكاميرات السرية..

سألتها في حيرة:

ـ ألا يعتبر هذا خيانة للأمانة؟

ردتْ في حزم:

ـ ولو كانت هي صاحبة الرسالة، ألن يكون هذا خيانة لإنسانيتنا؟!

بعد أن تأكدنا من توصيل الكاميرات وجودة الصورة والصوت، عدتُ لشقتي وبدأت بمتابعة الجلسة النفسية خلف شاشة الحاسوب.

"هاجر أباظة"

في تمام العاشرة وصلت هاجر، بفستانٍ أسود طويل، وملامحها الهادئة المضطربة دائمًا؛ رحبتْ يوستانيا بها، وبدأتْ هاجر تتفحص أرجاء المنزل..

ـ منزلكِ رائع، إنه يشعرني بالأمان!

ابتسمتْ يوستانيا:

ـ إنه عالمي الخاص.

دعتها يوستانيا لغرفة المكتب، واتجهتا معًا وهاجر في حالة انبهار بالمنزل الذي تشعر وكأنه قطعة من روما، حتى أبسط تفاصيل منزل يوستانيا كانت مذهلة، السقف المنقوش بالرسومات، اللوحات، الجدران، الأثاث القديم وكأنه أقوى من تغيرات الزمن، وصور العذراء والمسيح.

قدمتْ يوستانيا القهوة لهاجر التي كانت واقفة تتأمل صورة يوستانيا وخالد يوم زفافهما..

ـ تبدين رائعة هنا يا سيدتي!

ردتْ العجوز:

ـ لقد كان سببًا في بقائي على قيد الحياة.

اتجهتْ هاجر إلى الأريكة، واتكأت على زراعيها ثم قالت:

ـ سببًا في بقائك على قيد الحياة! مؤلمة هذه العبارة يا سيدتي، مؤلمة وغريبة!

سألتها يوستانيا:

ـ ألم تكوني يومًا السبب في بقاء أحد على قيد الحياة؟ أو تشعري بالامتنان لشخص أعطى لكِ سببًا لبقائك على قيد الحياة؟

قالت هاجر:

ـ دعينا نتفق على شيء..

قالت يوستانيا:

ـ أي شيء؟!

ردتْ:

ـ لا تسألیني عن أي شيء، أحب أن يكون اللقاء بيننا مختلفًا، سأتحدث كما لو أنني أتحدث إلى نفسي، يمكنكِ الاستماع إليَّ فقط؛ إنَّ أكثر ما أحتاجه هو أن تسمعيني، ربما أجد ضالتي في الحديث معكِ.

أشارت يوستانيا برأسها إلى الموافقة وقالت:

ـ لكِ كل الحرية.

ـ اسمي هاجر، أبلغ من العُمر خمسة وعشرين عامًا، أعاني من عدة أمراض نفسية، سأتحدث عنها لاحقًا..

هاجر من الهَجْر، وأنا دائمًا الطرف المجنى عليه.

في طفولتي ولدتُ في ظروف غريبة، أمي سيدة عظيمة، وبهذا الوصف يمكن اختصار معاناتها مع أبي.

لأسبابٍ عاطفية طائشة تزوجت العظيمة أمي من أبي، ذاك الشاب وقتها الذي كان أقل منها في المستوى الاجتماعي والمادي، وحاربتْ من أجل

الحياة معه، حاربت الأهل والظروف والعادات والتقاليد، عاشوا حياة رائعة في البداية، ساعدته كثيرًا في بداية حياتهم، تكفَّلَتْ هي بمصاريف الزواج، أمي التي لم تعمل طوال حياتها، المرفهة المدللة ابنة الأكابر اضطرتْ بعد الزواج للعمل من أجل مساعدة أبي، ومن أجل توفير الاستقرار المادي لهما.

مع مرور الوقت بدأت الحياة تميل ناحية أمي، أصبحت هي المسؤولة عن كل شبر في منزلنا، وأبي لم أكن أراه إلا صدفة، وأمي تلك الجميلة التي لطالما وقفت بجواري.

وذات يوم كنا في تجمع عائلي، لم أكن محبوبة في عائلتنا، كنت أشعر بهذا من معاملتهم الجافة معي، في البداية لم أكن أعرف سر تلك المعاملة، كانوا يتجنبونني بشكلٍ غريب، يتهامسون ويسخرون، كنت أشعر أنني مادة للسخرية بالنسبة لهم؛ عدتُ إلى المنزل منهارة تمامًا، وشكوتُ لأمي ما حدث، فأبعدتْ الفكرة عن رأسي بطريقتها المعتادة، وعدتُ لغرفتي في محاولة للاقتناع بكلمات أمي.

لكن وفي هذه الليلة سمعت أمي تقول:

- **«هاجر تشتكي من معاملة أقاربك، أفكر جديًّا في عدم ذهابي لهذا التجمع السخيف، حتى أنا بدأت أشعر بشيء من الإهانة في تواجدي معهم، أنت تعرف أنهم لا يحبونني.»**

قال أبي بسخرية:

- **«هذه أوهام أنت كعادتكِ تخلقينها، يبدو أن ابنتك لن تختلف كثيرًا عنكِ.»**

اعترضتْ أمي على اتهامها بخلق أوهام لا حقيقة لها؛ كنت أسمع المناقشة التي بدأت تصل لحدتها، حتى سمعتُ صراخ أمي، خرجتُ من غرفتي فوجدتُ أبي يبرح أمي ضربًا، لم أتحمل مشهد أبي وهو يضرب أمي بهذه الطريقة الوحشية، وقفتُ أمامه، فدفعني مرة، وقفتُ أمامه مرة أخرى وبدأت في مقاومته حتى دفعني بقوة، فارتطمتُ بالأرض.

لم أشعر بنفسي إلا وأنا في غرفة المستشفى؛ استيقظتُ فوجدتُ أمي تجلس على الكرسي وتقرأ القرآن الكريم..

- **«أمي، أين أنا؟»**

عانقتني أمي:

- **«حمدًا لله على سلامتكِ يا ابنتي.»**

دخل أبي وهو يبتسم ابتسامته السمجة:

«حمدًا لله على سلامتك يا هاجر، اعذري أمك، لقد نسيتُ أن تجفف الحمام بشكل صحيح.»

لم أرد عليه، كنت في حالة ضيقٍ من وجوده.

بعد ذلك عدنا إلى المنزل، واتجهتُ مباشرة إلى غرفتي، ولحقتني أمي..

- **«كيف حالكِ الآن يا أمي؟»**

قالت أمي بهدوء:

- **«أنا على ما يرام، كيف حالك أنتِ؟»**

قلتُ:

- **«ماذا حدث؟»**

قالت:

- **«لا شيء، أنتِ استيقظتِ في الرابعة فجرًا واتجهتِ إلى الحمام، ثم تزحلقتْ قدمكِ فارتطمتِ بالأرض.»**

بسخرية:

- **«بالطبع تمزحين! لقد كنت أدافع عنكِ ضد أبي عندما كان يعتدي عليكِ بالضرب المُبرح، وهو مَن دفعني بقوة»**

قالت أمي بعد صمتٍ طويل:

- **«لا يا ابنتي، هذا كان مجرد حلم، مجرد حلم.»**

دخل أبي الغرفة:

- **«والآن كيف حال ابنتي العزيزة؟»**

واجهتُ أبي:

- **«لماذا كنت تضرب أمي بتلك الطريقة الوحشية؟ أنا أكرهك.»**

بتعجب قال أبي:

- **«ضرب بوحشية! لقد قالت لكِ أنه مجرد حلم عابر، وعلى أي حال إن كنتِ تكرهينني فأنا أحبكِ جدًا.»**

كدتُ أُجَنّ، بل كاد عقلي ينفجر.

وبعد هذا الموقف بدأ أبي يُكذبني في كل شيء، يُكذبني في تطاول بنات عماتي عليَّ، كان يتهمني بالجنون، وكلما لجئتُ إلى أمي تؤكد لي أن أبي معه حق، وأنهم يحبونني ويعاملونني بلُطف.

لقد أصابتني تلك التجمعات الأسبوعية بالاكتئاب، كنتُ أسمعهم يسخرون مني، يعاملونني بقسوة وجفاء ويتجنبونني، فأقول لنفسي:

«إنهم يحبونني.. إنهم يحسنون معاملتي.»

كنتُ أحاول تكذيب أذني وطريقتهم معي.

ثم جاءت المرحلة الأخيرة من الثانوية، وفجأة أصدر أبي فَرَمَانًا مجهول الدراسة في بيتنا، أنه يجب ألا تكون بنات عماتي أفضل مني؛ فجأة انتبه أبي أن له ابنه، وفجأة أمرني بالاجتهاد في المذاكرة من أجل الالتحاق بكلية الطب، وكانت موهبتي في الرسم تقودني لحلم الالتحاق بكلية الفنون الجميلة، ومحاولات إقناع أمي فشلت، فللأسف حاولتُ إقناع أبي:

- **«أحب الرسم يا أبي، إنني أريد الالتحاق بكلية الفنون الجميلة.»**
- **«الرسم! تظنين أنكِ فنانة أو ما شابه؟! اسمعي يا هاجر، بنات عماتك لسن أفضل منكِ، افعلي كل ما في وسعك من أجل الالتحاق بكلية الطب.»**

باستهجان قلت:

- **«أبي من فضلك، هذه رغبتي!»**

فجأة جذبني أبي من شعري وهو يقول:

- **«رغباتكِ ملك لنفسكِ، لكن عندما يتعلق الأمر بمظهري أمام الناس فعليكِ إرضائي، أسمعتِ؟»**

كنتُ أبكي بشدة ليرحمني من هذه القسوة، ومن صوتي العالي دخلت أمي:

- **«اتركها.. اتركها..»**

وكمقاومتي له في طفولتي وقفتْ أمي أمامه ودفعته بعيدًا عني، فوقف أبي وأنا على الأرض وقال:

- **«اسمعا، لن يحدث إلا ما أريده، ابنتكِ لن تلتحق إلا بكلية الطب، وإن لم يحدث سأعتبر أن ابنتي ماتت.»**

خرج أبي وهو في حالة غضب، وعلى صدر أمي كنتُ أجهَّش بالبكاء:

- **«هذه المرة ليس حلمًا يا أمي، هذه المرة ليس حلمًا، لقد ضربني أشد ضربٍ! أنا لن ألتحق إلا بكلية الفنون الجميلة.»**

عانقتني أمي، عانقتني حتى شعرتُ بقطرات دموعها تسقط على جبيني.

بعدها بيومين كان اللقاء الأسبوعي السخيف، كنتُ في حالة سعادة بعدما قدمت لي أمي فستانًا جديدًا لترضيني وتعتذر عما بدر من أبي، ووسط بنات عماتي كنت أنا أجملهن، كنتُ فَرِحَة بالفستان كثيرًا.

جلست أمي بجواري وأنا في حالة تباهي؛ يومها أخت أبي الكبرى اعترضت على ملابسي، اتهمت أمي بأنها متساهلة كثيرًا في طريقة تعاملها معي، وأن هذه الملابس تثير الشهوة؛ لم أفهم معنى كلمة الشهوة، صحيح كنت في السابعة عشر من عمري لكن ثمة أشياء كنت أجهلها..

اعترضتْ أمي على طريقة عمتي وقالت نصًّا:

- **«هذه ابنتي وأنا أرى ما يناسبها.»**

فجأة وأمام الجميع نهض أبي وصفع أمي، شدتْ أمي بيدي وخرجنا، وفي الطريق كانت أمي تبكي، تبكي وهي تقود سيارتها، كنت في حالة ذهول وصدمة، لا أعرف بالضبط ما حدث، أي شهوة تقصدها عمتي!

رفضت أمي التعليق على أي شيء، رفضت حتى إجابتي على الأسئلة حتى بعد وصولنا إلى المنزل:

- **«أمي أنا لا أفهم ما يحدث.»**

وهي منهارة ربتت أمي على كتفي:

- **«لا تقلقي سأخبرك بكل شيء فيما بعد ، الان اذهبي إلى غرفتك ونامي يا حبيبتي.»**

اتجهتُ إلى الغرفة حتى سمعتُ صوت أبي، اقتحم غرفتي وضربني، لا لم يكن ضربًا، كان وكأنه يحاول قتلي:

- **«يا عاهرة، ما علاقتكِ بالشاب الذي يسكن بجوار جدتك؟ أين تلتقيا؟ لقد شاهدتكِ ابنة عمتكِ وأنتِ تتحدثين معه في مدخل العقار، لقد شاهدتكِ وأنتِ تضحكين وتمسكين يده!»**

كدتُ أختنق تمامًا..

وللمرة الثانية اقتحمت أمي الغرفة، ونشب صراع عنيف بينهما:

- **«ابنتكِ يا أستاذة يا فاضلة على علاقة بشاب، ابنتكِ تضحك وتتسامر وتمسك يده، ابنتكِ بسبب ملابسها وطريقتها الناعمة، بسبب دلعكِ الشديد لها..»**

قالت أمي بغضب:

- **«اخرس! ابنتي أشرف من كل بنات عائلتك، ابنتي أشرف وأنضف بنات الكون.»**

دفعها أبي بعيدًا، وواصل ضربي بقسوة، كنتُ أصرخ:

- **«يا إلهي! أقسم لا أعرف أي شاب تقصد، أقسم لا أعرف أي شاب تقصد؛ يا أبي أقسم لك لا أعرف عن أي شيء تتحدث!»**

لم يكترث، وواصل ضربي حتى أُغمي عليَّ تمامًا.

استيقظتُ بعد يوم كامل، وكان منزلنا بالخارج يضج بالأصوات، ناديتُ أمي التي جاءت على الفور، سألتها عما يحدث بالخارج، فقالت أن أخيها جاء ليطمئن على صحتي، لم أتحرك من مكاني حتى سمعتُ أبي يتحدث عن مدى معاملته اللطيفة معي، وأنني أتوهم أشياءً لا تحدث، وحينها اضطررتُ للخروج إليهم رغمًا عن تعبي:

- **«أنتَ كاذب، دائمًا تكذب، وهذه هي طريقتكَ المعتادة لكسب الناس حولك، تحاول إظهار صورتكَ الملائكية كي يتهموننا نحن بالافتراء عليك، تهمنا بالعار، والعار يسكن قلبك وأفكارك، أنتَ مريض وتحاول**

إخفاء هذا المرض باتهامنا نحن بالمرض، بنفس منطق السارق الذي يظن كل مَن حوله مجموعة من اللصوص..»

عندها صفعتني أمي، لم تكن صفعة أمي مؤلمة، لكن الصفعة في قلبي كانت كارثية.

أن يؤذيك ذاك الذي تدافع عنه هنا تكمُن الضربة القاضية!

تلك المرة قررتُ أن أنطوي في ذاتي، أن لا أهتم إلا بسعادتي أنا، أن أستكشف العالم الخارجي بطريقتي.

كان بإمكاني التعافي سريعًا من الاكتئاب، لكن طريقتهم معي جعلت فكرة الشفاء منه شبه مستحيلة؛ ففي تلك الفترة بدأ الجميع يتعاملون معي على أنني مجنونة، لم أكن كذلك، كل ما في الأمر أنني كنتُ أحاول جاهدة التأقلم مع الحياة!

لا أحد يعلم معنى أن تجاهد من أجل أن تكون شخصًا طبيعيًّا، شخصًا يستطيع التحدث مع الجميع، لا يخاف التجمعات، لا يتأثر بأفكاره الوجودية، يتعامل مع الحياة ببساطة وتلقائية.

لا أحد يعلم قسوة أن تصارع مخاوفك تجاه الناس، أن تتجنب حطامك واكتئابك وتحاول الظهور في أفضل حالاتك مع أنك لستَ كذلك، إن الأمر يتطلب الكثير من الجهد والحذر؛ والأمر صعب عندما يتعامل معك مَن حولك على أنك مختل، ثم يطالبونك بالعقل، يرونك تتمايل فيطالبونك بالاتزان، ينظرون لك نظرات الشفقة ثم يعاتبونك على أنك تكترث للتفاصيل!

المشكلة لم تكن عندي أبدًا، بل كانت في طريقتهم؛ استطاعوا جميعًا أن يعاملوني بطريقة تؤكد أنني مريضة نفسية، وقد نجحوا.

لم أسال أمي عما حدث بخصوص اتهام أبي لي بالعار، لم أدافع عن نفسي، أصبحتُ مستسلمة لكل شيء، حتى أمي التي دافعتُ عنها انضمتْ إليهم.

مرت تلك الفترة أصعب مما كنتُ أتخيَّل، ظننتُ أنها ستستمر بهذا السوء، لكنني اكتشفتُ ما هو أسوأ، حتى يوم ظهور نتيجة الثانوية العامة.

أخرجتْ هاجر من حقيبتها لوحة متهرئة، وأعطتْ اللوحة إلى يوستانيا التي أعجبتها اللوحة كثيرًا رغم اهترائها:

ـ ما رأيكِ؟

قالت العجوز بانبهار:

ـ رائعة!

ضحكتْ هاجر ثم واصلت:

ـ بعد ظهور نتيجة الثانوية العامة كانت هناك عدة اختبارات للقبول في كلية الفنون الجميلة، وقتها كنتُ في حالة سعادة عارمة، وكنتُ متحمسة جدًا للفكرة، أعرف أنني موهوبة، وقد كانت تلك الفرصة الأولى لإثبات موهبتي؛ لم أهتم بآراء أقاربي، ولا بالحوار الذي حدث بين أبي وأمي عن مجموعي الذي لا يؤهلني للالتحاق بكليات الطب، كانت سعادتي أكبر من ضجيجهم.

حتى يوم دخل أبي غرفتي غاضبًا وسألني عما أفعل، كنت حينها أضع سماعات الرأس ومشغولة بالرسم والموسيقى فلم أنتبه لوجوده، لكنه اقترب أكثر ثم أمسك اللوحة والألوان والأقلام وحطمهم أمامي قائلًا:

- **«أهذا ما حصدته؟ كل ما صرفته على تعليمكِ ينتهي بتلك التفاهة؟»**

صمتتُ مصدومة مما يفعل.

على جدران غرفتي كانت لوحاتي، مزقها جميعًا، كان ثائرًا يبحث عن تحطيم أحلامي، فتَّش في الخزانة، حطم كل متعلقاتي الشخصية وهو يقول:

- **«أنتِ تافهة، أنتِ خَيبَتي العظيمة.»**

كنتُ صامتة، أجلس على الأرض أشاهده وهو يحطم ويكسر ويمزق أحلامي، الموسيقى العالية ربما أثارت غضبه أكثر فحطم الهاتف..

- **«أنتِ فاشلة، أنتِ خَيبَتي العظيمة، أنتِ عاري.»**

حاولتْ أمي إيقافه لكنه دفعها بقوة قائلًا:

- **«أنتِ السبب فيما تفعله هذه الملعونة، أنتِ السبب في فُجرها وسقوطها، أنتِ المسؤولة عن أفكارها الشيطانية.»**

مزَّق ملابسي التي بالخزانة، حتى الحاسوب لم يسلم منه، وأدوات التجميل لم تعد صالحة للاستخدام، لقد أراد في تلك اللحظة أن يحطم كل شيء، وها قد فعل، لكنه لم يدرك أن تحطيمه لمثل هذه الأشياء كانت أقل الخسائر بالنسبة له ولي، فلقد حطم ما هو أثمن وأعمق من الألوان واللوحات، لقد حطم قلبي ومشاعري نحوه.

لم يكن صمتي ضعف أبدًا، كان بإمكاني الصراخ في وجهه، كان بإمكاني مواجهته، كنت أستطيع الدفاع عن أشيائي، صمتي لم يكن إلا مسمارًا أخيرًا في نعشه بالنسبة لي، صمتي كان جنازة مهيبة لوفاته بداخلي، أردتُ الانتقام بطريقتي الخاصة، وأشد طرق الانتقام أن تدفن شخصًا في قلبك وهو لا يزال على قيد الحياة.

خرج بعد أن ركلني بقوة وبصق على وجهي، وبعد هذا اليوم اعتبرتُ أبي في تعداد الموتى، طويتُ صفحته من حياتي، حتى أمي التي كنت أضع عليها الأملَ في الدفاع عني للمرة الثانية جعلتها سلبيتها لا تختلف كثيرًا عن أبي.

انتهتْ علاقتي بهم وللأبد، حققتُ ما أردت والتحقت بكلية الفنون الجميلة؛ وفي النصف الأول من العام الدراسي الأول كنت أذهب فقط إلى المحاضرات ومن ثَمَّ أعود إلى المنزل في هدوء تام، زملائي لطفاء جدًا، لكنني كنت أحتاج لمن يشجعني على الانضمام لهم.

عائلتي تحولتْ لأشباح لا وجود لهم، لطالما كنتُ أتمنى على الأقل أن لا تنضم أمي لهم، لكن صمتها وسلبيتها كانوا سببًا في زرع القسوة تجاهها بداخلي، ثَمَّة أشياء كادت أن تتغير لولا موقف أمي؛ أمي هي الصديقة الوحيدة التي تمنيتها في حياتي، والوحيدة التي لن يجمعني بها إلا عتاب طويل لن ينتهي مهما حدث.

مرَّ النصف الأول من الدراسة باردًا وهادئًا، ومع بداية محاضرات النصف الثاني من العام الدراسي كنت أجلس وحدي في المُدرج، حتى اقتربت مني فتاة جميلة، لطالما لاحظتُ أنها تتابعني بنظراتها..

- **«هل تسمحين لي بالجلوس معكِ؟»**
- **«تفضلي.»**
- **«أنا ساندي، زميلتكِ في الدفعة.»**

قلت:

- **«أهلًا ساندي، سعدتُ برؤيتكِ.»**
- **«تجلسين وحدكِ دائمًا، بإمكاني أن أعرف ما السبب؟»**

ابتسمتُ لها:

- **«لا، كل ما في الأمر أنني أخاف أحيانًا أن أكون سخيفة، أقصد أنني أخاف أن أُصبح حملًا، أو أكون موجودة مع مجموعة لا تتقبلني.»**

ضحكتْ ساندي:

- **«الأمر ليس بهذا التعقيد، على أي حال سنكون أصدقاءً رائعين.»**

رافقتني ساندي حتى أعلى مبنى الكلية، وقالت:

- **«هنا يا صديقتي عالم صغير، انظري إلى الأسفل، بإمكاني أن أخبركِ بنشاط كل مجموعة؛ هؤلاء مثلًا تجدينهم يجلسون وحدهم، يتحدثون بصوتٍ خافت، وينظرون إلينا باشمئزازٍ دائم، لا يحضرون أغلب المحاضرات، ومع ذلك هم الأكثر تفوقًا بين الطلبة، أقصد بين العاهرات والملحدين كما يلقبوننا دائمًا، وفي الغالب لا أحد يعرف سبب انضمامهم لهذه**

الكلية، حتى هم لا يعرفون سبب انضمامهم لها، ومع ذلك هم موهوبين جدًا، ليس في الرسم فقط، بل في جذب مَن هم خارج مجموعتهم.

وعن هؤلاء فبإمكانكِ معرفتهم من ملابسهم، هم أولئك مدعي الاشتراكية والشيوعية، يفكرون دائمًا في الثورة والحرية، يتحدثون بمصطلحاتٍ لا أفهمها، لكن حسبما علمتُ أنهم يرون الأثرياء مجرد كائنات برجوازية تتمتع بتَرَفٍ لا يستحقونه على حساب الفقراء، ينظرون دائمًا للمجموعات الأخرى على أنهم مجموعة من التافهين السطحيين الذين لا يبالون بما يحدث مثلًا بين كوريا الشمالية وجارتها الجنوبية، من الصعب أن تجدينهم في اتحادٍ مع المجموعات الإسلامية، لكن وإن وجدتِهم في اجتماعٍ واحد فحتمًا نحن نستعد لحدوث مناوشات مع الأمن، ومع ذلك لا يتجاوز الأمر حَد المناوشات، لأن وببساطة أغلبهم من تلك الفئة التي يضطهدونها، وهي البرجوازية.

وعن هؤلاء الذين يضحكون، فهم البلهاء حسب نظرة المجموعات الأخرى، هؤلاء مَن يشبهوننا إلى حد ما، مجموعة عادية يفكرون في السفر، وفي الرسم، وفي الموسيقى، لا يعطون أي اهتمام لما يحدث في العالم، لا يعرفون أسماء الوزراء، لا يعرفون أين تقع البوسنا والهرسك مثلًا، هؤلاء لا يهتمون إلا بالأزياء، بالروايات، بالحفلات والألبومات الغنائية، لا هُم فقراء ولا هُم أثرياء، هم مِن أولئك أصحاب الطبقة المتوسطة.

هنا ستجدين كل شيء حولك، الأهم أن تختاري بعناية أي مجموعة من كل هذه المجموعات تشبهكِ، على الأقل التي لن تؤذكِ.»

بعد هذا اليوم أصبحتْ ساندي جزءًا من عالمي، أظن وقتها أنني كنت ساذجة بطريقة جعلتني أأتمنه على حياتي وأسراري ومخاوفي من العالم.

صحيح كانت ساندي تختلف عني في كل شيء، انفتاحها على العالم، تعدد علاقاتها، تقبلها لكل شيء، وقدراتها على مواجهة العالم، ثمة أشياء كانت تزعجني منها، كتقبلها لأي شاب مثلًا، لطالما حدث خلاف بيننا في هذه المسألة، فلطالما كانوا يعرضون عليها أن أصاحب أحدهم، ولكنني كنت أرفض تمامًا، ثمة أشياء في طباعنا بيني وبين ساندي كانت مختلفة، لكن ولأنني كنت ضعيفة جدًا وخائفة من العالم فأكثر ما أبهرني في شخصيتها هي الجرأة والشجاعة.

استمرتْ علاقتنا لمدة عام، تحسنتْ حالتي النفسية، تجرأتُ أكثر على العالم، تعلمتُ معنى أن أتجنب دخول صراعات مع والدي، مع عائلتي التي لم تتعدَ علاقتي بهم مجرد غرفة في منزلهم، بعيدًا عن أفكارهم، وبعد اتهامي بإقامة علاقة مع شابٍ لا أعرفه من الأساس لم أحضر- أي اجتماع عائلي، مَرَّت الأزمة وكأنها لم تحدث، لكن وفي داخلي لم ولن أنساها، لكنني وببساطة شديدة تجاوزتها من أجل أن أحيا، أن أحيا فقط.

بدأتُ أفتح ذراعيّ للعالم، لكن كطفلة تتشبث بجلباب أمها، كنت أعتبر ساندي دائمًا نافذتي ووجهتي على العالم، كنا نقضي أغلب الوقت معًا.

وذات يوم دعتني ساندي للسهر معها في منزلها، وبالفعل ذهبتُ إلى منزلها، كنا نجلس في الصالة نشاهد التلفاز، وبعد نصف ساعة خرجت ساندي لشراء القهوة وبعض مستلزمات السهرة؛ وما إن خرجتْ حتى خرج من أحد الغرف شابٌ التقيتُ به أكثر من مرة في مقابلتي مع ساندي، إنه «كَرَم»!

لطالما حاول هذا الشاب الاقتراب مني، ولطالما رفضتُ محاولاته..

- **«ماذا تفعل هنا؟»**

اقترب مني:

- **«أحتاج إلى التحدث معكِ قليلًا!»**

أخذتُ حقيبتي، ثم اتجهتُ إلى الباب وأنا في حالة غضب من الموقف.

دفعني بقوة ثم قال:

- **«لن تخرجي إلا بعد أن نتحدث.»**

صفعته على وجهه ثم حاولتُ الخروج، صفعني ثم انقضَّ عليَّ وحاول تمزيق ملابسي:

- **«لا تقاومي، لن تعود ساندي إلا بعد اتصالي بها، إنني أُحبكِ يا هاجر»**

دفعته بعيدًا عني، قاومته بكل ما أوتيتُ من قوة، كنتُ أهرب منه وهو خلفي ثائر يريد الانقضاض عليَّ، حتى ضربته بين قدميه تلك الضربة المميتة، فسقط أرضًا.

خرجتُ من المنزل على الفور، لم يستطع حتى تقبيلي، كنتُ أشعر بقوة غريبة وقتها، لم أبكِ لما حدث، لم أبكِ لأنني ضعيفة، لم أبكِ لأنني أريد شخصًا واحدًا أستطيع الوثوق به، ولأنني أضعف من مواجهة العالم وحدي، لسذاجتي ربما.

لطالما كرهتُ أبي، وكلما تعثرتُ تذكرت طفولتي القاسية، تفانيه في تحطيمي وكسر كل أحلامي، تعمده إيذائي نفسيًا، جعلني انطوائية، أخاف كل شيء.

لستُ حقودة، لكنني أردتُ عائلة أخرى، كنت أشاهد وأقرأ عن معاملة الآباء اللطيفة لبناتهن فأقول لنفسي:

«لماذا لم يعطِني الله أبًا مثل آبائهنّ؟»

أبي هو المسؤول عن كل شيء، هو من أفسد طفولتي، وهو من جعلني مادة للسخرية، هو من ترك في ذكرياتي كل أثر سلبي ومؤذي في قلبي؛ لم أكره ساندي رغم ما حدث، لم أكره أمي رغم سلبيتها، لم أكره بنات عائلتنا لافترائهن عليّ، لكن كرهت أبي، لخصت كل الكُره في أبي، لم أتأثر لما كان يحدث، كنت أعتبره دائمًا هو السبب في كل هذا، لولا وجوده لَما أصبحت بهذا الخوف، لما كرهت التعامل مع الناس وفقدت ثقتي في الجميع، لما أُصبتُ بالوسواس القهري.

صمتتْ هاجر فجأة، ثم خرجت إلى الشرفة، فتبعتها العجوز، وساد صمتٌ طويل بينهما.

أشعلتُ سيجارتي وواصلت مراقبتها من خلف الحاسوب، ثم فتحتُ مفكرتي حتى ينتهي هذا الصمت وكتبت:

«لا أحد يدرك حجم المعاناة التي تعاني منها هاجر؛ إنه الوسواس، الخوف!

أعني أن يتردد في ذهنك دائمًا أنك مهدد بالقتل، بالخيانة، بالغدر، أن تفقد الثقة في قدرتك على فعل شيء، تخاف التعبير عن مشاعرك وتدفنها حتى لا يسيء أحد الظن بك، وإن أسوأ ما يصيب المرء هو أن يفقد إيمانه بذاته وبقدرته على القيام بشيء واحد.

لم يولد أحد بهذا الضعف، لكن إن وضعتَ ذئبًا وسط النعام منذ نعومة أظافره فلن تجده إلّا مثلهم، يضع رأسه في التراب ويخاف دائمًا من الصيد والقتل.

إن مشكلة هاجر مشكلة أزلية في إيمانها بموهبتها، هي تجيد الرسم، لكن سخط ورفض والدها لموهبتها جعلها تمزق لوحاتها، هي ليست عاهرة، لكن وصفها دائمًا بالعاهرة جعلها دائمًا عرضة لمثل هذه المواقف، لم تكن كئيبة أو انطوائية، لكن وصف الآخرين الدائم لها بتلك الألقاب جعلها تميل للعزلة والوحدة، لم تكن هاجر مريضة أو مختلة، لكن التعامل معها بتلك الطريقة جعلها تعاني؛ لم تكن هاجر بالقوة التي تسمح لها بكسر معتقدات مَن حولها عنها، على العكس، لقد ساعدتهم في فكرتهم عنها.

ما تحمله هاجر بداخلها كان أكبر من انكسار، هي حتى لم تتحطم من خذلان صديقتها الوحيدة، بل صبت كل اللعنات على والدها، اختصرت خذلانها وكرهها للعالم في شخصه، رفضت حتى أن تحزن من فعل شخص

آخر، وكأن كل أماكن الحزن والتعب في حياتها امتلأت بقسوة وسخرية أيها منها، الوسواس القهري هو البداية والنهاية لما حدث في طفولتها.»

ـ هل جربتِ شعور أنكِ دائمًا مهددة بالقتل بكل طرق القتل الممكنة؟ لا تستطيعين السفر لمسافاتٍ طويلة لأن السيارة التي تقودينها حتمًا ستصطدم بسيارةٍ أخرى يقودها مختل، لا تأكلين من الشارع، فربما العامل الذي قدم لكِ الطعام قد دَسَّ السُمَّ في وجبتكِ، لا تغلقين شباك نافذتكِ وأنتِ نائمة، فربما يتسرب الغاز إلى غرفتكِ وتموتين مختنقة، إياكِ أن تعبري الطريق ورباط حذائك حُر طليق، اربطيه جيدًا عقدة تلو الأخرى، تأكدي من العقدة لتتجنبي التعثر، لأنه إن حدث ستتحولين لأضحوكةٍ أمام الناس، أو ستتعثرين أمام سيارة تسير بسرعة جنونية وحتمًا ستدهسكِ وتفتت عظامكِ، حاولي تجنب الأماكن المزدحمة، حاولي تجنب الزحام قدر المُستطاع، فقد يخرج من بينه شخص يقتلك، سيلقي على وجهكِ ماءً قذرًا، وربما سيقصفكِ بحذائه، أو يقف أمامكِ وينهال عليكِ بالشتائم، لا تعبري عن وجهة نظركِ، لن يفهمها أحد، سيسخرون منكِ، ربما يتهمونكِ بالخُبث، لا تعبري عن مشاعركِ فهي لا تصلح للاستخدام، هذا يحبكِ لكن ومهما بدا رائعًا في البداية حتمًا سيرحل عنكِ، سيؤذي قلبكِ أشد أذى، المستقبل غامض، وهذا الحاضر لن يتغير إلّا بمعجزة، لكن ماذا لو حدثت المعجزة ولم تتغيري أنتِ! الماضي المؤسف يطاردنا ولن نتعافى منه أبدًا، لن نشفى من الاكتئاب، لن نتعافى من هذه الاضطرابات، سنموت وحدنا

بهشاشتنا وضعفنا، أنتِ مهددة دائمًا، مضطهدة ومضطربة، تعانين من الارتياب، ولن تشفى أبدًا من الوسواس القهري.

تلك كانت حياتي بعد واقعة ساندي، أصبحت أخاف من كل شيء، لم أحضر الامتحانات، كان صوت يهمس بداخلي:

«لن تنجحي، لوحاتكِ قبيحة.»

عام كامل أعاني من الوسواس، لم ينجح أي طبيب في معالجة ما أعاني منه، حالة ميؤوس منها، لا أتذكر في هذا العام أكثر من أنني كنت أعيش في حالة من الخوف، الخوف غير المبرر من كل شيء.

الرسم انتهى من عالمي، أصبحتُ أرسم لنفسي فقط، أغلقتُ صفحاتي الشخصية على مواقع التواصل الاجتماعي، يومي كان ممل جدًا، يبدأ بالاستيقاظ مبكرًا، فنجان القهوة، الموسيقى، وينتهي بالمشي الطويل بلا وجهة محددة.

وإحدى العادات الغريبة التي كنت أعاني منها هي الاتصال بأرقامٍ غريبة، أحكي لهم عما يحدث معي، ومِن ثَمَّ أضع الرقم في قائمة الرفض؛ لكِ أن تتخيلي قسوة تلك الأفعال، لكنه الضعف، ما بين ظن البعض أنني مختلة، وما بين ظنونهم أنني فتاة ليل.

ذات يوم اتصلتُ بأحدهم..

- **«مرحبًا! آسفة على هذه المكالمة المتأخرة، لا يهم ما اسمي، أنا لا أعرفك، وبالتأكيد أنت لا تعرفني، أريد فقط أن أعقد معك اتفاقًا؛ لو وقتك يسمح سأتحدث قليلًا عن نفسي، ومِن ثَمَّ سأنهي المكالمة، ولا تحاول**

الاتصال بي، لستُ مُختلة، أنا فقط مريضة وأحتاج للتحدث قليلًا عن نفسي مع شخصٍ لا يعرفني ولن ألتقي به، اتفقنا؟»

قال دون أن ينطق بكلمة إضافية:

- **«أنا معكِ.»**

بدأتُ وكأننا أصدقاء:

- **«هذا العالم لا يناسبني، إنني أشعر دائمًا بالخوف، أقول لكَ أنني لم أتمنَ إلا السلام النفسي مع العالم، لكنني اكتشفتُ أن هذا الرجاء يصعب تحقيقه؛ لماذا خلق الله الحرب؟ لماذا خلق الفراق والوجع؟ إنني مريضة وأشعر دائمًا بالموت، لم أمت إلى الآن، لكن مات شيء بداخلي، شيء كان يحييني.**

بالمناسبة أنا أجيد الرسم، ولو قُدِّر لنا الزمان والتقينا حتمًا لن أتأخر في رسمك، لكن هذا لن يحدث إلا في الروايات، هل تسمعني؟»

بصوتٍ هادئ قال:

- **«لا أسمع سواكِ.»**

واصلتُ:

- **«تبدو شخصًا لطيفًا؛ الرجال دائمًا رائعون في البداية، لكن ما إن نتعمق بداخلهم حتى نكتشف قذارتهم، حتى لو أقسموا أنهم ليسوا كذلك، أنتم أبناء أبي اللعين، لقد آذاني أشد أذى.»**

بدأتُ أجهشُ بالبكاء:

- **«العالم مؤذي، العالم لا يتفنن إلا في أذيتنا، هل نستحق كل هذه المعاناة؟ هل تسمعني؟»**

رد من جديد:

- **«أنا معكِ.»**

قلتُ:

- **«أنا أضعف من مواجهة العالم وحدي، لكني لا أريد مشاركة أحد لحياتي ومِن ثَمَّ يرحل عني، عندها سأشعر بالخذلان مرتين، الأولى من الحياة، والثانية من فرط الأمل..**

تأخر الوقت، سأذهب إلى النوم، آسفة على وقتك، إلى اللقاء!»

وقبل أن اغلق الهاتف قال:

- **«انتظري، سأنتظر معكِ حتى تنامين، وتأكدي أنا متاحٌ دائمًا في أي وقت.»**

لم أنطق بأي كلمة، كان لطيفًا معي للحد الذي جعلني أصمت وأوافق على طلبه.

وفي كل ليلة كنت أجاهد من أجل أن لا أتصل به، وكما اتفقنا هو لم يحاول الاتصال بي، لكنني عدتُ واتصلتُ به، ولم يسألني عن سبب غيابي، كان هذا لطيف، علاقة بلا أي ضغط، صديق خيالي! ربما!

بدأنا نتحدث بشكلٍ يومي، لم يسألني عن اسمي ولم أساله عن اسمه، اتفقنا على أن يكون كل شيء محل الصدفة.

كان يتحدث قليلًا، لا يحكي إلا القليل جدًا، ولأكون صادقة أكثر، كان لا يتحدث إلا عندما أسأله فقط، وقد عرفتُ أنه يُدخن الحشيش بالصدفة، وبالصدفة أيضًا عرفتُ أن اسمه «طارق».

كنت دائمًا أسأله بلا مناسبة:

- **«طارق، متى سترحل عني؟»**

فيقول:

- **«أنا الذي يرحل الناس عنه، فلن يرحل عنكِ.»**
- **«هل أنت شخصٌ حقيقي؟!»**

فيسخر:

- **«لا، أنا من خدمة العملاء.»**

علاقة غريبة لكنني كنت أشعر بالراحة في وجوده معي، لم يحاول الاقتراب مني أكثر، ولم أحاول أنا أيضًا معرفة الكثير عنه، كنا مجرد غريبين فقط في حياة بعضنا.

حياته لم تكن مستقرة، كان يعاني من الاكتئاب أيضًا، وكانت هناك فتاة خلف تلك السوداوية، فتاة وحلم كبيرة تحطم.

يومًا أخبرته بلهجةٍ متسائلة:

- **«لا أصدق أنَّ من الممكن أنْ يتحطم رجل بعد فراق حبيبته!»**

لم أرَه، لكنني شعرتُ أنه ابتسم، تلك الابتسامة التي تلخص كل شيء، فقال:

- «الرجال لديهم مشاعر ربما أكثر هشاشة من النساء، الفرق أن العالم لا يتقبل فكرة أنْ يبكي رجل من أجل امرأة، لقد فُرِضَ علينا الصمود والثبات، لأن الحياة لا تنتظر إلا الجنس الناعم، أما نحن فلن يسمح لنا الوقت بالسقوط، نحن نلتحم دائمًا بالواقع، نلتحم بأحداثٍ درامية يومية لو حدثت مع فتاة لظلَّتْ تبكي عامًا كاملًا، لكنها الاعتيادية.

عندما نقع في الحب نحب بكل ما أوتينا من قوة، لأن الحب هو الشيء الوحيد الذي يجعلنا نمارس إنسانيتنا بحرية؛ نغضب، نبكي، نضحك بلا سبب، نُظهر الجانب الطفولي منا، نخلع وشاح الهيبة، الثبات، والصمود، نعود لإنسانيتنا وتلقائيتنا، الحب بالنسبة لنا هو حريتنا أيضًا، نكافح من أجل حياة أبدية، نصارع ظروفًا مادية واجتماعية، نصارع عادات وتقاليد ومتطلبات تعجيزية بكل المقاييس، نبني أحلامًا ونعلق آمالًا كبيرة، نتخيل حياتنا بشكلٍ أفضل، حتى وإن لم نُظهر هذا، لكنها الحقيقة.

عندما يرحل رجل عن فتاة تتأثر هي وتتألم، لكن نحن لا نملك حق التعبير عن تلك المشاعر مهما كانت قسوتها.

هل سألتِ نفسكِ لماذا أغلب المبدعين من الرجال سواء شعراء أو أدباء أو ملحنين أو حتى ممثلين؟! فتشي في حياتهم، حتمًا ستجدين فتاة هي السبب في هذه القدرة الإبداعية، هذا يعود للصمت؛ لأن المرأة تستطيع

التعبير عن مشاعرها بلا خوف، أما الرجل فلا يصح أن يبكي أو يتألم أو يصرخ لفراق إحداهن عنه، وهذا مع الأفكار الوجودية والاضطرابات النفسية والفلسفة، وهنا نلجأ لما يعطينا مساحة للتعبير، ومِن ثَمَّ تتحول هذه المشاعر لطاقة إبداعية.

نحن نتألم ربما أكثر من النساء، لكن لأن الواقع لا يتقبل الفكرة فالنساء يظنون أننا بلا قلب.»

كانت مكالماتنا أشبه بالجلسات النفسية، أحببتُ هذه العلاقة الغريبة، كنت أنتظر المساء حتى أتصل به؛ وذات يوم اتصل هو على غير العادة..

- **«هاجر، عديني بأن لا تحبيني!»**

قلت له :

- **«هذا لن يحدث، لكن لماذا فكرت في هذا الأمر؟»**

رد:

- **«لأنني فكرت في جعلك امرأة حقيقية في حياتي، لكن حياتي أسوأ وألعن مما تتخيلين؛ إنني أعيش منفردًا في ذاتي، اعتدتُ الزيف لأن الحقيقة موجعة، أخاف الأشياء الصادقة لأنها تعتريني، لأنها تحيي بداخلي فكرة أن بإمكاني الحياة، أنا شخص مهترئ، لا ينتمي إلا لذكرياته القديمة، بداخلي أنثى تتربع على عرش قلبي، تلدغ كل مَن يحاول الاقتراب مني وتلدغني، رغم أنها رحلت عن عالمي لكنها تواصل القيام بمهامها على أكمل وجه، وأخشى أن تلدغكِ لأنكِ لا تستحقين الأذى.**

ولقد شعرتُ نحوكِ بمشاعر ربما تكون نهايتها الحب، أقصد أنه ومن المفترض أن لا أحبك لأنكِ مريضة، لا أقصد الإهانة فأنا مريض مثلك، لكنني فقير، لن أستطيع توفير حياة كريمة لكِ، غير أنني مضطرب وأشعر بالنقص، والنقص ليس بعار، كل منا يعاني من النقص بطريقة مختلفة، وأنا أعاني من نقص الصدق، نقص الحب والمشاعر والصدق، أمّا عن غير ذلك فأنا ما زلت أفكر في تلك التي رحلت عني، ولن أستطيع الوفاء لكِ.

أنتِ سعيدة معي لأنني لا أكترث كثيرًا، لأنني لا أضع ضغوطات كثيرة في علاقتكِ بي، لأنكِ تظهرين معي بكل تلقائية، أنتِ مطمئنة فأنا لن أراكِ عاهرة، لن أراكِ قاسية، لن أُسيء الظن بكِ، هذا قد يدفعكِ لتمني علاقة عاطفية معي، فلا تصدقي هذا الشعور، إنه من صنع الخوف، لا تحاولي التعمق أكثر بداخلي، سيبتعلكِ البؤس وتأكلكِ الكآبة، أنا لا أناسبكِ يا هاجر.»

انهمرتْ دموعي رغمًا عني، فقلتُ:

- **«رغم اعتراضي على بعض الأشياء، لكن أعدكَ لن يحدث.»**

أُغلِقَ الهاتف.

أزال طارق عني ستار الخوف، لطالما كنت مترددة في شعوري نحوه، لكن بعد تلك المكالمة تأكدتُ أنني أحبه، فمنذ فترةٍ طويلة لم أَنَم بهذا الحزن، نمتُ من الخيبة، من شعور أنني سأعيش دائمًا تحت رحمة الخوف، ولأنني كنتُ أخشى فراقه.

بعد تلك المكالمة بدأتُ أتعامل معه بخوف أكثر، تصرفاتي كانت غريبة، افتعال للمشاكل، واعتراض بشكلٍ مستمر، تحولت علاقتنا لشيء من الضغط، وفي تلك الفترة كان طارق يدخن الحشيش طوال الوقت -عشقه الأبدي-، ويومًا سألته عن فائدة الحشيش، فقال:

- **«للحشيش أضرار جسدية يحذر منها الأطباء، لكن لا أحد يتحدث عن ميزاته النفسية، إنني أرفض اعتباره وهم.**

صحيح أن الحشيش لا يحل أي مشكلة ولا يغير الواقع، لكنه يجعلنا نرتاح قليلًا لنواصل الكفاح ضد الواقع، الشخص تحت تأثير الحشيش لا يشعر بالوحدة، على العكس، يشعر وكأن العالم كله يعامله بلُطف، الناس لطفاء، العالم يعطيه وجهه المبتسم، فهنا أنت ملك زمانك وحياتك، هنا لا لوم عليك إن بكيت بلا سبب، هنا لن يسألك أحد عن بلدتك أو عن حياتك، أنت رائع وهم الأغبياء، هنا لن تشعر بالحزن.

سيحول الحشيش الموسيقى التي تحبها لامرأة جميلة تدعوك لقضاء ليلة رائعة على شاطئ فينيسا، أبطال الروايات يخرجون من سجونهم بين السطور ويأخذونك لرحلة طويلة معهم في عالمٍ آخر، تحت تأثير الحشيش لن تشعر بالقلق، بالتأكيد لن تشعر فأنت محمي من العالم، لن تكترث بالوقت، فأنت سيد الوقت، أنت مَن يقرر، وأنت مَن يأمر وينهي.

هذه الفتاة تعجبك؟ انظر لها ثم أغمض عينيك، ستراها ترتدي فستانًا رائعًا وتبتسم لك؛ ولا تتأخر، فالشركة التي تمنيتها تحتاج لوجودك على

الفور، وماذا لو أردتَ التحول لطير حر طليق! حسنًا بإمكانك فعل هذا فقط تخيل، اترك لخيالك حق العنان والحرية..

تريد استعادة الذكريات؟ الفتاة التي أوجعتْ قلبك تقترب نحوك، تريدها قاسية؟ حسنًا هي الآن قاسية، تحتاج منها الرقة؟ احترس أن تؤذيها فهي الآن أرق من ورق الشجر في فصل الربيع..

الجنة رائعة، هل ترى؟ الله يحبك لا تقلق، هو في السماء الآن يبتسم لك..

افتح التلفاز وتابع أحداث العالم، يا له من سلام يعم الأرض، هؤلاء الأطفال يموتون من فرط السعادة، انظر إنهم يضربون بيوتهم بالأزهار، يستبدلون الرصاص بالأزهار..

لا تنسَ أمر صديقك الذي خذلك، مسكين، لقد عاد نادمًا، اغفر له أو انتقم إن أردتْ..

فلنلعب لعبة أجمل، ما رأيك لو استعدنا المشاهد القديمة؟ انظر إلى السقف، أنتَ الآن في الماضي، هل ترى لقد كانت ملابسكَ مثير للسخرية! لا يهم..

لا تفعل هذا، حتمًا بسبب فعلتك سترحل عنك حبيبتك..

عانق أمك، عانقها بقوة، فهذه ليلتها الأخيرة في الحياة، اخبرها بكل مشاعرك..

أبوك رجل صالح، لكن ثمة أشياء حدثت معه جعلته بتلك القسوة، اذهب لعالمه وحاول منع ما حدث معه، لقد كان شابًا متهورًا مثلك، ولا

تخبر أمك بالفتاة التي يحاول أبوك اقتناصها؛ اللعنة! انتظر إنها أمك! لقد كانت جميلة في شبابها!

عُد إلى الحاضر؛ استعد، أنت لست شخصًا فاشلًا أو كئيبًا..

ماذا لو اعتبرنا هذا السرير مسرحًا ضخمًا! حسنًا، قف على السرير، ألقِ كلمتك، فالجميع يتشوق للاستفادة منك، أنت أنجح وأهم شخص على الأرض، المستقبل ليس ببعيد، لكنك تملك الوقت؛ اذهب إلى هناك، هل ترى حياتك رائعة هناك؟

هذه الشعيرات البيضاء مثيرة للجاذبية، انسَ أنك لا تقوى على تحمل المسؤولية، لقد أسست أسرة كاملة، أنت قوي جدًا..

مع الحشيش لن تشعر بالآلام، سيتحول الأنين لموسيقى رائعة تغريك للرقص، لن تغضب بسهولة فأنت ترى الجميع سعداء، لن تشعر بالوحدة، تستطيع جذب واستحضار كل من تحبه، لن تشعر بالغربة، الناس لطفاء..

الخوف! أنت ملك العالم..

الاضطهاد! بإمكانك التحول لأي كائن حي..

لماذا تتحمل كل هذا العناء وحدك؟ ابكِ يا صديقي، لا تخجل من بكائك، العالم حزين جدًا في هذه الليلة، لا تخجل من بكائك، العالم يبكي معك، حتى السماء تبكي لتشاركك حزنك، أُصرُخ، فلقد استبدلوا الأكسجين بالصراخ، يحق لنا الصراخ، أُصرُخ فلقد تعبت الكلمات في صدرك، وعلى كاهلك تحملت الكثير والكثير، أُصرُخ فالصراخ حياة..

تريد الضحك؟ الناس بهلوانات، إنهم يضحكون بلا سبب، سعداء للحد الذي لا يستطيعون فيه التوقف عن الضحك..

استرح قليلًا لتواصل معركتك مع الحياة، افرد ذراعيك وتأمل الدنيا بنظرة الراحة، العالم هادئ جدًا هذه الليلة..

الحشيش يجعلنا تعساء بطريقة أفضل يا هاجر، يوفر لنا حق الراحة والهدوء؛ الحشيش هو بديل الحب، وتعويض الحزن والوحدة والآلام.»

بعد صمتٍ طويل قلت:

- «ولهذا السبب أنا أرفضه يا طارق، لطالما رفضتُ هذا النبات البني، وأستغرب ممَّن يمجدونه، صحيح أنه يعطي مدمنه شعور السعادة والهدوء، لكنه أضعف من تغيير الواقع، لو كان لهذا النبات فضل في حل المشاكل التي تواجهنا، لسمحتْ الدول بتداوله، ربما قدموه كوجبةٍ رئيسية كل يوم لمواطنيها.

فلسفة أنه يجعلنا نسترِح قليلًا لنواصل الكفاح ضد الحياة ما هي إلا فلسفة العجائز الجبناء، ربما أنا لا أملك القوة الكافية لمواجهة الحياة، لكن على الأقل لا أهرب منها هذا الهروب الشنيع، إنه يعطينا شعور الزيف، وفي حياتي لم أحب المسكنات لأنها لا تعالج المشكلة بل تسكن آلامها فقط، وثمة آلام إن هدأت فترة عادت أقوى وأشرس.

إمَّا أن أُهزم وإمَّا أن أنتصر، لكن أن أبقى معلقة بين الراحة والتعب، بين الهدوء والصخب، فهذا في حد ذاته أشد من الهزيمة والانكسار، حتى وفي مسألة الحب؛ كيف تدخن الحشيش لتهرب من الغربة؟ أولَيس الحب يقتل الغربة؟ كيف تدمن هذا النبات لتهرب من الضغط؟ وهل يوجد أجمل من الهروب من الضغط بالحب؟

أرى دائمًا الشخص الذي يحب هذا النبات شخصًا أنانيًّا، لا يفكر إلا في سعادته، يغيب عن الوعي في الوقت الذي يريده دون أن ينتبه أن ثمة مَن يحتاج لوجوده ، يهرب من المشكلة في الوقت الذي ثمة مَن لا ينام ليجد حلًا لها.

أنا أرفض الحشيش، وأرفض مدمني الحشيش، وأرفض مرافقة أحدهم لي في حياتي.»

ضحك طارق وقتها وتظاهر بعدم فهم ردي عليه.

انتهت المكالمة، لكن وفي نفسي كنت أقول:

«لأننا وحيدون جدًا يا طارق، ولأن هروبك بالحشيش خيانة عظمى لوحدتنا، أنت تذهب لعالمٍ آخر، لكن أنا مَن سيبقى معي في عالمي؟ بإمكاني تعويضك عما ينقصك، لو أنك أتحت لي الفرصة، لكنك لن تفعل، وكأننا حُكم علينا بالفراق الأبدي.»

دون أن يشعر استطاع استعادة جزءًا من ثقتي المفقودة تجاه العالم، أصبحتُ جزءًا منه وأصبح جزءًا مني، حتى طريقتي في وصفي للوسواس تشبه طريقته في وصفه للحشيش؛ الأمر ليس بمحل الصدفة، لكنه الحب الذي يجعلنا نسخة مشابه ممَّن نحبه، في فلسفته، في طريقة التعبير، في أفكاره؛ استطاع دون قصد أن يعيدني للحياة، ففي وجوده لم أذهب إلى طبيب نفسي، لقد كان هو طبيبي الخاص، وكلما حاولتُ التعمق أكثر ابتعد عني ولم يستجب لمكالماتي، فأعتذر عن محاولاتي وتعود علاقتنا لنقطة الصفر؛ تمنيتُ فقط أن أراه، على الأقل أن يبقى معي.

وذات يوم حدث خلاف آخر بيني وبين أبي، استنجدتُ به، فلم يستجب لمكالماتي، وبعد غياب أسبوع رد أخيرًا، عاتبته على الغياب، ولمدة ساعة تحدثتُ معه عن ما حدث، وعن مخاوفي من العالم، لكنه قطع كلامي فجأة:

- **«هاجر! من الآن فصاعدًا لن نتحدث مرة أخرى، لقد حاولتُ جعلكِ أفضل، لكنني فشلتُ فشلًا ذريعًا في هدفي؛ الحياة مراحل، وأنا فشلتُ في أن أكون مرحلة مؤثرة في حياتك، لن أبقى من أجلكِ أنتِ، لن تتعافي من الوسواس القهري إلا بعد هذه الصدمة، صدقيني هذا الحل الأمثل لكِ.»**

ثم أغلق الهاتف.

ظننتُ أنه يمزح، لكن وبعد شهر تأكدتُ أن الأمر جِدِّي؛ انتهى الوصل بيني وبين طارق.

هذه المرة تألمت؛ تتخيلين معنى أن لا أتألم لخذلان صديقتي الوحيدة، وتأثرتُ بغيابه!

كانت المعادلة صعبة، كيف نحب شخصًا دون أن نراه؟ لقد أحببتُ صديقي الخيالي!

أنا أؤمن بالواقعية، لكن تلك التي تجعلنا نفترق عن أحبائنا أكفر بها أشد كفر، وكان طارق واقعيًا أكثر من المفترض، لذلك افترقنا.

يوم بعد يوم كنت أحاول الاتصال به، فكيف أجده وأنا حتى لا أعرف أين يسكن؟ لا أعرف الكثير عنه، طيف مر في حياتي ثم رحل دون أن أشبع من وجوده.

كانت حالاتي غريبة؛ طوال اليوم أنا بخير، أواصل مهامي بشكل طبيعي، ثم يأتي الظلام، وفي الظلام يكمن الحزن، الظلام يدفعنا للجنون يا يوستانيا، أجاهد نفسي من أجل أن لا أتصل به، أحاول شغل الوقت بالموسيقى، بالرقص، بالقراءة، بالرسم.

عندما تحاول الهروب من الاشتياق لشخصٍ ما تجد نفسك أمامه في كل طرق الهروب، الفكرة معقدة لكنها الحقيقة، عندما تهرب بالموسيقى تكتشف أن الموسيقى التي تسمعها تذكرك به، تهرب بمشاهدة الأفلام فتمر عليك بعض المشاهد التي عشتها معه، تهرب بالقراءة فتشعر أن هذه الكتابات كُتبتْ لك أنت لتذكرك بمدى فقدانك عزيز على قلبك، تهرب بالصمت فيضج عقلك بالذكريات؛ الاشتياق بعد منتصف الليل شبح لا يمكننا الهروب منه، نستسلم له فقط، لأن مقاومته مجرد محاولات تعيسة لا جدوى منها.

ينتهي المساء فأعود لأواصل مهامي الطبيعية؛ أهرب يا صديقتي كنت أهرب، ثم يأتي موقف عابر يهزمني من جديد، كان الخوف يزداد والقلق يحاوطني، كل شيء حولي يثير قلقي.

وذات يوم كادت الآلام تبلعني، اتصلتُ به ولم يرد، خرجتُ لأبحث عن أمي، كنت في حالة تسمح لي بأن أغفر للجميع في سبيل أن أطمئن، كنت مستعدة للتصالح مع أبي، مع أمي، حتى ساندي وأقاربي؛ أن يقودك الخوف للتسامح مع الجميع في سبيل أن تطمئن.

كان قلبي يرتجف، كمدمني الهيروين كنت أبحث عن جرعة من الطمأنينة، وقفتُ أمام مرآتي، انفعلتُ على نفسي- وكأنني أتحدث مع ألد أعدائي:

«أنتِ السبب فيما حدث، لولاكِ لما حدث كل هذا، ماذا تنتظرين من عالم همجي يدهس الذين يبالون بأمره؟!

حمقاء أنتِ، أكنتِ تطالبين بالدفء في عالم يقتل الأطفال ويقص أجنحة الطيور؟! كيف تطالبين الأمان والعالم مهدد دائمًا بالفناء؟!

ساذجتكِ تلك التي جعلتهم ينهالون عليكِ بخبثهم ومكرهم، غفرانكِ المستمر جعلهم يتفننون في إيذائك لأنكِ لن تعترضي، حتى مقاومتكِ لهم لم يخسر منها أحد سواكِ أنتِ؛ انظري إلى نفسكِ، هذه ملامحكِ أنتِ وهذه تصرفاتكِ أنتِ، أصبحتِ فتاة ضعيفة لا تقوى على حمل قدميها، فتاة يخيفها الظلام والدم، تسلك كل الطرق ثم تهرب منها لخوفها من نهاية حزينة تقتلها، فيقتلها شعور الهروب، فتاة في العشرينات لا تستطيع اتخاذ قرار واحد في حياتها، مهزومة في كل المعارك حتى التي لم تخُضها لمجرد الخوف..

إن لم تقتلي الخوف حتمًا سيقتلكِ هو، لن تستطيعي مواجهة العالم إن لم تواجهي نفسك، لن تنتصري في معركة ما دمتِ مهزومة في معركتكِ مع خوفكِ، اقتلي الخوف.»

بصقتُ على نفسي، ضربت يدي في المرآة؛ الدم والوجع يخلقان مقطوعة للانتصار على الخوف أحيانًا.

الدم والآلام وضوء الغرفة الخافت وأنا أنظر ليدي وأضحك، أضحك رغم تدافع الدم من يدي، كنت أضحك:

«لقد تعافيت، تعافيت من الخوف!»

فتحت نافذة غرفتي، نمت وكل ما أخاف منه يحاوطني:

«الآن تعافيتُ يا طارق، الآن تعافيت يا طارق! الآن تعافيت يا ساندي! الآن تعافيت يا أمي! الآن تعافيت!»

كنت أضحك بجنون.

استيقظت صباحًا، خرجت إلى الشارع، تركت رباط حذائي حرًا، عبرت الطريق دون أن أنظر إلى السيارات، تناولت الكثير من الطعام من أكثر من مكان لا أعرفه؛ من بعدها واصلت حياتي بشكل طبيعي، عدت لدراستي وأصبحت أكثر تفوقًا، بدأت أتعافى تدريجيًا من الوسواس، لكن سرعان ما تغيرت الحياة مرة أخرى.

نظرت هاجر إلى الساعة، كانت تشير للثانية عشر بعد منتصف الليل..

ـ لقد تعبت؛ نكتفي بهذا القدر اليوم، انتظريني غدًا في نفس الموعد، وآمل أن تكون زيارتي لطيفة.

ردت العجوز:

ـ أنتِ رائعة، سأنتظركِ.

خرجت هاجر، وأغلقت يوستانيا الإضاءة.

كان عقلي مشتت بما يكفي، أحاول تحليل كل ما قيل من هاجر، فغدًا سيكون يوم شاق بالتأكيد.

اتجهت لسريري، وما إن بدأت في النوم حتى رن الهاتف، وعلى غير المعتاد كان private number..

ـ مساء الخير..

بصوتٍ حازم جدًا:

ـ لقد أوشكتْ هاجر على الانتهاء، والآن جاءتْ فريدة، لا تتأخر أنا في انتظارك بالأسفل.

صمتتُ صمتًا طويل، لم أستطع تمييز صاحبة الصوت.

يوستانيا الوحيدة التي تحدثتُ معها عن هاجر، والوحيدة التي تشاركني القصة؛ لكن هذا ليس صوت العجوز، ولو كانت هي فلما لم تطرق الباب مباشرة.

فريدة!

كيف عرفتْ بالأمر؟! كيف علمتْ بوجود هاجر من الأساس مع يوستانيا؟ وكيف عرفت أنها أوشكتْ على الانتهاء؟

ارتديتُ ملابسي وأنا أفكر ثم نزلتُ إلى الشارع.

كان في الظلام أحدهم يقف على الرصيف المقابل، لوَّح بيده فاقتربتُ منه..

ـ فريدة!

ضحكتْ بعد اعتدالها في وقفتها وبصوتٍ خشن قالت:

ـ تقصد فريد!

كانت ملابسها غريبة؛ بنطال طويل، وقميص واسع جدًا يغطي نهديها، شعرها مصفف بطريقة تشبه كثيرًا قصات شعر الشباب، مع قبعة كالتي يرتدونها رعاة البقر في إسبانيا؛ أشعلتْ سيجارتها ثم قالت:

ـ تعالَ معي، استمتع بأجواء القاهرة الليلية يا صديقي.

لم أفهم سر هذا التنكر الغريب، أكاد أقسم لولا معرفتي بها لحقًا صدقتُ أنها رجل، قالت:

ـ القاهرة جميلة في الظلام، كل شيء في الظلام مثير للجمال، وللحزن أيضًا، ثمة علاقة بين الجمال والحزن، الطيبون حظهم سيِّئ في الحياة، أما الأوغاد فهم مَن يملكون كل الحظ والحب في العالم؛ أخبرني، هل تظن أنك شخص طيب؟

ابتسمتُ فواصلت:

ـ إن كنت لم تؤذِ شخصًا فأنت لست طيبًا كما تظن؛ الطِّيبة هي عندما تُتاح لكَ فرصة الانتقام ولا تنتقم، إن كنتَ لم تخذل شخصًا في حياتك فادعائك أنك شخص وَفِيّ هراء، فالوفاء يعني أن تجد فُرَصًا للتخلي عنه ومع ذلك تتشبث به أكثر؛ المشكلة أن أغلب الذين يدَّعون الطيبة هم أكثر الناس وقاحةً وقذارة، وأغلب الحمقى يظنون أنفسهم أذكياء.

لم أرد، وواصلنا المشي حتى وصلنا إلى رمسيس ودخلنا إلى محطة القطار، كانت الساعة تشير إلى الواحدة صباحًا، سألتها:

ـ إلى أين؟

قالت وهي تواصل طريقها:

ـ تعالَ لا تقلق، لن نغادر المحطة بعد منتصف الليل.

أضواء المحطة تبدأ في الانخفاض تدريجيًا، قطار يعود، وآخر يغادر المحطة، عدد قليل من الناس، أطفال الشوارع يفترشون الرصيف ويستعدون لقيلولة قبل ازدحام المحطة من جديد بعد ساعات، بعض العساكر يستعدون هم أيضًا لكن للرحيل، المشردون كذلك يجمعون غنيمتهم من التسوّل طوال اليوم، تنبيه رجل المحطة بقدوم القطر رقم ٢٤٨١٣ قادم من أسوان، وتنبيه آخر بمغادرة القطار رقم ١٩٧٨٢ متجهًا إلى الإسكندرية على رصيف رقم ٦، وبعد نصف ساعة سيغادر القطار رقم ١٧٨١٢ متجهًا إلى مدينة بور سعيد.

عند مقاعد الانتظار جلسنا بعد أن طلبتْ كوب شاي بلاستيكي من أحد البائعة الجائلين.

كل مَن حولنا يتعاملون معنا بطريقة عادية وكأنها رجل، حتى رجال الأمن لم يعطوا لنا أي اهتمام.

بوضعية رجل صعيدي محترف تربعتْ على المقعد بعد أن أمسكت بيدها اليسرى كوب الشاي وسيجارة كليوباترا بيدها اليمنى، ثم قالت:

ـ الحياة تشبه كثيرًا هذه المحطة؛ انظر لهم أولئك التعساء وتخيل، لو تأخر القطار هل ستحدث ثورة أو فوضى بسبب تأخره؟ لو انطلق القطار من مسكنه قبل ميعاده المحدد هل سيعترض أحد؟ ربما سيشعر أحدهم بالضيق، لكنه سيحتفظ بثورته لنفسه خوفًا من الملاحقة الأمنية.

وبعيدًا عن هذه الفلسفة انظر لهذا الرجل خال المتاع، فقط حقيبة يد صغيرة ربما لا يحمل بداخلها سوى علبة سجائره، هذا سيعود سريعًا إلى القاهرة، أو لن يعود أبدًا؛ الذين يرحلون دون أي أمتعة في الغالب لا يعودون أبدًا، إنه أشبه بطفلٍ متمرد يبحث عن فرصة أخرى للحياة في مدينة أخرى.

انظر لهذا الرجل، إنه يتجه لبوابة الخروج، يحمل كل هذه الأمتعة على ظهره؛ تُرى لماذا هاجر بلدته من الأساس؟! هذه ليست أمتعة، من الممكن وصفها بالخيبة، أو الحمل، أو المسؤولية.

عسكري الأمن الذي يقف هناك، هل ترى كم هو في حالة شرود عجيبة؟! لو كان باستطاعتي لاقتحمتُ عقله الصغير ودرتُ بين تفكيره؛ تُرى هل يفكر في حبيبته التي فرقته الخدمة عنها؟ أم يفكر فيما بعد إنهاء خدمته؟ أم أنه يفكر في زملائه الأوغاد أو حتى قائده؟!

كم هو رائع التملص من شخصيتك واقتحام شخصية أخرى والتفكير في حياتها، كم سيكون رائعًا لو كان بإمكاننا اقتحام تفكير الناس واقتحام قلوبهم ومعرفة نواياهم تجاهنا، على الأقل لن نتأذى بسذاجتنا.

بالطبع ثمة أسئلة تدور في ذهنك الآن، ما زلتَ مقتنعًا أنني فريدة، أليس كذلك؟!

هذه خرافة، وعقلك الصغير لن يستوعب ما سأخبرك به؛ دعني أولًا أعرفك بنفسك، تلك التي ربما لا تعرفها، عندها يمكنك أخذ كلامي على محمل الجد..

سراج، أو كما يلقبونه دائمًا (سراج سقراط)، طالب فاشل في كلية الآداب بقسم الفلسفة، شاب لم يجد نفسه بين أسرته فبحث عن الاستقلال في منزلٍ بعيدٍ عنهم، قادته الظروف لعلاقة من طرف واحد أفسدت جزءًا من قلبه، تبعثر وتفتت وازدادت غربته بعدها، حتى أصبح منزله ملجأ للتعساء والمهمشين، وذات يوم بائس كمعظم أيامه التعيسة استيقظ فوجد رسالة انتحار، ومن دافع المسؤولية أعطى لها كل الاهتمام؛ مشكلة الرسالة أنها مجرد خطوط كلما تعمقت بداخلها وجدت نفسك في بدايتها، حاولتَ البحث بشتَّى الطرق عن صاحب هذه الرسالة بداية مع سوما الأربعينية، مرورًا بدهب ذاك الذي استرسل حياته، حتى هاجر الخجولة، وقد جاء الدور على فريدة، أختي الصغرى.

- كيف عرفت كل هذا؟
- الأمر بسيط جدًا، لقد حلمت بكل هذا.

من طريقته شعرت حقًا أنه فريد وليس فريدة.

واصلتْ -أو واصل- فالشك بدأ يراودني:

ـ ما يؤلمني حقًا أنني لا أستطيع مساعدتك، وأنني لن أكون إلا ضيفًا خفيفًا جدًا في هذه اللعبة، ربما وبعد عشرة أعوام لن تذكر دوري في إنقاذك من دوامة لو استمرت حتمًا ستصيبك بالجنون، رغم أنني أهم شخص في لغزك، فالرجال قوامون على النساء، ولن يفدك إلا أنا.

لا أستطيع تأكيد أن فريدة صاحبة الرسالة، لكن أستطيع أن أحدثك عنها قليلًا، لأنها ومن المستحيل أن تكون قد حدثتك عن نفسها أو حتى عني..

قاطعته:

ـ ملابسك وحدها تثبت أنك فريدة!

ضحك:

ـ لا أحب الملابس الضيقة، ثم إنك تعرف مزاح الشباب أحيانًا، يعتبرون العبث بصدري نوع من أنواع السخرية، وصدري ممتلئ بعض الشيء وهذا يزعجني؛ هذه ليست مشكلتنا، سواء تأكدت أو لا فأنا لست في حاجة لإثبات شيء لك، أنا هنا لمساعدتك فقط، وإن كنت لا تريد المساعدة فبإمكاني الرحيل!

صمتُ، وصمتي كان الضوء الأخضر ليبدأ:

ـ أنا فريد، الأخ التوأم لفريدة، أكبرها بخمس دقائق فقط، وخمس دقائق كانت مدة كافية لتكون لحظاتنا الأولى في الحياة هي لحظات أُمنا الأخيرة في الحياة، ولدنا يتيمين، ولأن والدنا من الصعيد كانت الأفضلية دائمًا

لي في إبداء الرأي، في الحكم، في العناية، أنا السند، وأنا الأهم، وأنا رجل المنزل في غيابه.

أبي كان خير سند وعون في تكوين شخصيتي، الفتاة ومهما استطاعت تحقيق كيانها العلمي والعملي في النهاية هي ربة منزل، تنتهي أحلامها وأمنياتها بالزواج؛ وفريدة كانت حالمة أكثر مما ينبغي، أو هكذا اعتقدتُ في مراهقتنا، كان أبي شديدًا معها جدًا، من دافع الحب ربما، أو من دافع الخوف، وأحيانًا كنت أشعر أنه يريد وأدها كما كانوا يفعلون في الجاهلية، وأحيانًا أشعر أنه يعاملها بلطف.

زوجة أبي كانت امرأة صعيدية شديدة، تنظر للفتاة على أنها قنبلة موقوتة يمكنها جلب العار لنا في أي وقت، كانت تضربها بقسوة أحيانًا لتصرفاتٍ عادية، وقتها كنت أرى تلك التصرفات كارثية فأنهال أنا أيضًا عليها بالضرب المبرح، لم يعارضني أبي، ولم تعارضني زوجة أبي.

بدأتُ شخصيتي عنيفًا جدًا معها في مراهقتنا، لم أكن أشعر بالشفقة تجاهها أبدًا بلا سبب، فلقد رسَّخ أبي فكرة «إن لم تكسر أضلاعها في طفولتها ستبتلعك هي بجبروتها في شبابها.»

المرة الأولى التي شعرتُ فيها بالشفقة عليها يوم جاء أبي برفقة طبيب ومساعِدَته، ودخلوا غرفة أختي التي لم يغلق عليها باب أبدًا إلا هذا اليوم، لقد أغلقوا الباب ثم سمعت صراخ أختي، فسألتُ زوجة أبي عمَّا يحدث بالداخل..

فقالت:

- **«نحن نقطع دابر العار يا فريد.»**

باستغراب تساءلتُ:

- **«دابر العابر؟!»**

ذهبتْ لتحضر بعض المناشف الطبية وهي تقول:

- **«ستفهم كل شيء فيما بعد.»**

مع مرور الوقت كنت أسمع صراخ فريدة يعلو أكثر فأكثر، لم أهدأ إلا بعد أن اقتحمتُ الغرفة، نظرتُ إلى أختي فوجدتُ الملاءة مغطاة بالدم، وقطعة حديد حادة الأطراف غليظة المقبض تشبه المقص بجوار الطبيب الذي جفف عرقه ثم استأذن بالخروج بعد أن أعطى أبي بعض المسكنات الضرورية لفريدة، وكانت فريدة تتألم بطريقة حطمت قلبي.

- **«ماذا يحدث يا أبي؟!»**

نادى أبي على زوجته وأمرها باصطحابي للخروج، عدتُ إلى غرفتي برفقة زوجة أبي الشديدة، وأنا أسمع أنين وصراخ أختي.

- **«ماذا يحدث؟»**

- **«اسمع يا بني، إنها عملية طهارة لا أكثر، عندما تبدأ الفتاة مرحلة النضج الأنثوي، وتبدأ ظهور مفاتن أنوثتها تشعر الأنثى بحالة من الثورة الجسدية بسبب جزءٍ صغيرٍ في عضوها التناسلي؛ لهذا وجب علينا بتر هذا الجزء لتقتل بداخلها الرغبة، بسبب هذا الجزء الصغير تحدث كوارث يا بني، اللهم احفظ بناتنا وبنات المسلمين.»**

قلت لها:

- **«هذا ليس صحيحًا، لم أدرس هذا في مادة الأحياء!»**

قالت بشدة:

- **«العلم الذي تدرسونه في المدارس لا ينفع، بل يفتح أعينكم وآذانكم على العار؛ على أي حال سأتحدث مع والدك في منع فريدة من الذهاب إلى المدرسة، والآن نَمْ ولا تبالي بصراخ فريدة، فغدًا ستصبح على ما يرام.»**

لم أحب المناقشات مع هذه المرأة؛ طريقتها وحدها تجعلني أختصر أي محاولة للحديث معها، كانت صارمة جدًا حد القسوة.

كم عذبني صراخ فريدة، كنت أسمع صوت قلبها وهو يتمزق من شدة الآلام، مسكينة يا فريدة.

نظر إليَّ فريد ثم قال:

ـ صحيح يا سقراط، ما رأيك؟ هل تعرف التوابع النفسية التي تحدث للفتيات بعد عملية الختان؟

تظاهرتُ بالغباء، فقلتُ:

ـ وهل لها آثار سلبية نفسية؟!

ضحك ثم قال:

ـ نعم، بل كوارث نفسية يا عزيزي؛ فبعد هذا اليوم تغيرت فريدة، تغيرت تدريجيًا، كانت تشعر بالتعرِّي دائمًا حتى وهي في كامل احتشامها، متوترة وصامتة أغلب الوقت؛ ثمة نساء يعجزن عن تجاوز تلك العملية الغريبة، فأحيانًا تصل الآثار السلبية للإصابة باضطراب ثنائي القطب أو الانفصام، وربما الاكتئاب، وأبسط تلك الآثار قد تكون تحطيم جزء كبير

من ثقة وشخصية البنت في نفسها، ونحن في مصر، وأغلب تلك الاضطرابات لا حل لها إلا بالإيداع في مصحة نفسية، أو ينصحك البعض بالاقتراب من الله ولو كنتَ شيخهم.

هذا ما حدث بعدما بدأت فريدة تشعر ببعض تلك الاضطرابات النفسية، فكانت فريدة تستيقظ كل يوم من منامها وتصرخ، تواصل الصراخ حتى تنام مرة أخرى، ولطالما حذرتني زوجة أبي من التدخل في الأمر، فكنت أسمع صراخها حتى اعتدتُ عليه كل ليلة فأعود لنومي من جديد، بدا الأمر شيئًا عاديًّا، وكلما تساءل أبي عمَّا يحدث لها اعتبرت زوجته تصرفات واضطرابات فريدة (دلع بنات).

وذات يوم استيقظت فريدة وهي تصرخ، ولكن تلك المرة ظلت تصرخ لأكثر من نصف ساعة بلا توقف، ثم خرجتْ من غرفتها وأخذت تطرق باب غرفتي وغرفة أبي، فخرجت من غرفتي مفزوعًا لأجدها تقف في منتصف الصالة تصرخ، ملابسها ممزقة وبنطالها مبتل:

- **«أنقذوني، أنقذوني، إنهم يريدون قتلي..»**

ركعتْ على قدم أبي:

- **«أنقذني يا أبي، أنقذني يا أبي! إنهم يريدون الفتك بي!»**

كانت تلطم وجهها وتصرخ وتضرب الأرض بقدميها، عروق يديها بارزة بطريقة مرعبة، حالة تشنج لم أرَها في حياتي، تصرخ:

- **«أنقذوني.. أنقذوني!»**

لم تهدأ فريدة إلا بعد أن سقطت على الأرض من فرط الآلام، وبوضعية الجنين نامت في صالة المنزل.

تحرك أبي واقترب منها، ثم وضع يده على رأسها وبدأ يتلو عليها بعض آيات القرآن الكريم:

- **﴿اللَّهُ لاَ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ لاَ تَأْخُذُهُ سِنَةٌ وَلاَ نَوْمٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ مَن ذَا الَّذِي يَشْفَعُ عِنْدَهُ إِلاَّ بِإِذْنِهِ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلاَ يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِّنْ عِلْمِهِ إِلاَّ بِمَا شَاء وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ وَلاَ يَؤُودُهُ حِفْظُهُمَا وَهُوَ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ﴾.**[٢٦]

اقتربتُ منها وبقيتُ معها الساعات المتبقية في الليل حتى الصباح بعد أن حملتها مع أبي إلى الغرفة، وخرجت زوجة أبي.

بعد عام من تلك الواقعة كنا قد اعتدنا تغير سلوك فريدة أكثر فأكثر؛ أصبحت عدوانية بطريقة مرعبة، تم تحويل دراستها في مرحلة الثانوية من انتظام إلى تعليم منزلي نظرًا لسلوكها العنيف ولاعتدائها على مدرسيها أكثر من مرة.

اشتكت فريدة لأبي مما تشعر به، وحكت له عن أشياء تراها كل يوم في منامها، الأمر كان أكبر من مجرد أحلام؛ أتذكر يوم قالت فريدة:

- **«أبي، أنا لا أنام، أرى أشياءً لا يمكن للعقل البشري استيعابها، صدقني إنّ الأمر أكبر من مجرد أحلام أو كوابيس، أنا أشعر بحركاتهم حولي، بملامستهم لجسدي، أستيقظ كل يوم وقطرات الدماء تغطي أغلب مناطق جسدي، تبقى آثارهم لثوانٍ ثم تختفي،**

[٢٦] القرآن الكريم: سورة البقرة ٢٥٥.

لا أحد يشعر بما أشعر به، لا أحد يرى ما أراه، إنني أتمزق كل ليلة، لقد قُتلتُ منذ زمنٍ بعيد يا أبي، أنا الآن مجرد جثة فقط.»

لم يفهم أبي كلمات فريدة؛ لكن كان الحل الأمثل بالنسبة له هو عرضها على أحد رجال الدين.

قطع فريد الحوار فجأة، وأشعل سيجارة أخرى، ثم نظر إلى الساعة، كانت تشير إلى الرابعة فجرًا، فقال:

ـ لقد تأخر الوقت، وسيستيقظ أبي بعد ساعة من الآن؛ عليَّ الرحيل، فلن يكون أمر لطيف لو استيقظ ولم يجدني على فراشي، ربما سنلتقي قريبًا، غدًا أو بعد غد، لا يهم.

قلت له:

ـ أحتاج لرقمٍ أتواصل معك عن طريقه!

رد:

ـ لا، سأتواصل أنا معك بطريقتي، ولا تتبعني، سأخرج أنا أولًا، وداعًا.

خرج فريد من باب المحطة، تابعته النظر حتى اختفى عني.

تنهدتُ تلك التنهيدة التي تخفي ورائها التعب، التعب من كل شيء؛ الساعة تتحرك ببطء، رأسي يواصل التفكير بلا هدنة، لا يهتم بحال جسدي الذي لم يعد يتحمل مزيدًا من الأرق والتفكير بلا رحمة.

ظللتُ أتابع أجواء المحطة حتى السادسة صباحًا؛ المشهد هنا أشبه بالحياة، ثمة مغادرون ثم عائدون، الباحثون عن الأمل، والذين يحملون فوق ظهورهم أحلامًا ربما لم يُكتب لها التحقق في بلدتهم، ثمة عشاق يفترقون هنا وللأبد، وثمة عشاق يلتقون بعد غياب طويل، لا أحد يعرف متى موعد اللقاء، ولا أحد يعرف موعد الرحيل.

المطارات ومحطات القطارات دار للمشاعر الصادقة، هنا لا أحد يكذب في مشاعره، ولهذا قد تجد البعض يبكي بلا حرج، وآخر يضحك ويعانق بحرارة، هنا الملامح لا تكذب، هنا تسقط كل الاعتبارات وتُرفع راية التعبير الصادق عن المشاعر.

خرجتُ من البوابة، وفي الطريق إلى المنزل كنت أفكر في أمر فريدة، ولأكون صادقًا بدأ الشك يراودني؛ هل حقًا هذا أخيها؟ لستُ شخصًا ساذجًا لكن الطريقة التي يتحدث معي بها تجعلني أؤمن أنه حقًا شاب عاقل في منتصف العشرينات!

عملية الختان كارثة لا أصل لها في المعتقدات السماوية، لكن هل تنتحر إحداهن لمثل هذا السبب؟

أقول دائمًا أن الأسباب تختلف من شخصٍ لآخر، فالنملة قد تكون فيلًا بالنسبة للشخص الذي يفكر في الانتحار، منظور كل منا يختلف عن الآخر؛ ثم وماذا عن ما تراه فريدة في أحلامها؟ ما الذي رأته حتى تبتل ثيابها على حد وصفه؟!

التكهنات كلها مسموحة، صحيح لم يكذب حينما قال أنني عَلِقتُ في رسالة عنكبوتية كلما وصلت لبدايتها اكتشفت أنني لا زلت عالقًا في البداية.

عدتُ لغرفتي وقد أوشكتُ على النهاية، أو ربما البداية، حتى في هذه الحياة لا يمكنني توقع النهاية؛ يقول ألبير كامو أن:

«الحياة خلقت من عدم وستنتهي بعدم أبدي.»

ويقول فرانز كافكا أن:

«الحياة شيء عبثي لا يمكن توقع نهايته.»

فيرد عليهم تشيخوف[٢٧]:

«أنا خائف من كل شيء.»

وعني فأنا لا أُرجح رأي ألبير كامو، فهذا الكون لم يخلق من العدم، كل هذه الدراما التي نعيشها تنتهي بالفناء! لا أظن أن المسألة بهذه البساطة.

لو كانت الحياة رواية نهايتها العدم لأقسمتُ أن كاتب هذه الرواية مُدَّعٍ لم يقرأ رواية واحدة في حياته، ولم يتعلم أساسيات الأدب؛ كيف بعد هذه الأحداث تنتهي بالعدم وكأن شيئًا لم يكن؟!

صحيح أنني أتفق مع ألبير كامو في بعض الأشياء، لكن هذا الرأي لا أتفق معه.

إن رأي الروائي التشيكي بالنسبة لي هو الأقرب للصواب؛ إنه العبث، أتفق مع فكرة أن النهاية غير متوقعة، حتى تلك التي يظنها أصحاب الديانات السماوية لا أظن تطبيقها بشكلٍ كامل، نحن لا نعرف إلا القليل جدًا في هذا الكون، فكيف لنا أن نعرف النهاية بتفاصيلها؟!

---

[٢٧] تشيخوف: أنطون بافلوفيتش تشيخوف، طبيب وكاتب مسرحي ومن أفضل كُتَّاب القصص القصيرة على مَرّ التاريخ، ومن كبار الأدباء الروس، وُلد في ٢٩ يناير ١٨٦٠، وقد تعلم منه الكثير من الكُتَّاب المعاصرين كيفية استخدام المزاج العام للقصة والتفاصيل الدقيقة، وتوفي في ١٥ يوليو ١٩٠٤ بعد إصابته بمرض السّل.

لا أُشكك فيما ورد بالأديان، لكن لا أظن أن النهاية ستكون بهذا الوضوح البيِّن؛ لو كانت الفردوس في السماء لفقد البشر السعي نحوها لأنها أصبحت معروفة، لأنها لم تعد تثير فضولهم، والفضول أحد صفات البشر الرئيسية، فما بالك بنهاية الحياة!

هذه الدراما التي تحدث في الأرض لا يمكن تحديد نهايتها حتى بالثواب والعقاب، لا أحد يعرف المقياس الحقيقي لهذا الميزان، أقول أنها عبث لأننا لا نعرف كيف ستكون نهايتها، ومهما اجتهدنا في المعرفة يبقى الجزء الأعظم والأهم غامض تمامًا لا يتوقعه أحد.

أما عن "تشيخوف" فلم يضع تصورًا للنهاية، لكنه عبَّر عنها بالخوف، ومَن منا لا يخاف النهايات الغامضة؟

"سيزيف" لخص كل شيء بالمعاناة الأبدية، الكثير والكثير من الأفكار والمخاوف والأسئلة.

أطفأتُ سيجارتي لأفسد رغبتي في التفكير، ثم غدوت في نومٍ عميق على أمل أن تنتهي هذه اللعبة بأي شكل ممكن.

الفصل الرابع

«لديَّ إحساس عميق بأنني لستُ حقيقية، إنني زيف مُفتعَل ومصنوع بمهارة.»

من رسالة انتحار مارلين مونرو.

استيقظت على صوت هاجر تقول:

ـ إن رغبتي في الانتحار ازدادت بعد التعافي من الوسواس القهري، لأنني اكتشفتُ حقيقة الأشياء حولي، ولأنني تأكدت أن العالم مرعب أكثر مما كنت أظن.

ظننتُ أنها تتحدث مع العجوز في غرفتي، لكنني كنت قد نسيتُ غلق الحاسوب الذي وضعته على المكتب عندما كنت أراقب لقائهما.

نظرت إلى ساعة الحائط، فتعجبتُ أنها لا تزال الرابعة عصرًا، وضعتُ أسئلتي التي كانت تنحصر حول سبب قدوم هاجر في هذا الوقت الباكر، وأسندتُ ظهري على السرير ثم تابعتُ حديث هاجر مع العجوز، فواصلتْ هاجر:

ـ أعتقد أن الإصابة بمرض واحد وهو الخوف من كل شيء أهون كثيرًا من التعافي منه، لأنك عندما تتعافى منه تدرك حقيقة الأشياء حولك، تدرك أنك لم تكن مريضًا حينما كنت تخشى من أشياء مزعجة حقًا.

إن التعافي من الوسواس القهري يمنحنا قبح وسخط أكثر على العالم وليس العكس، لأنك تدرك حقًّا أن ثمة مخاوف حقيقية لا زلت لا تتقبلها، وأن الإنسان من الأساس لا يتقبل مثل تلك الأشياء، فتدرك أن في هذه الحقبة اللعينة أصبح الإنسان خاضعًا لكل شيء، لم يعد الموت مرعبًا، لم يعد الخذلان مرعبًا، لم تعد الحرب مرعبة، لم يعد شيء يرعب.

في وسط الغابة يصبح خوفك من العالم ما هو إلا خوف على إنسانيتك أن لا تنهزم، أن لا تتحول إلى شخصٍ دموي، فردًا من غابتهم.

أحيانا أتفاجأ بمن يعلنون أنهم لا يخافون الموت؛ كيف؟ كيف لا نخاف الموت ونحن سنجلس في مكان ضيق، في ظلام كاحل ووسط التراب والحشرات، وربما الثعابين والعقارب؟! هل أصبح عدم الخوف مداعاةً للفخر والتباهي؟!

صحيح كنت مصابة بالوسواس، وكنتُ أخاف من أشياء تبدو عادية للبعض، لكنني أيضا كنت أخاف الموت، كنت أخاف الدماء، أخاف القتل، أخاف من قتل الحيوانات، أرتجف من بكاء وصراخ الأطفال؛ هل هذا كان يحتاج حقًّا للتعافي؟

أتذكر «رواية العمى» للعظيم البرتغالي «جوزيه ساراماجو»[٢٨]، حينما أصبح البصر جريمة يعاقب عليها القانون؛ بهذه البساطة أصبحتُ أشعر أنني متهمة دائمًا من العالم رغم تعافي من الوسواس القهري، فلقد كنت أخاف وأرفض كل ما هو مباح في العالم، متهمة أنا بإنسانيتي.

والآن قد تعافيت، بعد أن خسرت أعز أصدقائي، ومن قبلهم خسرت أبي، وودَّ أمي، حتى طارق الذي دلني على طريق العلاج أصبح من الماضي، وحققتُ كل ما هو ممكن في جامعتي، كذلك قررتُ الاستقلال الذاتي والحياة بمفردي في المهندسين، لم يكن القرار صعبًا، فلقد أجبرتني الحياة على اتخاذ قرارات ربما أصعب مما اخترت أنا بنفسي.

---

[٢٨] جوزيه ساراماجو: جوزيه دي سوزا ساراماغو، كاتب مسرحي وروائي برتغالي، ولد في ١٦ نوفمبر١٩٢٢، حصل على جائزة نوبل للأدب، وكان أحد الأعضاء المؤسسين للجبهة الوطنية للدفاع عن الثقافة في لشبونة عام ١٩٩٢، وأسس بمشاركة «أورهان باموك» برلمان الكتاب الأوروبي (EWP).. من أشهر أعماله رواية «العمى» و«الإنجيل يرويه المسيح»، توفي في ١٨ يونيو ٢٠١٠ إثر مرض ابيضاض الدم.

وعن طارق، فقد حاولتُ مرارًا التواصل معه، كنت أشعر أنه لا يزال يراقبني، ولا يزال يهتم بأمري؛ مجرد شعور، شعور يغلب عليه الوهم والحب، هذا الشخص الذي لم أعرف عنه إلا اسمه فقط كان نقطة فارقة في حياتي، نقطة لم أستطع تجاوزها.

تعرفين يا عجوزتي، لم يؤذِني الوسواس قدر الأذى من فجعتي في حقيقة العالم، لقد حاولتُ التأقلم مع العالم، لكن كنت أشبَه بمتهمة دائمًا على جرم لم أرتكبه، منبوذة لأنني أحافظ على إنسانيتي؛ طارق كان طوق النجاة بالنسبة لي، لكنه لم يتحملني حتى أتعافى، أراد أن يجعلني أتعافى بأقسى الطرق الممكنة، ولقد نجح في خطته، لكنه نسي أن التعافي من السرطان لا يعني إزالة آثار الجراحة.

مَن قال أننا نعود بخير بعد الانتكاسة أو التعب؟!

كل ما في الأمر أننا نصبح أشد صلابة، إن الآلام

لم تعد تحرجنا أمام الناس، احتفظنا بالغليان لأنفسنا وحدنا، وأصبحت لدينا قوة لإخفائها بشكل صحيح؛ لا أُشكك في فكرة أنه من الممكن جدًا أن نتعافى من وجع أو حزن، لكنني أشك في سرعة تقبلنا للتعافي، إنه أمر مثير للسخرية يا عجوزتي؛ أن نعاني من اضطراب أو انتكاسة تستمر لعدة أشهر أو سنوات، ثم يطالبوننا بالتعافي في بضعة أيام، وكأننا بلا قلب.

كم مرة ظننتِ أنكِ نسيتِ حبيبًا رحل ثم تأتي ذكرى ما تذكرك بأدق أدق تفاصيل علاقتكِ به؟

كم مرة ظننتِ أن قلبكِ لم يعد يتأثر بالفراق، فيرحل عنكِ أحدهم فيصيب الوجع قلبك مرة أخرى، كم مرة ظننتِ أنكِ بخير، وأنكِ لن تعاني

بعد ذلك، حتى يصدمكِ مشهد عابر أو أغنية قديمة تذكركِ بحطامكِ القديم، تعيدك لبؤسك واكتئابكِ، ليس لأنكِ ما زلتِ تعانين من الوجع، بل لأنكِ لم تتعافي منه من الأساس.

قاطعتها العجوز يوستانيا:

ـ هاجر الخجولة تتحدث بهذا النضج؟ من علمكِ كل هذا؟

تمددتْ هاجر بجسدها على السرير، ثم قالت:

ـ الحياة أكبر مدرسة في العالم، لا تعطينا دروسًا مجانية أبدًا، تمامًا كما قال نجيب محفوظ[٢٩]: «عندما أقول لكَ "علمتني الحياة" فتأكد أنني عانيت، فالحياة لا تعطي دروسًا مجانية».

يا عجوزتي، فتاة مثلي تمردتْ على العادات والتقاليد، ثارت على قيود وحطمت أصنامًا، وخسرت كل شيء من أجل البقاء، صحيح كنتُ مُصابة بالخوف من كل شيء، لكنني كنت أخاف أيضًا من هزيمتي أمام نفسي-، ولهذا كنت أسعى دائمًا للاستفادة من كل درس، من كل هزيمة وخذلان، حتى لا أقع في الخطأ مرتين؛ لكن كلماتي تلك مجرد كلمات لن تظهر قيمتها إلا بعد تجربة جديدة، لا أظن أنني سأخوضها مهما حدث.

---

[٢٩] نجيب محفوظ: نجيب محفوظ عبد العزيز إبراهيم أحمد الباشا، روائي مصري، وهو أول عربي حائز على جائزة نوبل في الأدب، ولد في ١١ ديسمبر ١٩١١، وكان عضوًا في الأكاديمية الأمريكية للفنون والعلوم، لُقِّبَ بـ «أمير الرواية العربية»، وهو أكثر أديب عربي حُوِّلت أعماله إلى السنيما والتليفزيون، ويُصنَّف أدب نجيب محفوظ أدبًا واقعيًّا تظهر فيه مواضيعًا وجودية.. من أشهر أعماله «أولاد حارتنا» و«الثلاثية» و«الحرافيش»، وتوفي في ٣٠ أغسطس ٢٠٠٦ إثر إصابته بالقصور الكلوي.

البؤس يعلمنا كيف نتعامل مع الحياة، أقصد نتعايش معها، لن أكذب عليكِ لطالما راودتني فكرة الانتحار، مجرد فكرة تجتاحني في أوقات يأسي، وأنا دائمًا يائسة، لكنني أخاف من مواجهة الله، لأنني لست مستعدة تمامًا لمواجهته.

عندما أصلي أفكر ماذا أقول له؟ هو يعرفني ويعرف عن حزني وتعاستي، ويعرف أنني حاربتُ لأجل النجاة من هذا المستنقع؛ أن تهرب من محاولات تحويلك لزومبي ألا يمكن أن يكون هذا سبب للانتحار؟

المسألة لا تتعلق بالحزن أو الاكتئاب؛ إنني أجاهد من أجل الحفاظ على ما تبقَّى مني، لو كنت فتاة خبيثة أو قاسية لما شعرتُ بهذا الشعور القاسي، حتى بعد استقلالي المادي والاجتماعي، ما زلت أرفض ما حدث، نعم قطعتُ علاقتي بأبي، ولم ولن أشعر بالأسف، ولو أعيدت الأحداث من جديد لتصرفتُ تلك الطريقة أيضًا، ورغم كل هذا أقسم أنني لم أتمنى كل ما حدث؛ كأيّ فتاة تمنيتُ أن يكون هناك شيء من الاستقرار في منزلنا، تمنيت أن يكون أبي هو ذاك السند والأمان والحب الذي قرأت وسمعت عنه، تمنيتُ أن أرمي بأثقالي عليه ليطمئنني ويشعرني بالأمان.

أمي التي لطالما كنت أرى أنها أمٌّ مثالية، كيف ابتعدتْ عني بتلك الطريقة؟! كيف صمتتْ على ظلمي ولم تدافع عني؟! أنا ابنتها الوحيدة فلماذا وقفتْ مكتوفة الأيدي وهم يصلبونني، وهم يعذبونني بالظلم والافتراء؟! كيف سمحت لنفسها أن تخذلني، أن تصمت أمامهم، بل تنصحني بالتجاوز؟! لماذا لم تفهم أن ثمة أشياء يصعب علينا تجاوزها، يصعب علينا

تقبلها من الأساس؟! كنت أرتجف خوفًا وهي حتى لم تتحرك لتُطمئن قلبي، لقد كان خذلان أمي هو أول مسمار في نعشي.

لم أتأثر بما فعلته ساندي؛ فعندما يخذلك أقرب المقربون لك يصبح خذلان الغرباء شيء عادي، إن لم تجد الطمأنينة بين أهلك فكيف تلوم العالم على خوفك؟! إن تعرَّيت من أولئك الذين وجب عليهم تغطيتك فكيف تلقي اللوم على الذئاب التي تنهش في جسدك العاري؟!

طارق كان طوق نجاة، لكنه لم يكن أكثر من طوق فقط؛ أوهمني بالنجاة بعد الرحيل، وقد كان حقًّا وهم، هو لم يكذب، لكنه نسي أن يخبرني كيف هي الحياة بعد التعافي، لم يتحدث معي عن مرحلة ما بعد الانتكاسة، نسي- أن الانتكاسات إن لم ننهض منها بطريقةٍ صحيحة تخلق انتكاسات جديدة.

مؤسفة الحياة وأنا خائفة من العالم، فقط أقول لنفسي أنني على ما يرام لأواصل طريقي الذي لا أعرفه؛ يخيفني العالم يا يوستانيا، أقسم ما زلتُ طفلة صوتها عالٍ لتخفي هشاشتها، لقد تعبت من الخوف، وما زلت أخاف وأحتاج لمن يطمئن قلبي، لكنني أرفض أي طمأنينة ليست من الرجل الذي أحببته بصدق.

في نوبة قاسية من البكاء واصلتْ هاجر:

- إن الخوف يقتلني حتى بعد التعافي منه؛ ما زلت أخشى الفراق والخذلان والظلام، وأخشى الرسائل الغامضة ونظرات الناس، والأماكن المرتفعة والمغلقة، ما زلت أخشى انطباعات الناس عني، وأخاف أن أصبح نسخة تقليدية منهم، أخشى التأخر عن أي موعد حتى لا يتهمني أحد بالتعالي، والقدوم مبكرًا حتى لا يظن أحد أنني في حاجة إلى مقابلته.

أنا خائفة، خائفة من كل شيء، حتى من علاقتي بسوما التي كانت سببًا في وجودي بينهم، أحيانًا أخاف من حدوث أي تجاوز، رغم أنه من المفترض أن يكون شعوري نحوهم هو الأمان.

دهب مثلًا، هو حتى لم يسألني عن اسمي، كذلك فريدة رغم غرابتها لكنها لا تهتم إلا لأمرها، والكئيب الغامض سراج لا أتوقع منه أي سوء؛ احتجتُ لطبيبٍ نفسيّ كي يحاول زرع الطمأنينة في قلبي، تلك الكلمة التي اختفت بغياب طارق.

عديني يا يوستانيا ألا تؤذيني، ألا تكوني سببًا في تعاستي خلال هذه الفترة، أنا على حافة الانهيار، ولا أريد قضاء ما تبقَّى مني في تعاسة وحزن، قد أُنهي كل شيء في أي لحظة، أرجوكِ لا تؤذيني!.

تنهدت العجوز، ثم اقتربتْ منها:

ـ تستحقين أن تكوني جميلة يا صديقتي؛ أعني أن الحياة مُتعبة، ولا يشتكي من قسوتها إلا الطيبون، أما الأوغاد فيعيشون حياة رائعة، لأنهم يجيدون الانتهازية، والكذب والخبث والنفاق، لكن ليس معنى أنكِ تتألمين أن توافقي بأقل المتاح لكِ، الكفر بالواقع الملعون إيمان يا صديقتي.

تستحقين أن تكوني جميلة، لا ترضي بشخص يعاملكِ بقسوة، تستحقين شخصًا يعاملكِ برفقٍ ومودة، شخص يزعجه الأشياء التي تزعجكِ، ويفعل المستحيل من أجل سعادتكِ، تستحقين شخصًا يختاركِ من وسط الجميع ويؤمن بكِ، يدفعكِ دائمًا للأمام، وعندما يراكِ تسقطين يكون هو أول مَن ينقذكِ من الوحل، تستحقين قصة حب رائعة يتغنَّى بها الجميع، لا تسمعي لمن يحاولون تحطيمكِ، لا تسمعي لمن يحاولون السخرية من أحلامكِ، جازفي من أجل تحقيق كيانكِ وذاتكِ، حاربي من أجل أحلامكِ، ولا تسمعي لأولئك الذين عجزوا عن تحقيق أحلامهم، لا ترضي بصديقٍ يفضل أي صديق عنكِ، يحتاجكِ وقتما يريد ويبتعد عنكِ وقتما يشاء، تستحقين شخصًا يحمل همكِ ويسمعكِ، يلاحظ ندبات الحزن والتعب على ملامحكِ، يفهم ما تعانين منه ويشعر به، لا يسخر من أسباب بكائكِ حتى لو كانت تافهة، يشاركُكِ تفاصيل يومكِ مهما كانت مملة، وينبهر بما تقومين به حتى لو كانت أشياء عادية، يدافع عنكِ ويراكِ جميلة رغم كل مساوئكِ وعيوبكِ، يتشبث بكِ ويمنعكِ من القسوة على نفسك.

نفسك تستحق الحب، لأنكِ لست مخادعة، لا تجيدين الكذب أو النفاق، لأنكِ صادقة، تستحقين حياة رائعة، وتستحقين أن تكوني جميلة.

ضحكت هاجر:

ـ شكرًا لك.

وقبل أن تستعد للرحيل سألت هاجر العجوز:

ـ هل سيعود طارق؟

ردت العجوز:

ـ المشكلة ليست في عودته يا هاجر، المشكلة أن يعود في الوقت الخاطئ، أخشى عليكِ من الانتظار، فهذا الشيء الوحيد الذي يتمرد على رغبتنا، مهما كنا أوفياء وننتظرهم في النهاية الانتظار له قانون وعُرف آخر، هو لا يتقبل فكرة الحب بلا أمل، يأبى كل مبرراتنا ويثور على ذكرياتنا؛ ليس أصعب من معركتكِ مع الانتظار، لأن قلبكِ هو الخاسر الوحيد منها، هي معركة بين كرامتكِ ومشاعركِ.

لا تصدقي أن الحب لا يعترف بالكرامة، هذا منطق الضعفاء فقط؛ الكرامة جزء أصيل من الحب، والانتظار وحده هو من يمسّ هذه المنطقة المفخخة، قد ننام ونحن ننتظر عودة شخص ما، ثم نستيقظ ونحن نرفض عودته من الأساس؛ هنا يعني أن الانتظار قد هزم رغبة قلبنا ووفائه، عندها لن نكون خائنين، على العكس، ربما سنكون وللمرة الأولى أوفياء لأنفسنا.

قطع حديث العجوز صوت فيروز الذي استعانت به هاجر على هاتفها وهي تغني:

«أهواك.. أهواك.. أهواك بلا أمل..»

ابتسمت العجوز ثم واصلت:

ـ أرفض هذا العشق المؤذي يا هاجر، لا تعجبني فلسفة فيروز في التعبير عن الحب والانتظار، تعجبني أكثر فلسفة أم كلثوم، فمهما كان عشقها في النهاية هي ترفض استهلاك طاقتها في الانتظار، هي تعرف معنى الوفاء، لكنها تعرف معنى قسوة الانتظار الذي يقودك للتخلي عن كرامتك، لا تكوني مثل فيروز التي تنتظر وتهوى بلا أمل، بل كوني أم كلثوم التي قالت:

«وعايزنا نرجع زي زمان! قول للزمان ارجع يا زمان.. وهاتلي قلب لا داب ولا حب ولا انجرح ولا شاف حرمان..»

في هذا الوقت كانت هاجر قد بدأت في الرقص، أمسكت العجوز يديها ورافقتها الرقصة.

لحظات من السعادة أو كما يقولون «الرقص على الوجع».

في هذا الوقت كانت هاجر قد بدأت في الرقص، أمسكت العجوز يديها ورافقتها الرقصة.

لحظات من السعادة أو كما يقولون «الرقص على الوجع».

في مذكراتي كتبت وأنا أتابعهم خلف الشاشة:

ـ «لم تكن هاجر إلا مجرد طفلة عادية وتلقائية، تفاجأتْ بتصادمها مع العالم حولها وبشاعته، وكأي طفل في المرة الأولى من تعامله مع العالم كانت تخاف الجميع، وقد كان؛ لقد أفسد الخوف جزءًا كبيرًا من شخصيتها، جعلها فتاة تائهة تبحث عن أي ركن هادئ يطمئنها.

تمردها على المجتمع لم يكن إلا رغبة في الحفاظ على نفسها من دناسة العالم، في الوقت الذي كان يجب عليها الانهيار، آمنت بأن المشكلة تكمن بداخلها، فاستقبلتْ كل شيء بصدرٍ رحب، لأنها أدركت أن محاولة فهمها للعالم مستحيلة.

الخوف يوحِّد نظرتك للعالم، ويجعل الجميع بالنسبة لك مجرد أعداء ينتظرون سقوطك لينهالوا عليك، الخوف يقودك لتصرفات جنونية طائشة، فأنت تبحث فقط عن الطمأنينة، وهذه الكلمة في عالم مرعب تحتاج للكثير من الجهد لشرحها.

هاجر ليست مريضة، لكنها خائفة، هاجر لا تبحث إلا عن ليلة تنام فيها مطمئنة أنه في الصباح لن يؤذيها أحد؛ لكن كيف تطمئن وهي التي عرفت الخذلان والخيانة والقسوة في ربيع شبابها، كيف تطمئن وهي التي تعرَّت في أكثر الأماكن الدافئة في حياتها، وهي التي تنام تحت سقف واحد مع ألد أعدائها، ذاك الذي اتهمها بالعُهر والجنون، من الممكن أن تستيقظ يومًا لتجده يتهمها بابتكار قنبلة نووية لتدمير العالم مثلًا!

الخوف يجعلها تتصرف بعدوانية وقسوة لتُبعد الناس عنها، ثم تعود لغرفتها كالأطفال تبكي من الوحدة والحزن، هذا الخوف الذي يحتاج للطمأنينة أكثر من الحب.»

خرجت هاجر إلى الشرفة، ثم تنهدت وقالت وكأنها تُحدث نفسها:

ـ أرجو أن لا تأتي متأخرًا يا طارق. لا تصدق أن البعض يتقبل فكرة أن «تأتي متأخرًا خير من أن لا تأتي»، فأنا والانتظار في خلاف أبدي، يبارزني بالوجع والضعف وأنقضُّ عليه بالكبرياء والتخلي.

يا عزيزي الأشياء الجميلة تأتي دائمًا متأخرة، لكنني لا أطيق الجمال إن كانت ضريبته الانتظار.

هل تعرف معنى أن أنتظرك؟ يعني أن أجلس مع صورتك وأنت في وادٍ آخر لا تعرف ما يحدث، أن أراقبك من بعيد لعلك تلاحظ غيابي، أن أستيقظ في الصباح على أمل قدومك، لعلك تضل الطريق مثلًا وتعتذر، أو تشعر بأنك أخطأت في حقي فتقترب وتعانقني.

هل تعرف معنى أن أنتظرك؟ يعني أن أبحث عنك بين المارَّة لعلي أراك صدفة، أن أفتح المحادثة التي تجمعنا لربما أجد رسالة منك تعبر عن مدى افتقادك لوجودي في حياتك، أن أنتظرك يعني أن أقف في المنتصف بين البقاء في مأساة انتظارك وبين الابتعاد عنك والحفاظ على ما تبقّى مني؛ الأشياء الجميلة التي تكون ضريبتها الانتظار القاسي والقلق وخيبات الأمل لا تبقى جميلة على العكس، يصبح جمالها مؤلمًا وباهتًا لقلوبنا.

ما أخشاه أن تأتي متأخرًا أكثر مما ينبغي في وقت لم أعد أنتظرك، في وقت يكون الملل قد تملّكني وفقدت الشغف نحوك، حتى لو عدتَ متأخرًا وكانت بين يديك الشمس والقمر لن أشعر بقيمة أفعالك، على العكس، سألومك أكثر وأكثر على غيابك، في وقت يصبح اهتمامك بلا معنى ومشاعرك بلا قيمة، وحتى وجودك في حياتي كغيابك لا أثر له.

ما أخشاه أن تنطفئ رغبتي تجاهك، فأرجوك لا تأتي متأخرًا، فالانتظار يفسدني ويفسد كل شيء حي بداخلي.

اقتربت العجوز منها وعانقتها، ثم قبلتها على جبينها:

ـ تستحقين حياة أفضل يا صغيرتي.

بخجلٍ ضحكت هاجر وهي تستعد للرحيل:

ـ أنتِ رائعة، شكرًا على كل شيء، سنلتقي مرة أخرى، وليبقى كل شيء سر بيننا، اتفقنا؟!

رددت العجوز:

ـ اتفقنا.

خرجت هاجر وتركت يوستانيا التي بدَتْ متأثرة جدًا، فأغلقتُ الحاسوب وانتهى كل شيء.

لم يكن الوقت يسمح للمماطلة، فلم أفتح ليوستانيا التي طرقتْ الباب عدة مرات.

وبمراجعة سريعة تأكدت أن هاجر ليست بعيدة عن أخطبوط الانتحار أيضًا، لكنها لن تفعل، على الأقل في هذا الوقت.

كانت فكرة تراودني، ماذا لو جمعتهم جميعًا وكشفتُ أوراقهم؟! ففي حمام العري يصبح المحتشم هو الأكثر غرابة بينهم.

أحيانًا يصبح الدافع الإنساني لعنة، وها قد قادني هذا الدافع إلى الشقاء، العالم في صدري يتوسَّع، ورأسي تبتلع كل الأفكار كما لو أنها ثقب أسود، أريد الهروب من هذه الشبكة، ولم يعد الحل إلا بالمواجهة.

«فريدة المهدي»

رغمًا عني اتجهتُ إلى مدينة الإنتاج الإعلامي، إلى فريدة أو فريد، لا يهم، المهم أن ينتهي هذا الهراء.

خلف الكواليس كنت أتابع المذيعة المشهورة وهي تتحدث عن مشكلة اجتماعية نفسية لصديقة ما تعرفها، لم أكن مهتمًّا بما تقوله حتى فضحتها لغة الجسد، بدَتْ متوترة بشكلٍ كبير على غير طبيعتها، وكان السر هنا، ربما تلعب الصدفة لعبتها هذه المرة!

بعد الفاصل واصلت فريدة:

ـ بعد أن أصيبتْ صديقتنا التي حدثتكم عنها باضطرابٍ نفسي- بدأ سلوكها تدريجيًّا في التغير، والتغير دائمًا هو بداية جديدة، ربما أفضل، ربما أسوأ، على أي حال هو شيء ما رحل مع القديم ولن يعود مع البداية الجديدة.

أصبحت الفتاة وحيدة جدًا، فقدت الثقة في كل من حولها، عدا أخيها الأكبر الوحيد، الذي خرج من عباءة والده واقترب منها، أصبح جزءًا كبيرًا من عالمها، استطاع أن يدعمها ويقدم لها كل سُبل النجاح والتفوق، كان يذهب كل صباح لشراء مستلزماتها الدراسية في الثانوية، يوفر لها كل الورق والأدوات، دخل في صراع مباشر مع والدها وزوجته الكيَّادة، اعترض على قرار عدم استكمال تعليمها، وهددهما بالهروب معها من المدينة؛ لقد وافق أن يكون هو الابن الضال في سبيل إرضاء أخته التي لم تكن تريد إلَّا استعادة جزء من نفسيتها وكيانها المستقل.

مع شيخوخة الأب ضعيف الشخصية، واستسلام زوجته التي لطالما حاولت حبس أخته وتجريدها من كيانها الشخصي، كان يرفض هو فرض أي سيطرة عليها، رفض بالنيابة عنها كل الذين تقدموا لها، رفض كل محاولات زوجة والده لتحطيمها، استطاع أن يكون هو الفارس المغوار الذي حرر قيود أخته المسكينة، استطاع أن يكون هو البطل الذي هزم عقائد وتقاليد قديمة رديئة لو توسَّعَت لأُعيد زمن وأد الفتيات.

في هذه الفترة الزمنية الفتيات يُوأدن أيضًا، لكن ليس بالموت والدفن بين التراب، بل توأدُ أحلامهن وأفكارهن وشخصيتهن، وقد كان أخيها هو بمثابة الرسول الذي حررها من كل هذا.

بدأت الفتاة في استعادة جزء كبير من شخصيتها، أرادتْ الالتحاق بكلية الإعلام، ولا مانع ما دام هناك من سيدفعها دائمًا للأمام؛ تجاوزت الفتاة عقدتها من الناس، وتدريجيًا بدأت تتعافى من عدة اضطرابات، عدا مأساة النوم، كان يجاهد من أجل أن يعالجها من تلك اللعنة المزمنة، لكن دون جدوى، محاولاته كانت تنتهي سريعًا.

«الأهم أن نركز على الهدف الأسمى يا عزيزتي، أنا معكِ لا تقلقي»

هكذا كان يدفعها بكلمات الحب والشغف نحو الأمام بمحاولات لإنقاذها من الموت، لكن لا شفاعة في الموت يا صديقي، ولهذا كان يعتبر ليلها مجرد كابوس عليها أن تواجهه حتى الصباح، ليأتي دوره في تلوين البقاع السوداء التي تركها الظلام على جسدها وأفكارها، كان يجاهد حتى يوم تقديم الكليات..

فاصل ونعود.. انتظرونا..

بصوتٍ حاد قال المخرج:

ـ خمس دقائق ونعود من جديد، فريدة، لا تتأخري.

من مكان التصوير خرجت على عجل فريدة متجهة إلى الشرفة الخارجية، لم تلاحظ وجودي، ولم أهتم لإثبات وجودي لها، حتى أشعلت سيجارتها، فوقفتُ بجوارها:

ـ أنا أعرف قصة هذه الفتاة.

نظرت إليَّ وكأنها كانت تتوقع قدومي:

ـ أشك في ذلك، على أي حال لن تعجبك الأجواء هنا، ارحل من فضلك.

رددتُ بثبات:

ـ أنا هنا حتى نهاية الحلقة.

أدارت وجهها عني وهي تقول:

ـ حسنًا، التزم الصمت.

أخيرًا قد ساعدني القدر، فريدة تحكي قصتها على أنها قصة فتاة أخرى.

عادت فريدة إلى مكان التصوير، وكان في استقبالها فتاة غريبة الأطوار تجلس على الكرسيّ الموازي لها، رحبَّت بها، ثم قال المخرج من خلف الكاميرات:

ـ التشويش، لا أريد أي ظهور لملامح الفتاة، كثفوا الظلام عليها.

لم تهتم كثيرًا فريدة لكلمات المخرج، كانت في قمة التركيز، فقال المخرج الغاضب:

ـ فريدة، مستعدة؟!

لم ترد فريدة على سؤاله، فكرر من جديد:

ـ فريدة، مستعدة؟!

قالت:

ـ نعم.

ـ حسنًا، واحد.. اثنان.. ثلاثة.. on air.

واصلت فريدة:

ـ والآن، معنا صاحبة القصة، والتي رفضت الإفصاح عن اسمها أو هويتها، وفي هذه الفقرة ستحكي لنا الفتاة عما حدث..

بدأتْ الفتاة تتحدث:

ـ يوم نتيجة التنسيق والتحاقي رسميًا بكلية الإعلام، صاحبني أخي إلى أشهر المحلات النسائية، كنت كطفلة تتشبث بأبيها، أختار كل ما يناسبني من ملابس، وكان يقول لي:

«أريدك أن تكوني أجمل فتيات الجامعة»

كنت في حالة سعادة عارمة، كما لو أن العالم يريد في تلك اللحظة تعويضي عن كل الآلام التي مررتُ بها، فلم ينل خبر التحاقي بالجامعة في منزلي ردًا قويًا، على العكس، لم يهنئني أحد من الأساس، ولم أكن أنتظر التهنئة، لكنني كنت أنتظر قسوة ما سيحدث في المنام؛ لقد تطور الأمر، لم تعد أحلام، بل أصبحتْ واقعًا أعيشه، أصبحتُ أرى أشياء لا يمكن لعقلٍ

بشري أن يراها، أسمع أصواتًا أشبه بتلك التي يقولون أن الحيوانات تسمعها في المقابر، أهوال المقابر.

في تلك الليلة رأيتُ شابًا يصرخ، كنت مكتوفة الأيدي، أراه يتمزق إربًا إربًا وأنا على سريري لا أستطيع إنقاذه، الشاب يصرخ وحولي مجموعة من المخلوقات غريبة الشكل تحاصرني وتمنعني من النهوض، أسمع صوت أبي وزوجته يتسامرون بالخارج، أحاول الاستنجاد بهم لكنهم لا يسمعونني، أصرخ لكن صرخاتي مكتومة، أنا في عالم موازي بين الحلم والواقع، لا أعرف بالضبط كم دقيقة تمر عليّ وأنا تحت تأثير تلك النوبة القاسية، أحيانًا أكتشف أنني قضيت خمس دقائق، وهذا يدفعني للجنون، فما شعرتُ به ورأيته ربما يتجاوز عامًا كاملًا.

استيقظتُ وكعادتي منهكة تمامًا، العلامات الزرقاء في جسدي تفرض سيطرتها، ملامحي شاحبة وأنفاسي تتردد في عشوائية؛ اتجهت لغرفة أخي، سألني عما حدث، أخبرته بما رأيت، وتفاجأتُ بحقيبة السفر بجواره، سألته إن كان حقًا يستعد للسفر، فقال أنه لن يتأخر، فقط سيذهب إلى الإسكندرية يومين ثم يعود، حاولتُ منعه من السفر، لكنه ضحك وقال:

- **«إنها مجرد أضغاث أحلام، لا تقلقي»**

كل محاولاتي لمنعه فشلت، وبالفعل في الصباح وبعد أن بقيت معه طوال المساء، رحل أخي، وقبل أن يرحل:

- **«عاهدني أن تعود سالمًا»**

بحركته المعتادة التي أحبها، شد خدي الأيسر:

- **«لا تقلقي، سأكون بخير»**

مر اليوم الأول في غيابه، قلبي كان يرتعد مع كل ساعة تمر في غيابه، كنت أتصل به طوال الطريق لأطمئن عليه، وألعنه إن لم يستجب لمكالمتي من المرة الأولى، كان القلق يراودني دائمًا، كنت على حافة الانهيار.

في صباح اليوم الثاني، وفي الثانية عشر ظهرًا، استيقظتُ مفزوعة، فاتصلت بأخي عدة مرات، لكنه لم يستجب لمكالماتي، ذهبتُ لأبي وسألته إن كان أخي قد اتصل به، فقال أنه لم يتصل، وبالطبع لم أسأل زوجة أبي، فمن المستحيل أن يكون قد اتصل بها.

اضطررت للانتظار، ثم عاودت الاتصال أكثر من مرة، حتى رد أحدهم:

- **«مرحبًا!»**
- **«مرحبًا، هذا هاتف أخي، أين هو؟!»**
- **«البقاء لله»**

ثم أغلق الهاتف.

هنا تأثرت فريدة أكثر من الفتاة صاحبة القصة من الأساس، وبتأثر فريدة الواضح قال لها أحد أعضاء فريق الإخراج عبر السماعة الداخلية أن عليها الخروج إلى فاصل، ورغم أن البث كان مباشرًا إلا أن فريدة لم تهتم، وظلت تنظر إلى الفتاة التي أوقفت الحديث.

كاد يجن جنون المخرج، حتى نطقت فريدة:

ـ نكتفي اليوم بهذا القدر من القصة، شكرًا لضيفتنا صاحبة القصة، انتظرونا غدًا في الثامنة مساءً في برنامج «قصة من قلب الواقع» مع فريدة المهدي، إلى اللقاء.

رغم غضب كل الحضور، أشعلت فريدة سيجارتها ثم اتجهت إلى باب الخروج، دون إعطاء أي مبرر لما حدث، واتجهت مباشرة إلى سيارتها، فحاولتُ اللحاق بها، لكنها انطلقت بسرعة جنونية، تبعتُها حتى اختفت عن نظري بالسيارة، فوقفتُ حائرًا، ماذا عليَّ أن أفعل؟!

لم تعد لديَّ طاقة لاستكمال البحث، فليمت من يمت، هذه الحياة وحدها مشقة وتعب، فلماذا أحاول إنقاذ شخص من الانتحار وأنا أعرف أنها مُتعبة؟!

في طريق عودتي للمنزل قررتُ أخيرًا الانسحاب، سأعود إلى منزل عائلتي وأحاول استعادة ما رحل عني في هذه الفترة السخيفة، أنا لا أستحق كل هذا العناء، لا أستحق كل هذا التعب، فليسقط العالم، فلم يعد بمقدوري تحمل المزيد من المتاعب من أجل الدافع الإنساني، الإنسانية من الأساس مشوهة، فلماذا أُصرُّ على تعاملي بها في واقع يتفنن في تلويثها وإبادتها؟!

لقد سئمت البحث وراء أفواج من البؤساء الذين لا يعرفون وجهتهم؛ القاهرة من الأساس مثيرة للحزن، القاهرة مثيرة للاكتئاب، الناس هنا مثيرون للاكتئاب وللتعاسة، ترى الحزن يسود ويسيطر على ملامحهم، أصواتهم، ملابسهم، حتى ضحكاتهم تشعر وكأنها ممزوجة بتنهيدات يأس وخيبة تلقائية، الناس هنا يشعرونك دائمًا بالغربة، يتابعون تصرفاتك وتحركاتك بغرابة شديدة، وكأنك تمشي بينهم عارٍ أو ترتدي ملابس بهلوان سخيف، يشعرونك بالغربة لشعورهم بالغربة المتلازم لكل تصرفاتهم.

هنا الجميع في وضع استعداد للانقضاض عليك، أو انقضاضك عليهم، سكان هذه المدينة أشبه بلوح ثلجٍ لا يتأثر، لا يبالون بأي شيء، لا شيء يثير غضبهم، وكأنهم اعتادوا على الفوضى والزحام، الأجواء هنا حيوانية بطريقة مزعجة، أشعر وكأنني أعيش وسط مجموعة من الجثث، مجموعة من الأشباح الذين فارقوا الحياة منذ عهود طويلة.

هنا القاهرة، هنا أكثر المدن كآبة على الإطلاق.

بعد ساعتين من المشي، وصلت باب العقار عازمًا على العودة إلى منزل عائلتي، صعدتُ إلى الطابق الأول.. الثاني.. الثالث.. في الطابق الرابع وأمام المنزل تفاجأتُ بفريد يجلس على السلم..

ـ لقد تأخرتَ كثيرًا يا صاح.

دون أن أُبدي له اهتمامًا دخلت المنزل، ألقيتُ بالمفاتيح على الطاولة، ثم اتجهت إلى الغرفة وأنا أقول له:

ـ اعتبره منزلك.

رد بضحكة ساخرة:

ـ منزلي ليس بهذا التواضع.

من الدولاب أخرجت حقيبتي، ثم بدأت بوضع ملابسي بها.

جلس فريد وهو يتأمل تحركاتي قائلًا:

ـ أنا أعرف أنك تعبت، أنا لا أعلم الغيب، لكن أعلم أن ذلك الشيء الذي وقع في يدك هو ما أجبرك على الاقتراب من الجميع والاستماع لهم؛ لقد رأت فريدة هذا في منامها وأخبرتني به.

قد لا تستوعب الأمر، لكن ثمة أشخاص يستيقظون وهم يعرفون أشياءً لا يشترط أن تكون قد حدثت معهم، وهذا بالضبط ما حدث مع الفتاة التي تحدثت عن أخيها في حلقة اليوم ببرنامج فريدة، فأنا أعرف ما مر عليها، وأحفظ ما حدث معها بالتفصيل.

يوم علمت خبر وفاة أخيها اتجهت إلى الإسكندرية، كانت المرة الأولى التي تخرج وحدها من المنزل دون رقيب عليها، وطوال الطريق كانت مع الشاب الذي رد عليها وبلغها الخبر، اتجهت إلى أحد المستشفيات الخاصة بحي العجمي، واستقبلها الشاب بملامح حزينة جدًا:

- **«أرجوكِ تمالكي أعصابك!»**

كانت منهارة تمامًا:

- **«أين هو؟ أين هو؟»**

بجنون وقهرة حزن دخلت الغرفة الباردة، أزاحت الستار عن وجهه، ملامحه زرقاء بائشة تمامًا، ظلت تتأمله في ذهول، تلامس وجهه بأناملها بطريقة عشوائية، وكأنها تحاول إعادته إلى الحياة، وكأنها تحاول فك طلاسم الموت وبث روحًا جديدة في جسده، إنها تلك اللحظة التي تقف فيها أمام جثة كانت تضيء عتمتك، كانت تعطيك الحياة. برودة الغرفة كانت هيّنة أمام برودة جسده وصاعقتها من هول المنظر، أصوات الأجهزة كانت لحنًا جميلًا بالنسبة لضربات قلبها القاسية، الأنين وصرخات مكتومة وهي تتأمله وتتحدث معه، وكأنه حي يرزق:

- **«لقد حذرتك من السفر، لقد حذرتك من تلك الرحلة، لكنك لم تنصت جيدًا، لم تعطِ اهتمامًا كبيرًا لما حذرتك منه.**

غبي أنت، لم تفهم أن حياتك ليست ملك لك وحدك، إنها ملك لي.
الآن أخبرني كيف يمكنني مواجهة العالم المأساوي؟ كيف يمكنني تجاوز التعثرات وحدي؟ الحياة أكبر لعنة، ولطالما وعدتني أن تخفف من وطأتها وقسوتها، والآن ها قد رحلت، أنت من كان صوت خطواته في المنزل يطمئن قلبي، حتى في خصامنا كنت دائمًا تطمئن عليّ، الآن أصبحتُ وحدي أمام العالم، خائفة وعنيدة ومهزومة.
انهض وواصل الحرب والمعافرة معي، من أجل النجاة لا بد من التضحية بالأشياء التي تقودنا للغرق، لم تبالِ بغضب والدك عليك وواجهت كيد زوجته بقلب أخٍ كبير، ضحيت بنظراتهم لك، ضحيت برضاهم في سبيل إرضائي، والآن يختارك الموت!
ظالم هذا الذي لا يضع لرغبتنا أي احترام أو اعتبار، ظالم هذا الذي يخطف من يشاء ليختار ما يختاره دون أن يعطي اهتمامًا لما سيحدث خلفه.»

كانت منهارة لكن نبرة صوتها ثابتة، تتأمل ملامحه وتتحسس وجهه بهدوءٍ تام، وكأنها تعطي روحها لجسده من جديد.

خرجتْ من الغرفة بعد أن قبّلت جبينه، خرجتْ بإرادتها، لم تتحدث مع والدها ولا زوجته، واتجهت من الإسكندرية إلى القاهرة، حتى مراسم الدفن والعزاء لم تحضرها، وكأن المرحوم لم يكن أهم شخص في حياتها.

نظر إليّ فريد ثم أكمل بسرعة:
ـ ما حدث بعد هذا كان لا يصدق، لذلك يجب علينا الآن الخروج من هذه الغرفة، ومِن ثَمَّ مقابلة فريدة لتحكي لك هي ما حدث بالضبط، لكن اعذرني لن أكون معكم، فلقد تأخرت كثيرًا على عملي، تعالى معي، فريدة تنتظرك. وقبل أن تخرج معي، ارتدي ملابس تناسب حفلًا رسميًّا، لأن فريدة تحب الرجال متناسقي المظهر، أنا في انتظارك بالأسفل.

لم يكن لدي حق الاختيار، هذه هي الليلة الأخيرة في تلك اللعبة، ومن بعدها لن أهتم لما يحدث أبدًا.

ارتديت ملابسي مغصوبًا، ووجدته ينتظرني في السيارة، وما إن ركبت حتى لاحظت أنها سيارة فريدة، فسبقني هو:
ـ هذه سيارة فريدة، لقد سرقتها منها، عند لقائك بها لا تخبرها بالأمر.

انطلق بالسيارة، وكانت قصيدة درويش[٣٠] على المذياع تفرض علينا حالة الصمت والاستماع لها:

---

[٣٠] محمود درويش: شاعر وكاتب فلسطيني، أحد أهم الشعراء الفلسطينيين والعرب والعالميين الذين ارتبط اسمهم بشعر الثورة والوطن، ولد في ١٣ مارس١٩٤١، لُقب بشاعر القضية الفلسطينية، وحصل على جائزة "الإكليل الذهبي". ويعتبر أحد أبرز مَن ساهم بتطوير الشعر العربي الحديث وإدخال الرمزية فيه، ففي شعر درويش يمتزج الحب بالوطن بالحبيبة الأنثى. كما قام بكتابة وثيقة إعلان الاستقلال الفلسطيني التي تم إعلانها في الجزائر. توفي في ٩ أغسطس ٢٠٠٨.

«لا شيءَ يُعْجِبُني؛ لا الراديو ولا صُحُفُ الصباح ولا القلاعُ على التلال، أُريد أن أبكي..
يقول السائقُ: انتظِر الوصولَ إلى المحطَّةِ وابْكِ وحدك ما استطعتَ.
تقول سيّدةٌ: أَنا أَيضًا، أنا لا شيءَ يُعْجِبُني، دَلَلْتُ أبني على قبري، فأَعْجَبَهُ ونامَ، ولم يُوَدِّعْني.
يقول الجامعيُّ: ولا أَنا، لا شيءَ يعجبني، دَرَسْتُ الأركيولوجيا دون أَن أَجِدَ الهُوِيَّةَ في الحجارة. هل أنا حقًّا أَنا؟!
ويقول جنديٌّ: أَنا أَيضًا، أَنا لا شيءَ يُعْجِبُني، أُحاصِرُ دائمًا شَبَحًا يُحاصِرُني.
يقولُ السائقُ العصبيُّ: ها نحن اقتربنا من محطتنا الأخيرة، فاستعدوا للنزول.
فيصرخون: نريدُ ما بَعْدَ المحطَّةِ، فانطلِق.
أمَّا أنا فأقول: أنْزِلْني هنا، أنا مثلهم، لا شيء يعجبني، ولكني تعبتُ من السَّفَرْ.»

بعد أن ردد كلمات القصيدة قال فريد:

ـ من المعاناة التي عاشتها فريدة هي شعور أن لا شيء يعجبها، لم يكن من الصعب إرضاؤها، لكن كان من الصعب عليها فكرة تقبلها للعالم، لم تكن مشكلتها في تجاوز عقبة الختان أو التحرر من القيود الأسرية، لكنها كانت لا تشعر بالأُلفة مع العالم، وكأنها جاءت إلى هنا عن طريق الخطأ.

لطالما كان شيء يقودها نحو الجنون، كنت أُشفق عليها وأنا أحاول تغيير هذا الشعور عندها؛ لكنني كنت أعرف أنه ومن المستحيل تغيير شعور الرفض والسخط على العالم، لقد عذرتها مرارًا وهي تحدثني عن رغبتها

في الانتحار، رغم كل محاولاتي لإبعاد تلك الفكرة عنها، إلا أنني كنت أؤمن أن لديها كل الحق في اكتساب تلك الرغبة؛ فكيف تبقى في حياة لا تناسبك، لا تشبهك؟!

أحيانًا كنت أغضب منها لأنها لا تقدر محاولاتي لإسعادها، لكن أعود من جديد وأقول أن محاولاتي تعطيها شعور السعادة، لكن لا أحد يستطيع إعطائها رغبة الرضاء التام عن الحياة.

توقفنا أمام أحد العقارات الكبيرة بحي الزمالك، فقال:

ـ هيا بنا.

خرج من السيارة فتبعته.

وصلنا إلى منزل فريدة؛ منزل على الطراز الأوروبيّ، يعتبر خالٍ من الأثاث رغم كثرة الأجهزة الإلكترونية.

لم تستقبلنا فريدة، فقال فريد بعد أن دعاني للجلوس:

ـ فريدة في غرفتها، سأذهب لإحضارها، أرجوك كن لطيفًا معها.

لم يكن لدي أي ردٍ سوى الصمت.

اتجه فريد للغرفة المظلمة وهو ينادي بهدوء:

ـ فريدة، معي ضيف حتمًا ستحبينه.

فتح الباب بهدوءٍ، ثم اختفى.

في هذا الوقت كنت في حالة شلل تام، لا أستطيع التحدث حتى مع نفسي، وبعد عشر دقائق، سمعت صوتًا أُنثويًّا من الغرفة يناديني:

ـ سراج، تعال، أنا أنتظرك هنا.

توترتُ قليلًا وتظاهرت بعدم السماع، لكنها كررت المناداة حتى اضطررت إلى الذهاب لها.

لم تكن غرفة عادية، كانت عالم آخر؛ الإضاءة الزرقاء، الكثير من الصور المعلقة لأشخاصٍ لا أعرف منهم سوى فريدة وفريد، وصورتي أيضًا كانت من بين الصور، وفي الركن البعيد المظلم هناك كانت تجلس فريدة على الأرض، قالت:

ـ تعال، نحن أبناء الأرض، تعالى واجلس بجواري.

سألتها:

ـ أين فريد؟

قالت بعد أن ضربت رأسها في الحائط بأسى:

ـ يقول تقرير الطب الشرعي أنه مات غرقًا في البحر.

ثم ضحكتْ بسخرية بعد أن وضعت يدها على صدرها:

ـ لكنه هنا، ثابت في قلبي، ثابت وأرفض حقيقة وفاته، حتى أنني أرتدي ملابسه، وأتحدث بنبرة صوته لأثبت لنفسي أنه لا يزال حيًّا.

لقد رفضتُ كل أشكال الحياة بعد وفاة أخي الأكبر، أصبحتُ لا أجيد إلا الصمت والعزلة، وازدادت رغبتي في الاختفاء؛ ففي جنازة أخي كنت في حالة غريبة، أتابعها فقط من بعيد، كأي عابر لا يعرف من المتوفي لكنه يرثي له كثيرًا لأنه يعرف قسوة الحياة على الجميع.

كانت الجنازة تبتعد وأنا من بعيد أسير خلفها في خطواتٍ ثابتة، الباعة، الأطفال، الشباب على المقهى، الجنازة تسير وسط عالم لا يبالي كثيرًا بالموت.

يقترب النعش ناحية المقابر حاملًا معه أخي مع أحلامي وحياتي، يتوارى أكثر هو في طريقه إلى الخالق الكريم، وأنا وحدي وسط مخاليقه الملاعين، هو سيعانقه التراب حتى أمر ربه بالرحمة، وأنا ستعانقني الاضطرابات ولن أُرحَم من مكائد البشر. هو سيعيش في الظلام حتى موعد قيام الساعة، وأنا سأعيش في ظلام الحياة حتى ظلامي الكبير.

أبي كان يتقدم تلك الجنازة الباردة، لم أُشفق عليه وهو يتعكَّز على الغرباء، ولم أُحرّك ساكنًا عندما تعثر أمامي، لم أتقدم خطوة واحدة؛ فلو تقدمت ربما دفعني بقوة، فهو يراني نكسته الوحيدة في الحياة، لو استطاع لدفنني مكان أخي، ويا ليته فعل ذلك.

صحيح للحظة ما شعرت بالأسى، كان بإمكاني مساعدته، لماذا اعتبرنني عار وخزي منذ اللحظة الأولى في حياتي؟! لماذا اعتبرني جزءًا ممسوسًا وزرعًا شيطانيًّا سيجلب له العار والخزي؟!

وتلك الحربائة زوجة أبي، التي تحاول التظاهر بالحزن لوفاة أخي، لماذا لم تعوضه يومًا عن يتمه، لماذا لم تحاول حتى أن تكون أمًا له؟! لماذا أشعلت كل تلك الفتن بيننا؟! كلها أسئلة كانت تحاصرني وأنا أتابعهم من بعيد.

لم أتحمل دخول المقابر، عدتُ فورًا، وأنا في الطريق إلى المنزل كنت في حالة جنون، الشوارع مزدحمة كعادتها، السيارات، الباعة يواصلون الإعلان عن بضائعهم بطريقتهم المعتادة المزعجة، مجموعة من الشباب يضحكون في

المقهى الذي مرت عليه الجنازة، وهناك أضواء لاحتفال زواج في شارعنا؛ كنت في حالة دهشة، مات أخي ولم يتأثر أحد، كيف لم تتوقف السيارات في هذا اليوم؟! تمنيت أن تعم حالة حداد أبدية على وفاة أخي، فكيف يواصل العالم وتيرته؟! لقد مات عالمي! كيف لا يشعر أحد بالحزن والقهرة التي تسكن قلبي؟! كيف يسير العالم بشكلٍ طبيعي في الوقت الذي كنت أشعر أن العالم بالنسبة لي قد انتهى؛ ومع الوقت أدركت أن العالم أكبر من حزنك الشخصي، أكبر من عالمك الخاص، فلن يشعر بك إلا من يعاني معك في نفس اللحظة، ولن يواسيك إلا من يحتاج لمواساتك أيضًا، ومهما كان حزنك عظيمًا وصادقًا فأنت لست محور الكون.

تعلمت أن أنطوي بين أركان حزني، فلن يهتم أحد بما أشعر به، لم أرفض يومًا الخروج من غرفتي، لم أرفض أي شخص يريد مقابلتي، كنت أتحدث مع الجميع بلطفٍ تام، لكن في غرفتي كنت أشعر بشيءٍ من الأمان والأُلفة، ذاك الشعور الذي لم أجده مع العالم، لقد تأذيت كثيرًا من العالم الخارجي، والمسألة لا تتعلق بالسعادة أو الحزن، هو شعور بعدم الألفة مع العالم بشكل عام.

مع أولى لحظات خروجي للعالم الخارجي أفكر في العودة من جديد إلى غرفتي، مع بداية لقائي بأي شخص أفكر دائمًا في لحظة نهاية هذه المقابلة؛ أنا لا أكره أحدًا، هل تفهمني؟!

أنا لا أكره أحدًا، لكنني لا أشعر بالأُلفة مع أحد.

بعد وفاة فريد أصابني الجنون، لماذا يختار الموتُ الذي يقدمون لنا الحياة؟! لماذا لا يختار الذين استطاعوا إفساد حياتنا؟! لماذا لا تضع الطبيعة شروطًا قاسية لمن باغتنا، ولمن تفنن في أذيتنا؟! ولماذا لا نملك حق معاقبتهم على الأضرار التي حدثت لنا بسبب طريقتهم وتصرفاتهم؟! متى يفهم العالم أن قلوبنا ليست حقلًا للتجارب، وأن ثمة أشياء تتحطم بداخلنا لا يمكن لأحد إعادة بنائها من جديد؟!

بعد وفاة فريد اشتدت قسوة الكوابيس، أصبحتُ أرى عالمًا آخر، أنا أرى عذاب القبر كما أخبرتك، أقسم لك أنني أرى عذاب القبر؛ الأفاعي والثعابين والعقارب ينهالون على جسدي، أشعر بهم ولا أستطيع دفعهم بعيدًا عني، أشعر بتسلل السم إلى دمائي، بلدغتهم، أنا أرى الأحداث التي مرت عليَّ طوال اليوم، وأرى ما سيحدث في المستقبل.

استسلمت لعالمٍ خاص من الأفكار المتحركة، لقد كان مرضي نادرًا وفي غاية الخطورة، أنا أرى حياتي ومماتي في منامي؛ لستُ ممسوسة، فهذه ليست أفعال الجن، كما لا علاقة له بالحالة النفسية، ما أراه لم يجبني عنه أحد إلا عرافة؛ فذات يوم كنت أجلس على النيل، وتفاجأتُ بوجودها بجواري، كانت ملامحها تدل على معاناة حقيقية عاشتها تلك السيدة، ودون أي مبررٍ قالت:

- **«أنتِ مصابة بلعنة التفكير، هذا ما يجعل حياتك من نوع آخر، تفكرين طوال الوقت في الأشياء التي رحلت عنكِ، وفي الأشياء التي تنتظرينها، تفكرين في الذين تلتقين بهم في صدفة عابرة، في**

انطباع الناس عنك، أنتِ تفكرين في كل شيء وهذا سيقودك للجنون.

لكن ورغم علّتكِ وجنونكِ لكنكِ ستحققين كل شيء لأجل الهروب من هذا النفق المظلم، ستصبحين مثالًا يقتدى به في العمل والشهرة، ستصبحين إحدى أهم شخصيات مصر النسائية، ستعانين في الظلام أشد معاناة، ثم تستيقظين تاركةً جزءًا أصيلًا من شخصيتكِ في غرفتك، لتواجهي العالم بوجهٍ مشرق قوي لا ينهزم، لن تضعي حلًا لمشكلتكِ، فأنتِ تعرفين أن لعنتكِ لن تنفك طلاسمها، ستغلقين الأبواب أمام كل راغبي الاقتراب منكِ، ليس لأنكِ امرأة سيئة، لكنك لن تحبي فكرة أن يتأذَّى أحد بسبب مشاعركِ أو مأساتكِ.

ورغم ازدحام الجميع حولكِ إلا أنكِ لن تتعافي من شعور الوحدة، سيبقى جزءٌ ما بداخلكِ فارغ ومظلم، سيبقى جزءٌ كبيرٌ منكِ مهجور، رغم الزحام أنتِ فارغة من الداخل، وهذه لعنة لن تتعافي منها أبدًا.»

رحلت العرَّافة بعد تلك الكلمات وقد صدقتْ نبوءتها؛ فلقد تجاوزت سريعًا أمر وفاة فريد، تجاوزته أسرع مما كنتُ أتخيل، ولم تكن الحياة في مصر تناسبني، فهربتُ من كيد زوجة أبي واستسلامه هو الآخر، واستكملت دراستي في تركيا، وتدربتُ هناك على الإذاعة والتلفزيون، واستطعتُ الحياة بمفردي، وأصبحتُ مذيعة راديو on line، أجدتُ التركية والإنجليزية، ورغم كثرة العلاقات التي أنشأتها هناك لكن كانت في نيتي العودة إلى مصر، كنت أنوي العودة، لكن وأنا أقوى وأنجح مما أتخيل.

كل ما حدث كان مدروسًا بالخطوة، كلما اقترب أحدهم مني كنت أرى في منامي ما سيحدث في المستقبل، فأبتعد من البداية، لم أقاوم هذه التضاريس من أجل الحفاظ على شخص، لم أقاوم حتى العالم الذي أراه، على العكس، أصبحتُ مستسلمة له.

والمفاجأة كانت إصابتي بمتلازمة تجعلني أرى فريد كلما احتجتُ إليه، بدا الأمر جنونيًّا، لكن كان رائعًا أيضًا، كنت أعرف أن هذه ليست الطريقة الصحيحة لمواجهة العالم، أنا أواجه بأمراضي واضطراباتي النفسية، ولو انفضح أمري لأصبحتُ مادة للسخرية والشفقة، وهذا ما كنتُ ما أرفضه، أحيانًا كانت تجتاحني نوبات الشفقة على النفسي، لأنني أريد من يهوِّن تلك المأساة، ومع ذلك أرفض حتى محاولات الاقتراب مني.

في الوسط الإعلامي لم أكن محبوبة بشكلٍ كبير، ومن الجميع بلا استثناء، حتى زملائي في القناة، كنت أرى في ملامحهم نظرات الحقد والغل والكراهية، وهذا لم يزعجني قدر انزعاجي الكبير أن لا أحد يفهم ما وراء كل هذا التعالي والغرور، لم يكن كل هذا إلا محاولات لضعف وانعدام ثقتي في نفسي؛ كنت أرى تعليقات الجمهور على الحلقات، تفاعلهم الكبير مع ما أُقدمه ورأيهم بشخصيتي وأدائي، ومع ذلك لا أبالي، لا يمكن للغرباء تعويض شعور انعدام الثقة والضعف الذي تسبب فيه الأهل، لا يمكن للغرباء إزاحة شعور النقص والانكسار الذي حدث من الأهل، لا يمكن للغرباء تغطية العري الذي حدث في منزلك.

لم أتأثر كثيرًا بوفاة أبي، ولم أحضر جنازته، ليس لأنني بلا قلب، لكنني كنت قد أعطيت كل الحزن لأخي، لذلك لن أسمح لنفسي- بالذهاب إلى مراسم دفن لا أشعر بالأسف لفقدان المرحوم بها، حتى لو كان أبي.

مرت السنين ببطءٍ، لكنني أخيرًا حققتُ كل ما أردت، وبمحاولة بائسة حاولتُ أن لا أخضع أكثر لما يحدث في منامي، حاولت التعافي من أجل مواصلة النجاح وحدي؛ فالنجاح وحدك يحتاج لطاقة لا يدركها أحد، يحتاج أن تبقى مستيقظًا وثابتًا طوال الوقت، وهذا ما صعَّبَ الأمر كثيرًا عليَّ، خصوصًا أن وفي فترة ما كانت الاضطرابات تؤثر على قراراتي وتصرفاتي.

ولاستمرار سلسة النجاح كان لا بد من مداواة مأساةٍ أعاني منها وحدي، وقد كان الحل في...

نهضتْ فريدة، واتجهت إلى خزانة الملابس، وارتدت بدلة رجالية ونظارة طبية، وفتحت الأنوار، ثم جلست على المكتب، وأخرجت من درج صغير لفافة تبغٍ كوبي مع مذكرة صغيرة وبعض المراجع الطبية، ثم تنهدت وكأنها على وشك الظهور على المسرح وقالت بصوتٍ خشن:

- **«أهلًا فريدة.»**

ردت على نفسها:

- **«أهلًا دكتور راضي، في البداية...»**

قاطعتْ نفسها بالصوت الخشن:

- **«لا تقلقي، أنا أعرف كل شيءٍ عنكِ، وسيبقى الأمر سرًّا بيننا.»**

تنهدت من جديد:

- **«أتمنى ذلك.»**

واصلتْ:

- **«بالطبع أنت تعرفني، ولا أستبعد أن تكون توقعت أنني أُتابع مع طبيبٍ نفسيّ، لكن في الحقيقة هذه زيارتي الأولى، وبالتأكيد أتمنى أن تكون الأخيرة.»**

ردتْ:

- **«حسنًا، حدثيني عن حياتكِ بشكلٍ عام!»**

خلعت فريدة النظارة، تنهدت ثم قالت:

- **«حياتي صورة مزيفة يا سيدي، أستيقظ كل يوم صباحًا، أتابع ما يحدث في العالم الخارجي، أتحدث مع فريق الإعداد، إنهم لُطفاء، لكنهم يخشون الاقتراب مني أكثر مما ينبغي خوفًا من جعلهم مادة للسخرية، أستيقظ دون رغبة في القيام بأي شيء؛ لكنني أتذكر وحدتي، وأنّ ثمة مَن ينتظر لحظات سقوطي وانهياري، فأنهض وأبدأ في رحلة عمل من أجل أن لا أدع فرصة للشامتين.**

أستطيع مواجهة العالم بمفردي، لا أخشى أحدًا، هكذا يقولون عني (امرأة حديدية)، هذا القناع القوي الذي لا يهتز أبدًا، أحقق كل نجاح، لا أتهاون في أي خطأ مهما كان، أنا على الأرض لأُثبت للجميع أن بإمكان أي شخص النجاح والتقدم وحده.

النجاح وأنت وحدك سيعلمك أشياء هامة، أهمها أن الناس لن يقتربوا منك إلا عندما تكون مطمعًا لهم، لن تجد من يهتم لأمرك إلا إذا كان ينتظر

منك مساعدة أو معروف، الناس كالقردة، لا يجيدون إلا التسلل على أكتاف الآخرين، لم أغلق الأبواب أمام أي شخص حاول الاقتراب مني، لكن مَن لم يرَني وأنا في كآبتي وضعفي هل يستحق حقًّا أن يراني في توهجي وقوتي؟! بالطبع لا، لذلك كنت أتذكر تلك الليالي التي قضيتها وحدي، كنت أقول لنفسي:

لا تنسِ أبدًا الليالي التي قضيتِها وحدكِ، تلك الليالي التي كنتِ تبحثين فيها عن أي شخص يمكنه الاستماع لك في ضيقِك أو حتى التهوين من أثقالك ولو بالسخرية، لا تنسِ أبدًا الأماكن التي ذهبتِ إليها وحدكِ، لأنكِ لا تملكين من يرافقك الطريق، الموسيقى التي احتفظتِ بها لأنكِ لا تملكين مَن يسمعها معكِ، والروايات التي أعجبتكِ وأردتِ لو أن هناك من يتناقش معكِ عنها، لكنكِ لم تجدي، وإياكِ أن تنسي أنكِ تعثرتِ وحدكِ ولم تجدي مَن يُربت على كتفكِ أو يشدكِ من الوحل، لا تنسِ حالة الصمت والشماتة وأنتِ غارقة في خيباتكِ، وأولئك الذين جاهدوا في تحطيم أحلامكِ، لا تنسِ أنكِ خضتِ كل معاركِكِ مع الحياة وحدك، حاربتِ وحدكِ، وقاومتِ وحدكِ، وانتظرتِ وحدكِ، إياك أن تنسي- أنكِ قضيتِ كل لحظات انكساركِ وهزائمكِ وحدكِ؛ فإن وجدتِ مَن يشعركِ أن له فضلًا عليكِ أديري وجهكِ عنه، وقولي له من البداية كنتُ وحدي.»

من جديد ارتدت فريدة النظارة الطبية، ثم سألت نفسها وكأنها تحاور شخصًا آخر:

- **«وماذا عن ما يحدث خلف الكواليس؟»**

خلعتْ النظارة، ثم بدأت تتحرك في أركان الغرفة:

- **«من قال أنني لا زلتُ عالقة في وفاة فريد؟! لقد تجاوزتُ هذا الحادث منذ زمن، لم أتوقف، لم أبكِ، لم أسمح للفقدان بالتملك مني؛ سافرتُ إلى تركيا وتعلمتُ وتخرجتُ، ثم وإلى البلد التي طُردتُ منها عُدتُ أقوى، وأصبحتُ (فريدة المهدي) الإعلامية المعروفة؛ لكن من السخافة أن تعتبر النجاح تعويضًا عن فراغ تركه الموت بداخلك، فلا يحي الروح إلا الروح، والنجاح المنقوص أصعب من الفشل الكامل.**

يحسدني البعض على ما وصلت إليه في فترة تعتبر قصيرة، ويتمنى الآخر لو يصل لما وصلتُ إليه؛ لكن هل سأل أحدهم ولو للحظة عن التضحيات التي قمتُ بها في سبيل هذا المجد؟! لا أحد يعرف كم مرة فشلتُ لأنجح، وكم مرة غرقتُ لأنجو، لقد راودني اليأس مرارًا، وفقدت الشغف لفترة طويلة، الجميع يندهش لنجاحك، لكن لن تجد من يتساءل عن الآلام التي مرّت عليك، أو عن الفشل، إنهم مجرد مشاهدين، لا أحد منهم يعرف ما يحدث في الكواليس.

وسط الزحام، كنت أتمنى لو أجد شخصًا واحدًا لا ينبهر بنجاحي فقط، لا يعجبه من الأساس هذا النجاح، إنما يرى أن شخصيتي أجمل من كل هذا، شخص يحبني أنا، بفوضويتي واضطراباتي، يبقى معي في أسوأ حالاتي

النفسية؛ احتجتُ وسط كل هذا الزحام أن أجد ميدانًا واحدًا أستطيع الاحتماء به من قسوة الحياة، لكن كنت وفي نفس الوقت أخشى التعلق، وأرفض حتى مبدأ الاقتراب.»

بالصوت الخشن:

- «لذلك..؟!»

ردتْ:

- «هل شاهدت فيلم "cast way" عندما اضطر البطل لخلق من الأناناسة صديقة خيالية لتؤانس مأساته؟ هكذا فعلتُ، فمع تزاحم الحياة بدأتُ أصنع أنا الشخصيات الخيالية وأتعامل معها، مع فريد الذي كان معي دائمًا في عقلي؛ كنت أستيقظ مفزوعة من موتي الليلي الذي أراه كل يوم في منامي، فأبحث عن من أشتكي له، أبحث عن من يطمئنني، دون جدوى، فرغم كل الذين يعرفونني وأعرفهم لا أحد منهم يعرف حقيقتي، حقيقة مأساتي.

لا أنكر أن ما أراه في منامي يجعلني حقًا متوترة، مضطربة، فأنا لم أنَم منذ طفولتي يا دكتور، هل تفهم؟ أنا لم أنَم منذ طفولتي!

بالطبع لا يعقل، لكنها الحقيقة، استخدمتُ كل شيء في سبيل التعافي من تلك اللعنة، الدجالين، القساوسة، المشايخ، العلاج الروحاني، هل تفهم؟ لقد فعلتُ كل شيء لأجل التعافي.

قيل أنه ينبغي عليَّ إنهاك جسدي حتى أغدو في النوم سريعًا، فمارستُ كل أشكال الرياضة المُنهِكة، حتى وفي بعض الأحيان كنتُ لا أستطيع رفع قدماي عن الأرض، ومع ذلك وما أن أضع رأسي على الوسادة حتى تعاود

الكوابيس سيطرتها؛ اضطررت لشُرب الخمر، كنت أغيب حرفيًا عن الوعي، ومع ذلك لم ينتهِ شيء؛ كان لا مانع من الجنس، فهو ينهك الجسد بشكلٍ كبير، لكنني أحببتُ الاحتفاظ بعذريتي، غير أن مثل تلك المسائل أصبحت محل عقدة بالنسبة لي، العادات السرية اليومية قد تفي بالغرض، كنتُ بعد ساعة أو أكثر أعود لسريري منهكة، جسدي يرتعش وأعصابي شبه منعدمة، ورغم ذلك لم ينتهِ الأمر.

إنه موت صغير يا دكتور، موت صغير أراه كل يوم، فما أراه في منامي يا دكتور لا يُحتمل، أنا أعيش كذبة، لا شيء حولي مزيّف، صورة طبق الأصل؛ المزعج أن الأمر وصل حد تحقيق الأشياء التي أتخيلها، فيومًا كنت متأخرة على تصوير الحلقة واتصل بي المخرج، وسألني عن سبب التأخير، فاضطررتُ وقتها للكذب وأخبرته أن السيارة تعطلت في الطريق، وما إن أغلقت الهاتف حتى تعطلت بالفعل، ومن هنا بدأت مأساة جديدة في تحقيق ما يدور في عقلي الباطن.

والآن أنت تسأل لماذا جئتُ إليك من الأساس.!»

عاددت فريدة إلى المكتب، ارتدت النظارة، ثم أمسكت السيجارة الكوبي، وقالت بكبرياء الدكتور:

- **«لا لن أسألكِ، ولكنني أطلب منكِ تبديل تلك الأشياء الجامدة بأشخاصٍ حقيقيين تلمسينهم في حياتك، لا أطالبك أن تكوني اجتماعية، لكن عل الأقل واربي الباب أمام راغبي الاقتراب منكِ، اسمحي ولو لشخصٍ واحدٍ أن يضع بصمته الوردية في**

حياتكِ العتمة؛ صحيح أن التعامل مع الناس مؤذي ومرزي، لكن على الأقل بينهم من يحمل لكِ مشاعر صادقة. حاولي استبدال الأشخاص الخياليين بأشخاصٍ واقعيين، لربما هذا يؤثر على اضطرابات النوم وما يحدث لكِ، ويؤثر في قرارات عقلكِ الباطن.»

وقفت فريدة، خلعت النظارة الطبية، وبكبرياء مذيعة اعتادت أن تظهر قوية قالت:

- **«كنت بالفعل تريد أن تسألني عن سبب مجيئي إليك، لكن كبرياءك ومهنيتك الطبية رفضت الانسياق وراء توقعاتي الصحيحة، كنت تستعد لإخباري بأنني مصابة بالانفصام والانفصال عن الواقع ومزج شخصيات خيالية بالواقع مع اضطرابات قاسية في عقلي الباطن، لكنك أيضًا ترددت في هذا، لا تنسَ أنني قرأت في علم النفس ومتمكنة بقراءة لغة الجسد؛ على أيَّة حال أنا هنا لأُثبت لنفسي- أنني أكثر علمًا من أشهر وأمهر الأطباء النفسيين في مصر- كذب لسانك، لكن جسدك لم يكذب. بيننا لقاء آخر يا دكتور، إلى اللقاء.»**

عادت فريدة وجلست بجواري ثم واصلت:

ـ بعد هذا اللقاء يا سراج حاولتُ فتح الأبواب أمام راغبي اقتحام حياتي، حاولت على الأقل أن أخرج من عزلتي، بدأتُ بالاندماج بين الناس، التقرب من زملائي في الوسط الإعلامي، التفاعل مع المعجبين، الظهور في الأماكن العامة، كنتُ أحاول بشتَّى الطُرُق ملأ الفراغات التي أشعر بها، إسكات ضجيج عقلي بأصوات خارجية، كنتُ أُردد في نفسي ـ «أنا بخير»، وكم مرة رددتها خوفًا من ألَّا أكون كذلك.

في اقترابي من الناس لم أجد منهم إلا الكذب والخداع والنفاق، ومن بين كل الزحام الذي حولي تعرفتُ على فتاة كانت تعمل معي في القناة؛ في البداية كنت مترددة بعض الشيء، لكنني قاومتُ هذا التردد والخوف للاقتراب منها أكثر، كانت صديقة جيدة، فتظاهرتُ بالحب والاهتمام، كانت تنبهر بإنجازاتي مهما كانت تافهة، أرادت فقط أن تجعلني أشعر وكأنها تعويض عن كل ليالي الأسى والتعب والشقاء والخوف.

صارحتها بما أعاني منه، أنا التي لا أستطيع الوثوق بأي شخص وثقتُ بها؛ صحيح قدمتُ كل الحزن على وفاة فريد، لكن وفي داخلي كانت هناك مشاعر صادقة، وظننتُ أن هذه الفتاة تستحق هذه المشاعر، فبدأتُ بمساعدتها، أعطيت لها كل الدعم، حتى أنني وفي أغلب الأحيان كنتُ أُفضلها على نفسي، ولأنني ذات سمعة طيبة، ولأنني أستطيع بسهولة تقديم كل مقومات النجاح لأي شخص، بذلتُ كل ما في وسعي لنجاحها وتفوقها، وبالفعل حققتْ ما لم تكن تتوقعه وتتخيله، أصبحتْ إحدى أشهر المذيعات في الشرق الأوسط.

وفجأة، وبعد أن حققتْ كل شيء وأصبح النجاح بالنسبة لها أمرًا عاديًّا، وفي توهج نجاحها ومجدها، مررتُ بانتكاسة نفسية بلا سبب، أو دعني أكون صادقة معك، كنتُ أخشى رحيلها؛ فلطالما حذرني الجميع من الإفراط في الحب، وأن البعض لا يقدر قيمة ما تفعله، وقد كان.

تحدثتُ معها بصراحة، وقُلتُ أنني لا أشعر بتلك الراحة التي شعرتُ بها في بداية علاقتنا، ولا أجد الأمان الذي لطالما وفرته لي، الهدوء والدفء كذلك، لا أجد كل الأشياء التي كانت سببًا في اقترابي منها.

تحدثتُ معها عن كل شيء على أمل أن أجد تغييرًا ولو بسيطًا في تعاملها معي، لم أطلب الكثير منها، لم أطلب إلا أن تعود لطريقتها الأولى؛ إنه من المرعب أن يتغير معك شخص ولا تستطيع إعادته لحالته الأولى.

توقعتُ أن تتغير، أن تعود كما كانت، أن لا تنجرف أكثر في لعنة النجاح والشهرة، توقعتُ أن تشعر بالذنب، وربما بالندم، تفهم أنني قدمتُ كل شيء فقط لتبقى معي، كي لا تشعر أنها مجرد تابعة لي، أردتُ أن أقول لها بما قدمته: «أنا أحبكِ، وأريدكِ قوية ناجحة، فنجاحكِ يهمني أكثر مما يهمكِ»

وتوقعت أن تقول: «أنا مستعدة للتخلي عن كل هذا في سبيل بقائي معك».

وقفت فريدة، أمسكت هاتفها، ثم قالت بصوتٍ آخر:

- **«فريدة، أنتِ تطالبين دائمًا بالاهتمام، تطالبين أن أكون معكِ دائمًا طوال الوقت، دون اهتمام بحياتي الخاصة؛ أنا لستُ مسؤولة عن**

اضطراباتكِ النفسـية، ولسـتُ سـببًا فيهـا، أنا لسـتُ مجبرة على تحمل صمتكِ الطويل، لستُ مجبرة على البقاء معكِ لأنكِ تريـدين هـذا، لسـتُ معالجـة نفسـية لكِ؛ أنـتِ تحتـاجين لـزيارة طبيـبٍ نفسيّ.»

اتجهتْ فريدة إلى المرآة، ثم قالت:

- **«حياتها الخاصة! يا لسخرية القدر؛ تلك التي لم تكن لها حياة من قبـل، الآن تطـالبني باحـترام حياتهـا الخاصـة، الآن تعـايرني باضطراباتي النفسية، الآن تشتكي من وحدتي وعـزلتي وصمـتي، وتسخر من نجاحي وتستخف بي!»**

استدارتْ إليَّ قائلة:

ـ كدتُ أُجَن. ودون حجز أي موعدٍ اتجهت إلى الطبيب، واقتحمتُ مكتبه، وصرخت في وجهه:

- **«أخبرتني أن الناس ليسوا بهذا السوء، طالبتني أن أوارب الباب أمام راغبي اقتحام حياتي، طالبتني أن أتحلى بالجـرأة، طلبـتَ أن أستبدل الأشخاص الوهمية بأشخاصٍ حقيقيين، طلبـتَ مـني أن أترك فرصة لمن يلوّن حياتي العتمـة، عاهـدتني أنني سأشـفى مـن لعناتي ومأساتي؛ لكنك نسيت أن تخبرني -وكما أخبرتـك مسـبقًا- أن الناس كالقردة، لا يجيدون إلا التسلل على أكتاف الآخرين، لا يتذكرون لك أي معروف، وفي لحظة ما قد ينكرون كل ما قدمته**

لهم، بل أحيانا تجدهم يعاتبونك ويلومونك على تعبهم ومأساتهم، ينسون كل شيء وكأنك لم تقدم لهم الحياة يومًا.

إن البشر كائنات في غاية القذارة والدناوة، يفعلون كل شيء من أجل أهدافهم ومصالحهم الشخصية، وما إن يتملكون منك حتى ينهالوا عليك بالكلمات السامة الموجعة، تلك الكلمات التي ومهما حاولتَ تجاوزها تبقى عالقة هنا في رأسك، وما إن تتذكرها حتى تعود الآلام بوحشتها وقسوتها لتضرب قلبك.

نسيت أن تحذرني من أن البشر كائنات لا تجيد إلا التلوُّن والكذب، وارتداء قناع البراءة، وهم بداخلهم مجرد أشخاص ينتظرون كل فرصة ليلتهموك. نسيت أن تحذرني من أن لا أنخدع في المظهر، لا يغريني الاهتمام والحب في البداية. نسيت أن تحذرني من أن اليد التي تقدم لك الورد بإمكانها أن تزرع في قلبك الخنجر.

لقد طلبت مني تبديل الأشخاص الخياليين بأشخاص حقيقيين، مصادقة الناس بدلًا عن مصادقة الجماد، التحدث معهم بدلًا من التحدث مع السقف والجدران؛ لكنك نسيت أن تقول لي أن مثل تلك الأشياء لن تعايرنا يومًا، لن تفضحنا، لن تتنمَّر علينا.

سيدي الطبيب الأحمق، أنا ممتنة للموسيقى التي طالما أنقذتني من هواني ومأساتي، أنا ممتنة للروايات والكتب التي آنست وحدتي، ممتنة للسقف، للجدران، للوسادة، ومذكراتي الشخصية، لكل الأشياء التي لم تَمَل يومًا مني، لكل الأشياء التي لم تعايرني يومًا باضطراباتي ومأساتي، أنا ممتنة لأصدقائي الخياليين الذين لم يتحججوا يومًا بالغياب، الذين كلما

احتجتُ إليهم وجدتهم، أنا ممتنة للصمت الطويل، ممتنة للأشياء التي لا تنطق، لا توجع، لا تؤذي، ممتنة لعالمي الخاص، ولستُ مَدينة لأحد، امتناني لكل شيء، عدا البشر.»

خرجتُ من المكتب وأنا منهارة، كانت المرة الأولى التي أنهار فيها بعد وفاة فريد، ومن بعدها أحببتُ نفسي وأشفقتُ عليها أكثر، أقسمتُ أن لا أُوجعها، ولا أتسبب لها في أذى، أن لا أثق في أي شخص، وأن لا أسمح لأحدٍ بالاقتراب مني، ثم قررتُ العودة لعالمي، أن أكون دائمًا أنا، الإعلامية المعروفة (فريدة المهدي). وعن تلك الطفلة التي أخبئها بداخلي، فلا أحد يستحق أن يراها.

نظرتْ إليَّ مُتسائلة:

ـ والآن يا سراج، عن الذي يدور في رأسك: لماذا لم أنتحر إلى الآن؟!

لن أجيبك، فبعد كل هذه الأحداث التي مرت عليك لن تفِدك الإجابة، وكما أخبرتك في البداية أنني حقًّا لست متأكدة إن كنت أنا صاحبة الرسالة أم لا، فتحتَ تأثير الحزن والاحتياج يمكن لأي شخص كتابة وفعل وقول أي شيء، كما أخبرتك في البداية لن أطيل عليك، بإمكانك الرحيل الآن؛ لكن تأكد أنني أشعر بما تشعر، ولقد جاهدتُ لأساعدك لكنني فشلت.

وكأنها لا تراني، اتجهت فريدة إلى السرير، ثم غدت في نومٍ عميق.

شعرت بالحرج، فخرجتُ، وكعادتي محطم الآمال؛ لكن وفي نفسي- قررتُ أخيرًا عن أبتعد عن هذه اللعبة، فليَمُت مَن يَمُت، لم يعد الأمر هامًا بالنسبة لي، يكفي جدًا ما حدث.

عدتُ إلى غرفتي، إلى نقطة الصفر، وما أن فتحتُ هاتفي حتى وجدتُ اتصالًا من رقم دوليّ، على ما أظن كان الرقم من لندن.!

الفصل الأخير

«صفِّقوا أيُّها الأصدقاء، لقد انتهتْ الكوميديا»

لودفينج فان بيتهوفن

وقت رحيله.

الفصل الأخير

بعد مرور سنة..

المكان: مقابر الإسكندرية- الشاطبي.

لقد انتهت اللعبة يا عزيزتي، اللعبة التي لطالما أفجعتكِ تفاصيلها، وقتها لم تعاتبيني على مساعدتي لهم، لكنكِ كنتِ تحملين همَّ أن تسوّد نظرتي للحياة أكثر.

في العام الماضي ابتعدتُ عن سوما، وابتعدتُ عنهم جميعًا بعد لقائي الأخير مع فريدة؛ لكنني كنتُ أُتابعهم من بعيد، وعلى أتم استعداد لسماع خبر انتحار أي منهم.

سوما ودهب وهاجر وفريدة، مثلهم مثل كل هؤلاء الأبطال الذين تحمّلوا قسوة الحياة حتى الوقت المناسب، فما دام الموسيقار نائمًا فمِن حق كل عازف الامتناع عن العزف وقتما يريد، أنْ تَعِش مهزومًا أصعب من أن تموت شجاعًا.

لو كنتُ مكان سوما لحتمًا كان الخلاص هو قراري الوحيد، لكنها قررتْ أن تحيا بشعور الندم، قررتْ أن تعاقب نفسها بالحياة.

خلال العام الماضي كنت أذهب لحفلاتها، أتوارى بين الحضور خوفًا من أن تراني بينهم، كانت لا تزال شاردة في العزف، مجنونة وقاسية؛ أحيانًا أشعر أنها تبحث عن ابنها حتى بين أوتار القانون، تكون في كامل أناقتها لعل يحدث اللقاء المستحيل.

سوما التي قررتْ الاستسلام لغياب ابنها الأبدي، هذه المرأة التي لطالما شعرتُ بشعورٍ غريبٍ ناحيتها، كنتُ أرى في هذه المرأة شيئًا من شعور الابن تجاه أمه.

سوما ومن البداية لم تكن إلا ضحية لمجتمعٍ قاسٍ، سوما لم تكن إلا فتاة تبحث عن حريتها، عن التحرر من عادات وتقاليد سخيفة؛ للفن ضريبة، وقد كانت ضريبتها التضحية بأهلها، والموافقة على أن تكون في تعداد الموتى وهي حية ترزق، تبرأت هي من أهلها أو تبرأوا هم منها، الأزمة ليست هنا، فلقد تبرأتْ الحياة منها، وعندما تتبرأ منك الحياة فَمَن سيحتضنك؟!

سوما مجرد فتاة حالمة من الريف، لم تكن أحلامها باريسية، فلم تحلم بالفارس المغوار الذي سيحررها من قيود المجتمع، لم تحلم برجلٍ ثري يعوضها عن كل ليالي الحرمان التي عاشتها، أو رجل ضخم يحميها من تحرش أبيها وأخيها بها، لم تكن أمنياتها أكثر من أن لا تشعر بالوحدة؛ الوحدة يا عزيزتي، تلك التي تدفعنا لملأ حياتنا بالأشخاص الخطأ، الوحدة يا عزيزتي، تلك التي تجعلنا نتشبث بمن يقدم لنا الونس، حتى لو كان مصيره الشقاء والعذاب كما حدث معها.

أشفقت على سوما، وعلى شعور الوحدة الملازم لها، أشفقت على سوما حتى عندما تخلّت عن ابنها وانسحبت من مواجهة يوسف المهندس؛ إنها لمأساة يا عزيزتي أن تضطر للانسحاب وللتخلي عن حقك لأنك تعلم علم اليقين أنك لا تقدر حتى على مواجهة نفسك.

إن حقًا ما تشعر به سوما يدفعها للانتحار؛ شعور الوحدة، خذلانها من الشخص الوحيد الذي أحبته، مرضها الأبدي، ومرارة فقدان ابنها الوحيد؛ هي ليست قوية، وليست صلبة، هي في أدنى أدنى مراحل الضعف.

مثل سوما هم أولئك الذين صارحوا أنفسهم بضعفهم واستسلامهم، أولئك الضعفاء الذين عرفوا حقيقتهم، هُم مجرد شخصيات هشَّة، ضعيفة، مهما حاولتْ وحاربتْ تصبح الهزيمة ملازمة لهم، أصبحوا حتى لا يحاولون خوض حرب جديدة، حتى وإن انتصروا على العالم لن يشعروا بلذة انتصارهم، فأمام أنفسهم يشعرون دائمًا بالهزيمة والسَّحق؛ مثل أولئك الذين لا ينتظرون من الحياة إلا الموت هم أولئك الذين لا يملكون أي شيء لخسارته، فلقد خسروا أهم وأعظم شيء، خسروا أنفسهم، وخسارة النفس لا تعوض ولا تُبدل أبدًا.

آخر حفلة حضرتها لسوما كانت في "ساقية الصاوي"، وقتها كانت تعزف بشراسة، حتى وبعد انتهاء الأغنية أمسكت الميكروفون، وانخفضتْ الإضاءة، كان الجميع ينتظر ما ستقدمه فتاة القانون المتمردة، وكنت أظن مثلهم أنها وللمرة الأولى ستغني؛ لكنها تنهدت وبدأت تتفحص وجوه الجميع، ثم قالت:

- «الحياة طفلة تائهة، وجدت ضالتها في الظلم والافتراء، كونوا أنتم مصدر العدل والسلام في الأرض، لا توافقوا على الظلم، الثورة كابوس الطغاة، الحرية سجن الطغاة، الحق عدو الظالمين، لا تركعوا ولا تستسلموا.

الحياة لن تبتسم لك لأنك اخترت الصمت، الحياة لا يغريها إلا الأقوياء، اقسوا على الذين ينتظرون فرصة للانتقام منكم، ثم اطلبوا من الله المغفرة، لا تتخلوا عن أحبائكم، ولا تنسحبوا من معركة للفوز بهم، الندم لن يرحمكم ولن يشفع لكم.

أيها العالم التعيس الذي وجد ضالته في الموسيقى، لا تهربوا من الموسيقى، بل اجعلوها فتيلًا للحق وللعدل وللسلام، دافعوا عن ما تملكون بكل ما أوتيتم من قوة، دافعوا عن شرفكم، أحلامكم، أحبائكم، وطنكم، و... و... لا تكونوا مثلي؛ امرأة سئمت من نظرة مجتمعها لها فاضطرت للهروب، امرأة لم تستطع مواصلة حربها مع رجل ظالم مغتصب سرق ابنها مقابل الأمان والحرية، وقتل كل سبل حريتها ودفاعها ومقاومتها.

الحرية التي يكون ثمنها هي أحلامك ونفسك ليست سوى سجنًا أكبر، لا تكونوا مثلي أبدًا.

في هذه الليلة أنا عارية، في هذه الليلة أنا عارية وحزينة، ولا أريد سوى الصراخ.

اصرخوا وعبّروا عن أحزانكم ووحدتكم، اصرخوا، الصراخ يهدئ ضجيج الرأس، ويريح القلب، فالحياة لن تسمع لصمتك، لكنها لن تتحمل قسوة صراخك.

اصرخوا، لم يمت أحد بسبب الصراخ، الصمت فقط يقتل، اصرخوا!»

حالة من الصراخ سادت القاعة، اكتملت بموسيقى الفرقة الشهيرة "pink Floyd"[٣١] وأغنيتهم المعروفة Eclipse..

«..All that you touch

..And all that you see

..All that you taste

..All you feel

..And all that you love

..And all that you hate

..All you distrust

..All you save

..And all that you give

..And all that you deal

..And all that you buy

..Beg, borrow or steal

..And all you create

..And all you destroy

..And all that you do

..And all that you say

..And all that you eat

[٣١] Pink Floyd: كانت فرقة روك من كامبردج- إنجلترا، تعتبر من فرق الروك النادرة التي أمدّت بالكثير في المجال الفني والموسيقي سنوات الروك الزاهرة، وتتميز الفرقة بصوت الجيتار الكهربائي، وأصدرت الفرقة أول أغنية في مارس ١٩٦٧ تحت اسم "Arnold Layne"، واستمرت الفرقة بالتألق وأنجزت أغاني ساهمت بتغيير النظام التعليمي البريطاني.

..And everyone you meet
..And all that you slight
..And everyone you fight
..And all that is now
..And all that is gone
..And all that’s to come
..And everything under the sun is in tune
«.But the sun is eclipsed by the moon

انتهت الأغنية التي كانت سببًا في خروج طاقة مكبوتة بداخل كل الحضور ثم واصلت سوما:

- «كنت بخير، أقسم لم تكن لدي أي مشكلة مع العالم، هو لا يتقبلني، وأنا أرفضه، ونحن الاثنين نتقبل فكرة أننا لا نناسب بعضنا، كانت حياة مملة وسخيفة، لكنها خالية من آراء الناس.

الوحدة مزعجة، لكنها أكثر أمان من العالم الخارجي.

مر وقت طويل وأنا في عزلتي، أعيش بين عالم من الروايات والموسيقى والصور، لا مانع من الخروج وحدي ورؤية العالم الخارجي من نافذتي بعد منتصف الليل، كنت أعرف أنني مزاجية، سوداوية ولا أطاق، أؤذي الجميع، وصامتة طوال الوقت، لا أملك شيئًا يدفع أحدًا للبقاء معي، أعرف أن قيمتي لا تذكر عند العالم، وأعلم أن الحياة أكبر من أن تهتم لحزن امرأة مثلي؛ ثم يأتي ذاك الذي يقولون عنه **«سيظهر من عتمتك ضوء يعيد لك الحياة»**، قال أنه يحبني، وعلى استعداد لفعل أي شيء من أجلي، وعدني أن لا يتركني وحدي، أن لا يهزمني، رفضته مرتين، وفي لحظة

وقعت في غرامه، كانت البداية رائعة، لم يتخلى عني، كان يحارب العالم لأجلي، لم يشعرني يومًا بمساوئي، ظل معي حينما تخلى الجميع عني، لم أشعر بالوحدة معه، لم أشعر بالغربة، صار جزءًا أصيلًا من حياتي، جعلني أشعر بمدى أهميتي، على الأقل في حياته، كان يقول أنه اكتفى بي عن العالم، ولأنني انطوائية جعلته عالمي، أصبحت لا أتعامل مع أحد إلا هو، بادلته نفس الشعور والحب العميق، تخليت عن أفكاري الانتحارية، وعدتُ لأبتسم وأقبل على الحياة.

ثم..؟ شعر بالملل، فجأة اكتشف أنني مملة وسخيفة، اتهمني بالتعاسة، وأنني أتسبب له في حزن عميق، اكتشف أن مزاجيتي لا تطاق، عرف كل الأشياء التي أعرفها عن نفسي-، التي حاول إقناعي أنني لا أعاني منها في بداية علاقتنا، ثم رحل.

لا يؤلمني غيابه، فكل الذين أحببتهم رحلوا من قبل؛ يؤلمني فقط أنه الوحيد الذي وثقتُ به، يؤلمني أنني آمنت، أنني على الأقل لستُ سيّئة في وجوده، لو كان تركني من البداية في سوداويتي وكآبتي وحزني وأفكاري وتشتتي ومرضي، لو كان تركني وشأني من اللحظة الأولى ما حزنتُ أبدًا.

أن يحبك شخص ثم يرحل ليست مشكلة، فالمشكلة الكبرى أن يحبك شخص يجعلك تعيد أفكارك تجاه الحياة، يجعلك تؤمن بذاتك وتحبها، يدفعك للأمام، ويخبرك دومًا أنك شخصٌ رائع، ثم يرحل، هنا تكمن المشكلة.»

ضحكتْ بعد أن بدأ الصمت يسيطر على الحضور، والموسيقى الهادئة تواصل احتلال الأجواء، ثم واصلتْ:

- «لم تؤذِني الوحدة رغم وحشتها، فقد استطعتُ التأقلم عليها وتلوين سوداويتها بالموسيقى، بأبطال الروايات، أو حتى الاندماج في مشاهد الأفلام والمسلسلات.

تأذيتُ من الاكتئاب، لكنني كنت على الأقل أعرف كيف أُخفف من وطأته واضطراباته، الإدراك والوعي كذلك كانوا أشد اللعنات قسوة، ومع ذلك لم أتأذّى بشكل كبير، كل الضرر الذي حدث كنت أمتصه بداخلي، أتأذّى وأتألم، ثم أستيقظ وأقاوم وأنتصر، وهكذا إلى ما لا نهاية.

رحلتي مع الوحدة والاكتئاب والاضطرابات النفسية كانت قاسية ومخيبة للآمال، لكن أقسم لكم أن أشد أذى شعرتُ به هو ذاك الذي حدث في تعاملي مع الناس؛ للناس قدرة إبداعية على إثارة المشاكل، مبدعون في هَزِّ ثقتك بنفسك، تحطيم أحلامك، وتدمير استقرارك النفسي والذهني، الناس يتفنَّنون في خلق المتاعب لغيرهم، في إيذاء غيرهم حتى دون إبداء أي مبرر للأذى، والعلاقات العميقة أفسدتْ جزءًا كبيرًا مني؛ لقد آمنت أن العلاقات الاجتماعية لا تناسبني، لأنني أملك معايير مختلفة عن الناس.

أنا لا أكره أحدًا، حتى الذين تعمدوا إيذائي لا أكرههم، عالمي بسيط جدًا، عالمي خالٍ من البشر، فلقد استبدلتهم جميعًا بالموسيقى، بالكتب، بالأماكن الجديدة، والأفلام والمباريات؛ إن مشكلتي لا تكمن أبدًا مع الناس، حتى أعدائي لا يشغلون جزءًا كبيرًا من تفكيري، فأنا من الأساس أبحث

عن حياة سالمة هادئة، أنا أحب الحياة وحدي، أستطيع النجاح من غرفتي، أستطيع تحقيق كل أحلامي وحدي، الاكتئاب والوحدة لم يعطلا أي هدف رغبتُ في تحقيقه، فلقد كنت أنغمس في التعاسة ثم أعود لأحقق كل شيء يمكن تحقيقه، ثم أعود لتعاستي من جديد.

أنا مكتئبة وتعيسة وحزينة، ورأسي يكاد ينفجر من ضجيج الأفكار، لكنني على الأقل لا أتأذَّى من الناس، لا أتعامل معهم، أفاعي الاكتئاب والاضطرابات النفسية أذتني أشد أذى، لكن على الأقل كنت أنا؛ لكن تعاملي مع الناس هو ما أفسد الجزء الأكبر مني، جزء لن يعود أبدًا.»

لقد سيطرتْ الوحدة على سوما حتى أُصيبتْ بالمالنخوليا، والمالنخوليا يعني الاستسلام للحزن حتى السعادة، وهذا مبرر وسبب كافي لبقاء سوما على قيد الحياة، لأنها لا تملك شغفًا للموت أو للحياة من الأساس، لأنها لا تجد مبررًا كافيًا للموت، كما لا يوجد مبرر للحياة، هي أشبه بورقة في الفضاء تائهة، تتحرك وتندفع حسبما يريد الفراغ؛ فكان من المنطقي أن لا تنتحر سوما، فهي من الأساس لا تشعر حتى بالحياة.

لولا شعوركِ بالوحدة منذ لحظاتكِ الأولى في الحياة لما حدث كل هذا لكِ يا سوما.

أمَّا عن هذا الشاب الذي لطالما حدثتكِ عنه، ولطالما وجدتُ شيئًا في شخصيته يشبهني، ذاك الذي بدأ حياته بالانضمام للجماعات المتطرفة، حتى أقصى- الحرية، والإلحاد، والوقوع في غرام فتاة لربما كانت طوق النجاة بالنسبة له، ثم مأساة اغتيالها بين ذراعيه؛ ولأنه قوي بما يكفي واصل الحياة حتى اصطدم واقعه بشباب الأولتراس الذي لم يقضِ وقتًا طويلًا معهم حتى قررت الحياة الانتقام منه بنفس الطريقة، وبنفس القسوة، وربما أشد، عندما قُتِلَ معظم أصدقائه في مذبحة بور سعيد، حتى اتجه للقمار والحفلات المسائية؛ ذاك ابن الضابط المعروف عنه القسوة والحِدَّة، ذاك الذي كنتِ تحملين بداخلكِ تعاطفًا كبيرًا معه؛ فبعد كل هذه التجارب لم ينتحر، بل اتجه لطريقٍ آخر في الحياة، وهو الزُهد، الزهد في الحياة.

منذ لقائي به الذي حدثتكِ عنه لم أرَه ثانيةً إلا مرةً واحدة، في مسجد الحُسين، لقد أصبح شخصًا آخر لا يشبه هذا الذي عرفه الجميع، أصبح يقضي حياته مترددًا بين مسجد الحسين والسيدة زينب وشوارع المعز لدين الله الفاطمي، وكما يقولون أصبح "خادمًا لأهل البيت"، لا يتحدث مع أحد، ولا يتناقش مع أحد، أطلق لحيته، وتخلى عن الحديث مع البشر، فلم يعد يحادث إلا السماء.

تجتاحه أحيانًا نوبة غضب قاسية، فيقف أمام الخلق ويقول:

- «يا خلق، أحبّوا هونًا، يا خلق لا تتعلقوا إلا بمَن لا يرحل، بمَن لا يقدر الموت عليه، يا خلق لا ترجوا إلا من لا يخذلكم ولا يشمت بكم، يا خلق لا تتعلقوا، لا تترجوا، لا تحبوا، لا تتشبثوا إلا بمَن لا يرحل، لا يؤذي، لا يقدر الموت عليه؛ الله رافع السماوات ومالك

الأرض، أخبروا الله في كل مكان أننا نشتاق لرؤيته، عبّروا عن حبكم له بطريقتكم، لا تخجلوا، لا تخجلوا، صلوا في كل مكان، وفي أي مكان، صلوا بقلوبكم، صلوا بأرواحكم، بكلماتكم وأفعالكم، ابكوا لله، مَن يبكِ أمام الله لا يبكي أمام أحد، توسَّلوا إليه، وارجوه بالرحمة والمغفرة، الله يعرفكم، ويعرف الكثير جدًا عنكم».

لم ينتحر دهب يا عزيزتي، لكنه اختار الزهد؛ لا أحد يعرف الكثير عنه، لكنه صديق جيد للحيوانات والشحاذين والأطفال، لا أحد يعرف أين يسكن، أو أين يذهب حين يختفي، لا أحد يعرف إلا أنه "خادم الله، دهب".

يمكن لعربيد قضى حياته في الحانات أن يكون في أيامه الأخيرة أشد الناس تقوى، ويمكن أن يموت شيخ على طاولة قمار، لا أحد يعرف نهاية أي شخص؛ لقد كنت أقول لكِ دائمًا أن دهب هو أقربهم للانتحار، لأنه حقًا ظُلِمَ ودُهِسَ من القدر، ولا ذنب له في كل هذا، لكن الحالة التي عليها الآن لا تدل أبدًا على أن هذا الدرويش الذي يتجوَّل تاركًا متاع الحياة خلفه لا يزال شابًا في العقد الثالث من العمر!

سوف تلهوا بنا الحياة وتسخر، لكن كيف سخرت منه لهذا الحد؟!

مثل دهب هم حقًا التعساء في الأرض، هم الذين وجدوا أنفسهم في صراع أبدي مع مَن لا يستطيع أحد الوقوف أمامه، لا يستطيع أحد مجاراته، مع القدر.

الغربة التي شعر بها دهب هي التي دفعته للهاوية، الغربة هي أصعب ما يصيب الإنسان يا عزيزتي، لا أقصد غربة الأوطان، لكنني أقصد وأؤكد على غربة الوجدان؛ أن لا تجد شيئًا يشبهك، لا شيء يعجبك، لا شيء يحتويك ويفهمك، وكأنك هبطتَ على الأرض عن طريق خطأ ما أو بالصدفة البحتة؛ الغربة لا تؤذي سوى الشخص نفسه، لأنه وحده من يحاول التشبث بأي شخص لا يشعر بهذا الشعور اللعين، بأي فرصة لكي لا يشعر بالاختلاف عن غيره.

الغربة لا تفرق بين أن تعيش بين أصدقائك، أو مع ألد أعدائك، أنت من الأساس تشعر بها أينما ذهبت، كطفلٍ تائه يبحث عن أمه بين أشلاء جثث الأمهات، كذئبٍ ولد في غابة من النعام حتى نسى مخالبه وتعلم وضع رأسه في التراب؛ الغربة تعني أن تشعر أنك منبوذ دائمًا، فبالنسبة للناس أنت مختل أو مجنون، حتى إن لم يعترفوا لك بطريقة مباشرة، فقد تشعر وتلمس هذا بنظراتهم وطريقتهم؛ الغربة يعني أن تكون وسط حشود أنت لا تعرف لغتهم، لا تفهم عاداتهم، لا تجد نفسك بينهم، ومع ذلك تواصل الحياة خوفًا من أن يُفتضح أمرك، وهكذا كانت حياة دهب.

كل طريق اتخذه هذا الشاب كان من الأساس لشعور الدائم بالغربة، مثلي؛ فمنذ الصغر وأنا أتجنب التجمعات العائلية، كنت طفلًا يفضل الجلوس في غرفته وقضاء وقته مع ألعابه على أن يجلس مع الكبار من الرجال الذين لا يتحدثون إلا عن الأمور السياسية أو الاقتصادية، أو بين مجموعة من النساء لا يتحدثن إلا عن الطهي وأحداث المسلسلات التليفزيونية أو النميمة على غيرهن من النساء، حتى الجلوس مع أطفالهم الذين لا يتحدثون

إلا عن مغامراتهم المدرسية ومشاغباتهم الدائمة مع مدرسيهم كان أمرًا لا يروق لي؛ كنت أشعر بالغربة، وتمنيت أن أقضي حياتي في غرفتي بعيدًا كل البعد عن البشر، الشارع، المدرسة، الجامعة.

في كل مراحلي العمرية تغير كل شيء عدا شعوري بالغربة، الغربة عن الوطن، عن القوانين، عن الواقع والأقارب والأصدقاء، كنت كطفل تائه في غابة يسير وحده في الظلام، كنت غريبًا، غريبًا جدًا عن الجميع، وهذه لربما كانت لعنتي الأبدية.

لذلك تذكرتُ نفسي كثيرًا عندما التقيتُ بدهب، فهذا الشاب يذكرني بطفولتي، فقد كنتُ أُفكر بطريقة مختلفة عنهم، أتحدث بطريقة مختلفة، وأحب بطريقة مختلفة، أسمع موسيقى لا يسمعها أحد، أقرأ كتبًا وروايات لا يقرأها أحد، أحب ألوانًا تختلف عن ألوانهم، ولدي أحلام لا تقتصر على حياة مستقرة اجتماعيًا وماديًا، أحب الحياة بطريقة مختلفة عنهم؛ وضعوني في قفصٍ وأجبروني على الحياة، وما أنا إلا طائر لا يهوى إلا التحليق والطير في السماء حرًا طليقًا، ولا أفهم لماذا يضطهدونني دائمًا ويتهمونني بالخبث والسوداوية لكوني لا أشبههم، لكوني أختلف عنهم.

نصحني صديق أن أحافظ على اختلافي، أن لا أنخرط وسط القطيع، وكنت أظن أن الأمر بسيط، وأن الحياة وحدي ستسير على ما يرام؛ ودعت أشخاصًا كنت أظن أن الوداع لن يطولهم، فرَّق الموت بيني وبين أشخاص في وقت كنت أظن أن الموت لن يختارهم، تعثرت، قاومت، ونهضت وحدي بين النجاح والفشل، بين الفراق والبقاء، بين الأبيض والأسود كنت أنا الرمادي، لا أجد شيئًا يشبهني.

تقول أمي أن القمر وحيد، ومع ذلك هو الأجمل في الكون؛ لكن يا أمي هل تعرفين شيئًا عن الجانب المظلم منه؟

ما فائدة الياسمين إن كان في حقل الصبار؟ ما قيمة الشمس إن كنا نعيش في مدينة العمى؟ أي روعة ستشعر بها إن كنت تتحدث وسط مجموعة من الصُم؟ الكتابات التي أقرأها ما فائدتها إن كنت لا أستطيع مناقشتها مع شخص يهتم بها؟ الموسيقى التي أحبها ما روعتها إن لم يسمعها أحد معي؟ الأشياء التي أحبها كيف أحبها والجميع يرفضها؟ الأفكار التي أنوي تحقيقها ستظل سجينة رأسي ما دمت لم أجد شخصًا يحققها معي.

إن مأساتي تكمن في كوني شخص لا ينتمي لهذا العالم بأفكاره وأهدافه وطموحاته وعاداته وتقاليده؛ ربما أكون على خطأ، وربما أنا على صواب، المهم أنني لا أجد شخصًا يشبهني، لا أجد شخصًا لا ينتمي لهذا العالم، تمامًا كما لا أنتمي أنا له.

ولقد كان دهب مثلي ومثل أولئك الذين لا يشعرون بالانتماء حيال كل شيء، لا يشعرون إلا بالغربة، لا ينتمون للعالم؛ لقد عاش دهب لا ينتمي، وكانت هذه لعنته الأبدية.

بالطبع سؤالكِ الآن عن الساذجة هاجر؛ هذه الفتاة التي لطالما قسوتِ عليها بآرائكِ، وكنتُ مختلفًا معكِ تمامًا، وأنتِ كنتِ تكذبين، لأنكِ تعرفين أنها ليست ساذجة، لكنها طيبة جدًا، فأنتِ تعرفين قسوة أن يتعامل معكِ الجميع على أنكِ مُختلَّة أو مجنونة، على أنكِ مريضة، مريضة دائمًا.

الوسواس القهري يا عزيزتي مرض لا يفهمه إلا الذين عانوا منه، لقد كانت هاجر تبحث عن أصعب ما يمكن الوصول إليه، الطمأنينة يا صديقتي.

إن شعور الخوف يدفعنا أيضًا للهاوية، لأن هذا العالم مضطرب، دائمًا في حالة تأَهُّب وقلق، لا يمكن التعايش بشعور الخوف مع هذا العالم الخائف والمضطرب دائمًا.

الخوف هو ما دفعها للاقتراب من عائلتها، رغم يقينها أنهم لا يحبونها، وهو من أبعدها عنهم وجعلها تثق بصديقة كانت أشبَه بإبليس، التي سلَّمتها لشابٍ لم يفكر إلا في إرضاء شهواته، والبحث عن الطمأنينة هو ما جعلها تتشبث بشخصٍ مجهول وتثق به، حتى رحل عنها.

بحجة الخوف يمكن أن نطمئن حتى لو بنبات الصبار، أو الاحتماء خلف السهام السامة؛ هكذا عاشت هاجر وحيدة وخائفة.

تتذكرين يوم قالت:

- «أنا أعيش دائمًا في حالة تأهب وانتظار، أشعر أن العالم يتفق على أذيَّتي، لا أستطيع الوثوق في أي شخص، ولا أشعر بالأُلفة، وفي العلاقات أخشى أن أكون حملًا وثقلًا على الناس، فأنسحب فور شعوري بالحب؛ أخشى الإفراط في التشبث أو التعلق، ومِن ثَمَّ السقوط المدوِّي؛ أخشى السعي وراء أحلام ليست لي، وأخشى-

من حطامها؛ وأن يسيء الناس الظن بي لمجرد أنني أتصرف بتلقائية وعفوية، أخشى وأخاف العالم.

هل جربتَ شعور أنك دائمًا مهدد بالقتل، بكل طرق القتل الممكنة، ولا يمكنك التعبير عن وجهة نظرك، فلن يفهمها أحد، ولا يمكنك التعبير عن مشاعرك، فهي لا تصلح للاستخدام، وهذا يحبك لكن ومهما بدا رائعًا في البداية حتمًا سيرحل عنك، سيؤذي قلبك أشد أذى.

المستقبل غامض ومرعب، وهذا الحاضر لن يتغيّر إلا بمعجزة، لكن ماذا لو حدثت المعجزة ولم تتغير أنت؟!

مؤسف الماضي، إنه يطاردنا، ولن نتعافى منه أبدًا، سيطاردنا في كل مكان، لن نشفى من الاكتئاب، لن نتعافى من تلك الاضطرابات، سنموت وحدنا بهشاشتنا وضعفنا، لن نشفى أبدًا من الوسواس القهري.»

لكن الحياة هذه المرة قررت أن تبتسم لهاجر، فعرفتُ عن طريقة صفحاتها على مواقع التواصل الاجتماعي أنها تزوجت؛ لم ألتقِ بها، لكنني حضرت حفل زفافها على طارق، هذا الشاب الذي ابتعد عنها لفترة طويلة، نعم، لقد عاد ليبقى دائمًا للأبد، هكذا كتبت على صفحتها الشخصية:

«لم أتعافى من الوسواس بسبب الأدوية، لم أتعافى من الوسواس بالعزلة، تعافيت من الوسواس بسبب الحب؛ الحب وحده خير دواء وعلاج، الحب أسمى معاني وقيم الحياة الإنسانية، الحب يرد فينا الروح الغائبة، يعود بنا إلى طفولتنا وزهدنا، الحب يؤكد ويذكرنا أننا ما زلنا نحيا، ما زلنا بخير»

لم أستطع وصف الحالة التي كانت عليها هاجر في حفل زفافها، كانت تشبه الطفلة، تبتسم وترقص وتغني.

إنه القدر حين يبتسم لشخص لطالما عانده ورفضه، وكم تمنيتُ مشاركتها تلك اللحظة، على الأقل بإلقاء التحية عليها، لكنني خشيتُ أن أُعيد ذاكرتها لأيام كانت تقضيها معنا هروبًا من حقيقة خوفها.

كانت حقًّا كالطفلة، لم أرى على شفتيها ابتسامة بهذا الصدق إلا في تلك الليلة.

لم تنتحر هاجر، لقد رفض الموت زيارة هذه الفتاة بتلك الطريقة، وقدم لها القدر ما هو أجمل وأمتع، قدم لها الحب يا عزيزتي، والحب خير واقٍ وحامٍ من التعاسة والحزن، الحب هو المعنى المعاكس للخوف والرهبة، إنه الطمأنينة يا عزيزتي.

لقد عاد طارق الذي لا يختلف كثيرًا عنها، لأنه خائف ومضطرب من العالم، قررا أن يواجها خوفها واضطرابها بالحب، وما داما معًا لن يقدر الخوف عليهما.

هكذا كانت النهاية الأجمل في حياة هاجر، وهنا تكمن الفلسفة، شخصان مضطربان من العالم طمئنوا بعضهما فهزما العالم بحبهما.

الحب، ويا لروعة وشعور الحب.

آه يا عزيزتي لو تعلمين قسوة الأيام! إن الأيام تمر بطريقة مزعجة، تمر وهي تسلخ كل يوم جزءًا منا؛ هكذا ظلت الأيام تسلخ وتضع المواد الحارقة على الأماكن المجروحة في حياة فريدة، المذيعة المشهورة، التي كانت بدايتها من الأساس غامضة؛ ظهرت فجأة بطريقة غريبة، وحققت كل شيء ممكن، ثم وفي ذروة نجاحها اختفت فجأة أيضًا.

كنت أظن أنها صاحبة رسالة الانتحار بعد خبر اختفائها، وظللتُ مؤمنًا بهذا حتى يوم كنت في رحلة تدريب لمستشفى المعمورة للأمراض النفسية بمحافظة الإسكندرية، لم أُصدق عينيّ حينما رأيتها، كانت تجلس في ركنٍ بعيدٍ جدًا في حديقة المستشفى، فسألتُ أحد الأطباء عنها، فأكَّدَ لي أنها هي، فريدة المهدي، كانت هي الفتاة التي لطالما كانت مثالًا يقتدى به في القوة والثبات.

التقرير يؤكد إصابتها ببعض الاضطرابات والأمراض نفسية، أشهرها البارانويا، الانفصام، الانفصال عن الواقع، واضطراب حاد في الذاكرة.

اضطراب واحد من بين تلك الاضطرابات كفيل بإيداع أي شخص بمستشفى الأمراض النفسية، فما بالك بفتاة في منتصف العُمر تصاب بكل هذا؟!

حاولت يومها التحدث معها لعلها تتذكرني، اقتربتُ منها، كانت ترتدي سترة بيضاء قصيرة، أنيقة وجميلة، كما لو أنها على وشك الخروج إلى أضواء الشاشة، بطلاء الأظافر والشعر المفرود بطريقة رائعة، تجلس على الأرض، تضع سماعات الأذن، وفي يديها دُمية صغيرة متآكلة، تنظر للسماء وعلى ملامحها علامات الرضا.

- «فريدة، كيف حالك؟!»

لم تُعِر لوجودي اهتمامًا كعادتها، متعالية، ترى نفسها أفضل وأسمى البشر، التعالي حتى في الرد، أبسط الأشياء..

- «كيف حالي؟!»

بسخريتها المعتادة.

- «أنا بخير يا فريد، لقد حذرتك مرارًا مما أرى، إنه لا يُصدق ولا يستوعبه عقل يا أخي.

زوجة والدك امرأة ملعونة، هي السبب في كل هذا.

لا تقل أنني ضعيفة، أرجوك، أنت مِتَّ وتركتني، وأنا حققتُ كل ما أستطيع تحقيقه يا رجل، لكنك وبالتأكيد لا تعرف معنى أن تكون نسخة، صورة مزيفة.

لقد تحملتُ كثيرًا يا فريد، لقد استطعتُ تحقيق كل شيء، أختك ليست عاهرة، صحيح في أيامي الأخيرة أصبحت كالمرحاض العام، أي شخص يقذف شهوته على جسدي ثم يرحل، لكن لم يكن الجنس بدافع الجنس، إنما كان للهروب من الحقيقة، وكنتُ أُعاتب نفسي كثيرًا لضلالي، لكنني لم أجد حلًّا صدقني.

لقد آمنتُ أن شفائي من اضطرابات النوم مستحيلة، لقد آمنت أن الحياة لا تناسبني يا فريد، حاولت تقمُّص كل شخصية قابلتها في حياتي، لكن كانت لعنتي، لعنتي! ها ها..»

عانقت دُميتها:

- «اهدأي يا فريدة، اهدأي يا جميلتي..»

نظرتْ إليَّ وقتها نظرة متعجرفة، ثم صرخت:

- «مَن سمح لك بالدخول إلى هنا؟! لقد أخبرتُ الخدم أنني أريد الجلوس وحدي لبضع الوقت..

وحدي! أنا دائمًا وحدي، أنا دائمًا صورة خادعة، رغم الزحام هنا في قلبي فراغ يبتلعني.»

اعتدلت في جلستها:

- «أخي، سيداتي آنساتي سادتي، أهلًا بكم، أنا فريدة المهدي.

حلقتنا اليوم مختلفة، حلقتنا اليوم عن الحياة؛ يقال أننا جئنا إلى هنا عن طريق خدعة إبليس لحواء وآدم، ومن ثَمَّ كان العقاب والشقاء الأبدي، الأرض.

الملائكة قد تنبَّأوا بمصير الأرض بعد خلق آدم:

﴿قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ﴾[٣٢]

لقد كانت الحياة قبل خلق آدم مستقر للهدوء والسكينة، فتُرى لماذا تنبَّأوا الملائكة بتلك النبوءة عند خلق آدم؟

في الحقيقة أن البشر هم أخطر الكائنات الحية على الإطلاق، إنهم أخطر من الأفاعي، من العقارب، من الطيور الجارحة؛ نحن أشد الكائنات خطورة، فهنا يمكن للجميع ارتداء قناع التقوى وهو لا يفكر إلا في الرذيلة، وهنا يمكن لشخصٍ ما تمثيل الوفاء والصدق أمامك وهو يكنُّ لك كل شرور الدنيا، وهنا مهبط ومستقر الكذب والخداع، وهذه هي الحياة.

[٣٢] القرآن الكريم: سورة البقرة، منتصف الآية ٣٠.

ضيفتنا اليوم أصرت على الظهور وإرسال رسالة للعالم، ضيفتنا اليوم هي أنا، أنا فريدة المهدي.

لا أخفي سرًّا أنا أكره أبي وأمي وزوجة أبي والموت والناس، والإنسان بشكلٍ عام يكره الجميع.

جئتُ اليوم لأقول لكم شيئًا في غاية الخطورة، لقد استطاعت زوجة أبي تحطيم وقطع أجنحة حياتي مبكرًا، الأمر يبدو تافهًا للبعض، لكن ثمة أشياء قد تصبح قاسية للبعض الآخر، لكنني كنتُ أقوى منها، حتى عندما غرق أخي لم أستسلم؛ لقد حققتُ كل شيء ممكن، اعتليت أعلى المناصب، واستطعت الفوز في كل المعارك التي خضتها وحدي؛ لكنني لم أنسَ أنّ كل تلك الخطوات كانت بدافع الانتقام يا أعزائي، كنت نسخة منهم، بينما كان عقلي يفكر دائمًا في قتلهم وشرب دمائهم.

إن الأوساط الفنية والأدبية والإعلامية ما هي إلا ستار تختبئ النخبة خلفه لتخفي جهلها وتخلفها وانتهازيتها، إن تلك الأوساط لا تسعى إلا للتمكن أكثر من الأرض؛ لقد عاشرتُ الجميع، ووجدت مُردِدِي كلمات الله هم أكثر الناس نجاسة وخِسَّة، ومُردِدِي الحديث عن الشرف هم أكثرهم عُهرًا، والذين يتحدثون عن الحرية لا يعرفون عنها إلا الجنس والانحلال، لقد عاشرتُ الكثير والكثير، واكتشفت أن كل تلك الأوساط تخب بداخلها عكس ما تظهر.

بالمال يمكنك شراء كل شيء، حتى أحلام وأفكار الناس، وبالشهرة يمكنك الفوز بكل شيء، هنا يصنعون الأصنام ويسجدون لها، ثم يتهمون من يتهمون مَن يخرج عن القطيع بالكُفر.

نحن في زمن المسخ والهراء، نحن في زمن العهر والدعارة، لقد اختفت القيم والمبادئ ومكارم الأخلاق، النفاق يا أعزائي، نحن في زمن النفاق والكذب، فمِن أجل استمرار الحياة لا بد أن تكون منافقًا ومخادعًا، لا بد أن تكون كإخوة يوسف، احمل كل الحقد والغل لتنجُ، لتصبح أنت المميز والفريد، فلن تنجو أبدًا ما دمت صريحًا أو طيب القلب، لن تنجو أبدًا من مكائد البشر.

لا تؤمنوا بوردية الحياة، هنا كل شيء رماديّ، كئيب وباهت وحزين، انظروا للعالم من الأعلى، انظروا للناس، إنهم أشبه بالزومبي، لا شيء يثيرهم، لا شيء يعنيهم، متعبون، منهكون كما لو أنهم تخطوا أعمارهم بألف عام!

كل هذه الكلمات غير المنظمة وغير المرتبة لم تولد من تلقاء نفسها، أنتم تعرفون أنني أستطيع التحدث بشكلٍ أفضل، لكن كيف تكون مهندمًا في عالم فوضوي، كيف تكون سويًّا في عالمٍ مُختل؟!

أنا أكره فلسفة الحياة، وأرى أن ما يحدث ما هو إلا دراما تشويقية. لماذا خلق الله الموت؟ إن الموت يفكر بأنانية، يفترس صيده ثم يرحل بهدوء، تاركًا خلفه مزيدًا من الشقاء والتعب والآلام! فاصل ونواصل..»

وقفتْ فريدة، ثم نظرت إلى السماء وصرخت:

- «هيًّا تحدث، لماذا كل هذا الصمت؟ ما الحكمة من الصمت الطويل؟ لقد تعذبتُ وتألمتُ بما يكفي، وأنت لم تنقذني، لم تنتشلني من الوحل، أعِد لي أخي وأُقسم لن أعصيك أبدًا!

حسنًا، اعفني من لعنتي ولن أعصيك أبدًا!
حسنًا، دع عقلي يتوقف قليلًا ولن أعصيك أبدًا!
حسنًا، أعطني مبررًا واحدًا لكل الأشياء التي حدثت معي ولن أعصيك أبدًا، لن أعصيك أبدًا، لن أعصيك أبدًا..»

اقتربتْ مني، ثم أمسكت بي من رقبتي:

- «سراج، إنني أراهم حولي، إنهم يحاولون الفتك بي، أنقذني، أنقذني يا سراج، إنهم يقتربون مني، سراج أنقذني، إنهم يبتسمون بخبث، يحملون في أيديهم السكاكين، المشارط، الصواعق الكهربائية، سراج أبعدهم، أبعد هذا الرجل الشرير، لا تصدق ابتسامته الطيبة، إنه يخفي أنيابًا خلف هذه الابتسامة!

سراج أنقذني وأبعدهم عني، سيعذبونني، سيجلدونني، سيسلخون لحمي!

لقد حققت كل شيء، وتجاوزت كل شيء، لِمَا لم أتعافى يا سراج؟!

سراج أبعدهم عني، أبعدهم عني، سيعذبونني ولن يصدق أحد ما أرى، لن يفهم أحد أن الأفكار تتحد لتعذبني!

سراج أنقذني، لقد قتلوا فريد، لقد قتلوا مَن كان يحميني منهم، يا سراج أنا مُتعبة ومنهكة، تعالى وأنقذني..»

دفعتني بعيدًا عنها، ثم ركضت وهي تغني كالأطفال:

- **«تاه وسط الزحام.. فكر في أبعد مكان ينسي فيه اللي راح واللي صار وكان..**
ورا موج وبحر وشمس و ليل.. أبعد غابة وأبعد سيل..
ينسى الماضي ويفضل لحنه الهادي.. يرجع زمان من أبعد مكان..
تاه وسط البيوت والذكرى مش بتموت.. فاكر إنه الحل يهرب وينسى الهم..
ورا موج وبحر وشمس وليل.. أبعد غابة وأبعد سيل..
ينسى الماضي ويفضل لحنه الهادي.. يرجع زمان من أبعد مكان..»

لم أحاول اللحاق بها، كنت أعرف أنها المرة الأخيرة التي أراها فيها، وبالنسبة لي كانت تلك النهاية هي الأكثر صدقًا ومنطقية لفريدة؛ ففي طفولتها ولدت بجرحٍ عظيم أثَّر على حياتها فيما بعد، من الطبيعي أن تكون مستشفى الأمراض العقلية والنفسية هو نهاية الإدراك والوعي في زمن السطحية والجهل.

الانفصام ما هو إلا نتيجة لفهم الذات، وللتعامل معها من نظرة أخرى، الانفصام -وبعيدًا عن كل التعريفات والمصطلحات النفسية- ما هو إلا محاولة لإيجاد طريقة أخرى للتعامل مع الحياة، لَرُبما للتأكيد للذات أن مسألة اختلافها مع الحياة هي مسألة عامة، ليست شخصية كما ندَّعي.

أما خلق شخصيات وهمية والتعامل الجِدِّي معها ما هو إلا تعويضًا عن فراغات لم يستطع الناس ملئها، أو ربما لكسب شعور الأمان والثقة المفقودة في التعامل مع الناس، ولا أستبعد أن تكون الإصابة بهذا الاضطراب نتيجة لشعور الغربة والوحدة معًا.

لم أستطع تفسير ما حدث لفريدة يا عزيزتي، لم أستطع وصف وفهم ما تعانيه، كنتُ أشعر بالعجز أمام اضطراباتها، فأحيانًا نشعر بالعجز أمام أحبائنا، لكننا نشعر بهم، لكن هذا لا يكفي خصوصًا إن كنا لا نستطيع التعبير عن شعورنا بهم بشكلٍ صحيح.

على أي حال لم تنتحر فريدة أيضًا، بل كان مصيرها أصعب من الانتحار؛ هي تتهاوى بين الوعي والجنون، بين الإدراك و اللا إدراك، بين الواقع والخيال، ممزقة هي وتائهة، وستبقى هكذا للأبد.

انتهت اللعبة، انتهى كل شيء، هكذا ظننتُ يا عزيزتي.

كنت أسعى وسط كل هذا للحفاظ على علاقتي بكِ بعد اتصالكِ بي من لندن ليلة لقائي الأخير بفريدة قبل عام؛ لم أُصدق وقتها أنكِ تتصلين بي يا مريم، لم أُصدق كلماتكِ عندما أخبرتِني باشتياقكِ لي، لم أُصدق أنكِ تطلبين مغفرتي ومسامحتي لقسوة غيابك، لم أُصدق أنكِ لا زلتِ تتذكرينني يا مريم.

كان أمر عودتنا مستحيل، كان كل شيء مستحيل يا مريم، لم أُصدق بعد كل هذا تعودين وتطلبين أن أغفر لكِ غيابكِ، وأنا لا أملك إلا أن أغفر لكِ حتى التعب والوجع، لا أملك إلا أن أغفر لكِ كل شيء، لأنكِ كنتِ أعظم من الحزن، أعظم وأبسط حتى من أن أُلقي اللوم عليكِ في أي مكروه حدث بعد غيابك.

لم أعاتبكِ على كل هذا الغياب، لكنني عاتبتكِ عندما طلبتِ أن نكون أصدقاء؛ فكيف نكون أصدقاء يا مريم وأنا الذي لم أعشق سواكِ؟! كيف نكون أصدقاء يا مريم وأنا الذي جعلتك في قلبي ملكتي وأميرتي؟!

إنكِ لا تعرفين كم أحببتكِ وكم تمنيت لو أن الحياة توقفت فقط بين ذراعيكِ، كنتِ دائمًا أنتِ الأمان والمستقر والوطن يا مريم، كنتِ أنتِ ملجأي من العالم!

وافقتكِ على طلبكِ كي لا أفقدكِ من جديد، وافقتكِ على أن نكون أصدقاء رغمًا عن قلبي الذي كان يتعذب وهو يسمع صوتكِ ولا يستطيع معانقته بكلمات الحب.

سألتكِ وقتها عن سبب استقرارِكِ في لندن، كان صوتك يخفي شيئًا ما، طريقتكِ في التعبير عن مشاعركِ كانت وكأنها تتسوّل الحب، وليس هذا من عاداتكِ، لقد اعتدتُ على دلالكِ؛ لكنني شعرتُ أنكِ محطمة أكثر مما ينبغِ.

كنتِ تقولين أنكِ هناك في لندن من أجل التسوق، وكنتُ أسمع أصواتًا غريبة حولك، وكأنكِ كنتِ تتحدثين معي من داخل غرفة العناية المركزة، ولطالما كذبتِ وسخرتِ من ظنوني وأفكاري؛ أحيانا كنتِ تتحدثين معي بصوتٍ خافتٍ متعب، وكنتُ أسألكِ عما يحدث، فتقولين أنكِ مُتعبة من التسوّق فقط، لكنني لم أرتَح لطريقتكِ يا مريم، لم يطمئن قلبي خصوصًا بعدما رفضتِ إرسال صور خاصة بكِ.

كانت الهدايا التي ترسلينها لي غريبة؛ ألعاب طفولتكِ، ملابسكِ، أدواتكِ المدرسية، ولم أفهم كل هذا؛ حتى جاءت فترة انقطع الوصل بيننا بلا سبب، مَرَّ أسبوع كامل دون أي اتصال منكِ، وكان عليَّ وقتها احترام شروطكِ التي كانت أهمها أن لا أتصل بكِ أو أدخل صفحتكِ الشخصية على فيسبوك، لكن كان القلق يقتلني عليكِ.

حتى يوم قررت التمرد على شروطكِ، لأتفاجأ بمنشورات النعي!

عام كامل يا مريم تحاربين السرطان وأنا آخر مَن يعلم! عام كامل لم يخطر ببالي متابعة صفحتكِ الشخصية على فيسبوك، عام كامل تجاهدين لتكوني بخير أمامي، بينما السرطان يفتك بكِ، عام كامل ترسلين الهدايا الغريبة لتبقي عالقة في ذاكرتي للأبد!

ما إن عرفتُ حتى اتجهتُ فورًا إلى الإسكندرية، وتفاجأتُ بوجود أبي، وبدا الأمر مَزحَة!

تساءلتُ حينها ما علاقته بكِ؟ فما أن رآني حتى اختفى، وكأنه رأى الموت يا مريم.

ذهبتُ لأمي وتوسلتُ لها لأعرف ما علاقة أبي بكِ، وما سمعته كان لا يصدق؛ هل كنتِ حقًا تعرفين أن زواجنا مستحيل؟! نعم كنتِ تعرفين يا مريم إن زواجنا مستحيل، لأنكِ وببساطة "مريم يوسف عدلي المهندس" رجل الأعمال المسيحيّ، لأنكِ وببساطة الطفلة الصغيرة ذات الخمس سنوات التي كانت بصحبة السيدة الجميلة التي تحدثت إلى سوما قبل ثلاثة وعشرين عامًا في فيلا يوسف المهندس، ولأنني يا مريم ابن الغفير الذي وما إن عدتِ من كندا حتى اكتشفتِ أنه رحل، لأنني ابن سوما يا مريم، المرأة التي اغتصبها والدكِ ويسرق ابنها، لأنني أخوكِ الذي أودعه أبيكِ لدى الغفير وزوجته، والذي غيّر ديانته بعدما استطاع الأطباء إنقاذ حياته من الموت بداء الإيدز، لأنني أخوكِ الذي عاش حياته باسمٍ مزيف وبديانة غير ديانته الأصلية، حتى أهله لم يكونوا سوى فقراء، وافقوا على رعايته هروبًا من الفقر والمذلَّة.

كنتِ تعرفين كل هذا، لذا رفضتِ أن لا نكون سوى أصدقاء!

يومها عدتُ إلى القاهرة؛ هذه ليست مدينتي ، هذه ليست مدينتي، هؤلاء ليسوا أصدقائي، هذا ليس عالمي..

كانت صدمتي كبيرة؛ هل أبحث عن سوما وأعانقها؟!

تلك المرأة التي لطالما شعرتُ نحوها بمشاعر الابن تجاه أمه، كانت أمي! كانت بين ذراعي يا مريم تبحث عني بينما كنت أمامها!

لم أترك مكانًا إلا ذهبتُ له بحثًا عنها، لم أترك حفلة إلا ذهبتُ وفتَّشتُ عنها، حتى عرفتُ أنها هجَرَت مصر؛ كيف استطاعت فعل هذا؟!

عدتُ إلى الإسكندرية لأكتشف أن يوسف المهندس وأملاكه في سويسرا، ولا أحد له علاقة بهذا الشخص في مصر.

رواية ما حدث بعد وفاتكِ كان رواية أخرى يا مريم، واكتملتْ منذ خمسة أيام؛ كانت عقارب الساعة تشير للثالثة فجرًا، سمعتُ صوتًا قويًّا لمذياعٍ قديم، كانت أم كلثوم تقول:

«ربما تجمعنا أقدارنا بعدما عَزَّ اللقاء»

لم يكن الصوت صادرًا من منزل يوستانيا، بل كان من الأعلى، من سطح العقار، فتابعت المشهد من بعيد..

كانت يوستانيا العجوز، ترتدي فستانًا أبيض قصير، حافية القدمين، تتمايل على ألحان رياض السنباطي، تغني وهي ترقص كما لو أنها فتاة في العشرينات عالقة بقصة حب جديدة، ترقص كراقصات الباليه، تتحرك في المكان بخفة ودلال، أشبه بفتيات عروض دوري الـ NBA الأمريكي.

من روعة طريقتها في الرقص والاندماج حاولتُ أن لا أظهر أمامها فأفسد عالمها الذي صنعته، لكنها اقتربتْ من السور، وأم كلثوم تكرر بصوتها القوي **«ربما تجمعنا أقدارنا..»** وتدندن معها وهي حافية القدمين على السور بين الحياة والموت..

«ربما تجمعنا أقدارنا..»

تصرخ يوستانيا من فرط الاندماج:

- **«ربما تجمعنا أقدارنا..»**

الشمس تبدأ في مداعبة السماء بطيفها الأول، نسمة هواء تنعش صدرها وتُهدئ من توتري وهي ترقص على السور الهش، نسمة هواء أخرى والعجوز تصرخ:

- **«ما بأيدينا خلقنا تعساء»**

تردد بصوت قوي، وتتمايل بين السقوط للأمام حيث الموت، وللخلف حيث الحياة، وتردد من جديد مع أم كلثوم:

- **«ما بأيدينا خلقنا تعساء»**

الشمس تبدأ بالسيطرة أكثر، والسيجارة في يدها حان وقت إشعالها للاحتفال بهذا الهدوء، فالرقص يعيد العجائز إلى شبابهم، الرقص والغناء اعتذار من نوع آخر عن قسوة الحياة..

- **«ما بأيدينا خلقنا تعساء»**

تتمايل للخلف، تضحك، تقترب للأمام قائلة:

- **«المشهد من هنا في غاية الروعة يا خالد»**

الهواء يشتد، وهي تتمايل مع الهواء وكأنها لا تدرك أنها بين الحياة والموت!

لثوانٍ وقفتُ مذهولًا، لثوانٍ فقدتُ القدرة على النطق..
فالعجوز قد سقطت من الطابق السابع!
العجوز قد ارتطمتْ بالأرض من بعيد، بعيدٍ جدًا!
عن قصد أو عن غير قصد، لا أعلم، لكن من طريقتها كانت وكأنها تتعمد السقوط، من طريقتها كانت تداعب الموت والحياة في لا مبالاة.

مر هذا اليوم أثقل من صخر موضوع على صدري، التحقيقات والأدلة كلها أشياء لم تفِدني، فليس لها أقارب هنا، وأغلب الظن أن لا أحد يعرفها أو يتذكرها في روما، فلقد هاجرت منذ زمنٍ بعيد.

يوستانيا التي جاءت هنا مع زوجها، والذي كان بمثابة الوطن والأهل لها، لم تتحمل غيابه أكثر من ذلك حتى رحلت لتلحق به.

لطالما أوصتني بالاعتناء بمنزلها، فدخلتُ المنزل ليلة أمس، وللمرة الأولى وحدي، ولا جديد، كل شيء في مكانه، كل شيء منظم ورائع؛ لكن أهم ما في المكان ليس حاضرًا ،أهم ما يكمل هذا الجمال ناقص.

غياب روح يوستانيا جعل المكان كئيب وباهت، غياب ضحكتها وهدوئها جعل الأشياء الجامدة تعلن حالة حداد.

تجولت في أرجاء المنزل، المكتبة، السرير، المطبخ، الجرامافون هنا، وورقة مطويَّة مُدوَّن عليها بخطٍ عريض **«إلى ابن قلبي: سراج سقراط»**

تصلبتُ في مكاني، ثم فتحتها:

«عزيزي سراج، الأشياء ليست كما تبدو، نحن في عالم اصطناعي، افتراضي، أشبه بعالم الإنترنت، لا أحد يعرف نوايا الغير، وكل منَّا يرتدي قناعًا عكس شخصيته الحقيقية، وهذا مُفجع، هذا أشد فزعًا من مقابلة مصاصي الدماء ومصارعتهم.

الحياة رواية سخيفة، لولا الحب لما تحملناها، الجنة كذلك، فلقد خلق الله حواء لتؤانس وحشة آدم في النعيم.

إن العالم يجبرك ويدفعك إلى أن لا تكون أنت دائمًا، وهذه أشد المعارك التي سوف تواجهها في حياتك، فأرجوك لا تكن إلا أنت بتلقائيتك وعفويتك.

لن أطيل عليك كثيرًا، لكن حاول تقبل الحقيقة؛ إنَّ صاحب رسالة الانتحار -ومن كلماته- لم يكن شخصًا يعاني من الانهزامية أو الوحدة مثلما كانت تعاني سوما، ولم يكن شخصًا يعاني من الغربة واللا مبالاة وعقدة الفقدان مثلما كان يعاني دهب، وليست هاجر رغم وسواسها القهري وفقدانها للثقة والشغف والطمأنينة، وليست فريدة التي كنتُ أعرف منذ اللحظة الأولى أنها تعاني من الانفصام والبارانويا وخلق أشخاص افتراضيين.

كل هؤلاء تعساء ويعانون من اضطرابات نفسية، لكن كل هؤلاء لديهم ألف فرصة للحياة، فهم يعترفون بمرضهم ويعرفونه جيدًا؛ قلت لك مسبقًا الكارثة ليست في عدد المرضى النفسيين داخل المستشفيات والمصحات النفسية، الكارثة في الذين لا يدركون مرضهم ولا يعرفونه، كما قال أحدهم "مصر أكبر مستشفى للمرضى النفسيين في العالم".

كنت أعرف أن صاحب الرسالة ليس منهم، فما داموا قادرين على الحديث فهم أبعد خطوتين عن الانتحار؛ أقرب شخص للانتحار كان أكثرهم صمتًا وغموضًا، صاحب الرسالة هو الوحيد الذي كان يتحدث بحياء عن مأساته، وإن أكثر الناس تجنبًا للحديث عن أوجاعهم هم أكثرهم ألمًا ومشقة عن غيرهم.

أنت لا تتذكر حديثك الأخير معي يوم عودتك من الإسكندرية، بعد أن التقيت بمريم صدفة بعد رحلة بحث طويلة، يومها قلت أنك تشعر أن الفراغ والتفكير سيقتلك، وكنت مخمورًا لا تستوعب الكلمات التي تتفوَّه بها، لكنك كنت صادقًا جدًا، فتركتك على مكتبي بعدما فتحت لك الحاسوب، وجعلتك تكتب كل ما في خاطرك، وما إن عدتُ إليك حتى استأذنت أنت ونسيت أن تحذف الملف الذي كتبت فيه تلك الرسالة.

فكرتُ مرارًا كيف أقتل هذا الفراغ الذي تشعر به، لم تكن نيتي سيئة، أردتُ فقط أن أشغل رأسك الصغير في التفكير بعيدًا عن الموت، وكنت أعرف أن أصدقائك تعساء ويعانون مثلك، لذلك طبعت تلك الرسالة، وانتظرت الفرصة المناسبة لعرضها عليك لعلك تتذكر أنك صاحبها، لكنك لم تسألني حتى عنها.

انتظرت الفرصة المناسبة لقتل الفراغ بداخلك، وحدث سريعًا هذا بعد أن نسيت ليلة الحفلة المشؤومة أن تغلق الباب، فانتهزت الفرصة وتركت الورقة أسفل الطاولة لتبدأ اللعبة، وحدث أكثر مما توقعت.

لقد رأيتَ بنفسك أن في الحياة مَن يعانون أكثر منك، ومع ذلك لم ينتحروا، وهنا كانت فلسفتي في التعامل معك، أن أجعلك ترى ما هو أكثر تعاسة وحزنًا منك، أن أجعلك ترى ما هو أكثر سوداوية وتعاسة منك، لعلك تدرك أنك لست أكثر الناس تعاسة وكآبة.

صاحب الرسالة يا سراج شخص لا وجود له من الأساس، صاحب الرسالة هو الفراغ والحزن يا بني.

الحياة مشقة، لكن تذكر دائمًا أن النهاية هي نقطة بداية جديدة، تذكر أن الفراغ هو عدو الإنسان الأول، تذكر أنك وما دمت حيًا فأنت قادر على تجاوز ومواجهة الحياة، أنت لست نسخة منهم، فلا تكن شخصًا آخرًا لا يشبهك.

لا يهم عدد الذين في حياتك، الأهم مَن منهم يمكنك التحدث والبكاء والضحك والجنون معه دون أي تكاليف أو اعتبارات، لا يهم ما حققته في حياتك، أو ما يبهر

الناس؛ الأهم ما حققته لتشعر أنت بالرضاء عن نفسك، فأنت لست مطالب بإرضاء العالم، المهم أن ترضي نفسك، ولست مُطالب بإسعاد العالم، لكنك مُطالب بإسعاد نفسك.

افهمني، هذا العالم لا يستحق التعامل معه بجدية، هذا العالم لا يستحق إلا أن تحب نفسك وتصادقها حتى تجد من يحبك أكثر من نفسك ويتعامل معك كما تريد أنت لا كما يريد هو؛ الحب يعني أن تكون طبيعيًا، أي تكاليف في الحب تُسقط حرمته وتُفقده لذته.

وإياك والاقتراب من الموت، لأنه حتمًا سيقترب منك، المهم أن يقترب منك في الوقت الذي تشعر في بالرضاء عن نفسك.

ارقص، دندن، اضحك، وابكِ؛ إياك ودفن مشاعرك ورغبتك، إياك وكتمان ما تشعر به، اسخر من العالم، اسخر من العالم، فالعالم لا يستحق كل هذه الجدية في التعامل معه، العالم مسرح للتافهين والسطحيين، لا تكن فردًا منهم، لكن لا تغادر، بل قف واسخر منهم.

أشعر أن لحظات حياتي قد أوشكت على النهاية، لذلك أردتُ أن أقول لك أنني أحبك، أحبك جدًا يا بني.»

تصلبتُ، بكيتُ كحالة من الحزن مع ابتسامة حالة من الفرح.

مشاعر متضاربة كنتُ أشعر بها، الفقدان، الآلام، الحب، الكُرْه، الطمأنينة، الخوف، الحياة، والموت، اللعبة..

عن غير قصد ضغطتُ زر الجرامافون:

«سيداتي، آنساتي، سادَتي..

وها قد أُسدِلَ الستار بعدما ختمتها أم كلثوم بالجملة الشهيرة **"ما بأيدينا خلقنا تعساء"**.

خرجت أم كلثوم، وانصرف الحضور، وفي أذهانهم تلك الكلمات؛ حقًا لم نولد بتلك التعاسة، لكن الحياة كفيلة بإخراج أسوأ ما فينا، كفيلة بجعل ملائكة الرحمة أشد خبثًا ومكرًا من إبليس اللعين، الحياة كفيلة بتحويل كل لحظات الفرح والسعادة إلى لحظات تعيسة وحزينة.

إنَّ الرمادي سيد كل الألوان، لكننا ولدنا بالأبيض، والشقاء فُرِضَ علينا، لكننا جئنا إلى هنا لمتاعٍ ونعيمٍ آخر بعدما تركناه في الجنة، تلك الهشاشة وتلك الملامح التعيسة لم تولد معنا، لولا أننا كبرنا وعرفنا معنى أن تبكي مرارة الفقدان، ويتألم قلبك من الخيبة والخذلان، ويرتجف قلبك من الحزن والوحدة، لولا قسوة الحياة ما كنا تعساء أبدًا.

السادة الكرام، إلى هنا قد انتهى حفلنا، ولن ينتهي البؤس، ولن ينتهي العالم، سيبقى الحزن وستبقى المأساة، ولن ينتهي قبح وسوداوية العالم.

فـ إلى اللقاء في موعدٍ آخر، على أمل أن يكون أقل قسوة وجفاءً، وداعًا..»

الخاتمة

الآن، وقد انتهينا من كتابة هذه الرواية التي استهلكتْ جزءًا كبيرًا مِنّي في كتابتها، إنَّ هذا العمل لم يكن ليخرج بهذا الصدق لولا تضحيات وتنازلات وتغيّرات كبيرة حدثتْ في حياتي الشخصية.

للواقعية ثمن يا أصدقاء، ولقد عاهدتكم دائمًا أن أكون واقعيًّا في كل ما أكتبه؛ لقد عاشرتُ واقتربتُ من أغلب الشخصيات المذكورة هنا، ويؤسفني أنني لم أكتب الحقيقة كاملة، ولم أصف كل التفاصيل، وثَمَّة أشياء قررتُ حذفها في اللحظات الأخيرة، ليس لأنني جبان أو حفاظًا على السرِّيَة، لكن ولأن ببساطةٍ شديدة ثَمَّة أشياء حقيقية مهما حاولنا الكتابة عنها يبقى القلم عاجزًا عن وصف الصورة كاملة.

نبهتكم في المقدمة أن هذا العمل خارج إطار النقد الروائي؛ أقصد أنني لن أقبل النقد في أي قصة، ولن أقبل التعليق على أي رد فعل خاص بأبطال وشخصيات الرواية؛ لأنه ليس من حق أي شخص النقد أو التعليق على تصرفات شخصٍ آخر ما دام ليس في موقفه، ما دام ليس هو؛ لكن وبالتأكيد لكم حق النقد الأدبي في السرد، والكلمات، والألفاظ، إلخ.

على كل حال، لن أعتذر لكم عن قسوة الأحداث، فأنا مجرد راوٍ حاول وصف الصورة بطريقته الخاصة، ولن أعتذر أيضًا عن الذكريات التي لاحَتْ مِن جديد في ذاكرتكم، والأنين الذي تجدد في قلوبكم؛ لن أعتذر لأنني مثلكم، تألمتُ وتعذبتُ وأنا أنقل الصورة كما رأيتها.

ربما نحن جميعًا في حاجة ليعتذر لنا القدر عن ما رأينا وشاهدناه في ربيع عمرنا، نحن في حاجة لاعتذارٍ من القدر عن قسوة تلك الأيام.

إلى اللقاء، وكالعادة، ربما في موعدٍ أقل قسوة.. ربما!

وداعًا..

الإهداء

إلى فتاة الليل التي قالت لي:

«لو كنتُ وجدتُ الحُب والرضا والطمأنينة في مَن هُم حولي ما وضعتُ جسدي على طاولة المُفاوضات الماديَّة أبدًا، وما رهنتُ وبعتُ جسدي حسب الطلب.»

أُهدي إليكِ هذه الرواية وأقول لكِ:

لو وجدتُ الحُب والسعادة والأمان ما احترفتُ الكتابة من الأساس؛ كل مِنَّا يبيع أعَزّ ما يملك يا عزيزتي.

الفهرس

المقدمة ٢
الفصل الأول ٤
الفصل الثاني ٨٣
الفصل الثالث ١٧٠
الفصل الرابع ٢٧٣
الفصل الأخير ٣١٩
الخاتمة ٣٥٦
الإهداء ٣٥٨
الفهرس ٣٦٠